بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة 1)

الزمان: 09/محرم الحرام/1442 - 29/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

أحد أسرار ظلامة الولي/ الولي مَهَمّته بث خطاب الإنفاق ومحاربة البخل/ أول أدوار الولي ضمن خطاب المواساة هو غرس الدافع في الأشخاص

لماذا كل هذا التنكر للولاية ومحاربتها على مَر التاريخ؟

تعلمون أنه أهم مفاهيم ديننا هو الولاية؛ ففي الخبر: «وَلَم يُنادَ بِشَيءٍ كَما نُودِيَ بِالوَلايَة» (الكافي/ ج٢/ ص١٨). ولربما تعلمون أيضًا أن لماذا الولاية هي أهم شيء في ديننا؟ فعلى الرغم من إحساسنا بأن الإسلام الأصيل لا يُعلَّم ولا يُبَلَّغ للناس جيدًا لكننا – على أية حال - نتوقع من معظم مؤمني المجتمع أن يكونوا عارفين بمنزلة هذا المفهوم من الدين وفضله على جميع أحكامه. قد يكون تبادر إلى أذهانكم تساؤل وهو أنه لماذا حصل كل هذا التنكر للولاية على مَر التاريخ، بل وقاد إلى محاربتها أيضًا؟ ليلة عاشوراء كانت ذروة حرب «الناس» للولاية، فلقد أقدم «الناس» على قتل الحسين(ع)! كانت محاربة الولاية على مدى حوالي نصف قرن على يد خواص النفاق ونُخَبِه في الأمة قد أدَّتْ بحالة التنكر للولاية إلى حيث أَنزَلَتِ عامة الناس إلى الساحة ليقتلوا الإمام الحسين(ع)، ومن ثم عملتْ في جميع المدن أيضًا على جَرّ «الناس» إلى الشوارع، في طريق قافلة أهل البيت(ع)، ليهزَؤوا بأُسارى الطف، وينثروا الرماد على رؤوسهم، ويهينوهم!

لماذا يظل وليّ الله (الإمام) غريبًا؟ أَوَهَل هو سيئ الخلق ومتشدد؟

لماذا ظل أمير المؤمنين(ع) وحيدًا إلى درجة أنهم قتلوا حسينَه(ع) في النهاية؟! أوَكان أمير المؤمنين(ع) قليلَ عِلم؟! أوَكان ضعيفَ شجاعة؟! أوَكان شحيحَ عطفٍ ورأفة؟! أوَكان قليلَ تواضع؟! أوَلم يُسمّوه بـ«أبي تراب»؟! أوَكان قليلَ الزهد؟! أوَكان ضعيف الجذب؟! ...إلخ. ولو قيل لكم، أيها الشباب، إنهم «الناس الذين كانوا سيئين» فقولوا: ما معنى: الناس سيئون؟ ما السوء الذي كان فيهم؟ لِمَ لَمْ يكن ذلك المجتمع وأولئك الناس يرغبون في علي(ع)، حتى آثروا عليه معاوية؟ أَوَكان ولي الله (الإمام) سيّئَ الخُلُق؟ أوَكان متشدّدًا؟ إني لأرجوكم، وأخص الشباب بالذكر، أن تقرؤوا التاريخ جيدًا؟ أوَلَم يكن علي بن أبي طالب(ع) مظهرًا للعدل؟ أوَلَم يكن العدل في مصلحة الفقراء؟ أناس ذلك الزمان كان أغلبهم فقراء. إذن لماذا مات علي(ع) كمَدًا بسببهم؟!

لماذا ترك الناس عليًّا(ع) وحده؟/ بعض الأسباب التي تتبادر إلى الذهن، لكن غير الدقيقة:

لا تقولوا: «لأن أمير المؤمنين(ع) كان يجر الناس إلى الحروب!» فمعاوية أيضًا كان يجر الناس إلى الحروب! فلقد أبلَى بعضُ هؤلاء الناس أنفسِهم مع معاوية أحسن بلاء! فحين اقتاد معاوية الناس إلى حرب صفين قدّموا سبعين ألف قتيل، لكن حين حارب علي بن أبي طالب(ع) بهم في صفين قدّموا ثلاثين ألف شهيد فقط! لا تقولوا: «كانت دعاية معاوية أقوى!» فمن ذا الذي يبلغ معشار معشار سطوةَ عليّ(ع) الإعلامية؟! ففي ذلك الزمن لم تكن سينما، وما كان ثمة وسائل إعلام وإنترنيت وصحف، بل كانت هناك سلطة الخطابة. وقدرة علي بن أبي طالب(ع) في الدعوة والخطابة والكلام واضحة. لا تقولوا: «كان الناس عديمي الوعي!» فكلهم كان يعرف عليًّا والحسنَ والحسين(ع). وكلهم كان يعرف معاوية. كانوا مُطّلعين على كل شيء. فبالنسبة إلى قولهم: «كان الناس يجهلون عليًّا(ع) إلى درجة أنهم تساءلوا حين قُتل في المحراب: أكان عَلِيّ يُصَلّي؟!» فإن هذا الوضع لم يكن وضع أهل الكوفة والبصرة والمدينة.. أهلُ الشام فقط كانوا هكذا، بل وقسم منهم فقط لأسباب معيَّنة. لا تقولوا: «كان أمير المؤمنين(ع) قَتّالَ العرب، قتلَ الكثير من رؤوسهم فكان الحقد عليه يشحن قلوبهم!» فعليّ(ع)، في واقع الأمر، لم يقتل غير رؤوس قريش في مكة. إنه ما قتل من أهل المدينة أحدًا قط! فلماذا ترك الأخيرون عليًّا(ع) وحيدًا، وشاركوا في جرّه بالحبل في زقاق بني هاشم؟ لماذا خان بعضُ اليمنيّين، مثل الأشعث؟ وما بال أهل البصرة؟ طلحة والزبير لماذا غَدَروا؟ الخوارج لماذا خانوا؟ لِمَ يجتمع كل هؤلاء الخوَنة من حول أمير المؤمنين(ع)؟ أفَهَل قَتلَ أمير المؤمنين(ع) آباءهم؟ كلا، لم يقتل(ع) أبًا واحدًا لهؤلاء!

أَوَيكره الناس العدل؟

لا تقولوا: «إن سبب غُربة الإمام علي(ع) هو أنه كان خشنًا!» نعم، إن رسول الله(ص) قد قال في حقه(ع)، في ما رُوي عنه: «...فَإِنَّهُ خَشِنٌ في ذاتِ الله» (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد/ ج١/ ص١٧٣)، لكن إنْ كان الإمام علي(ع) خشنًا فلقد كان خشنًا في أمور الدين، وفي بَسط العدل. على سبيل المثال كان المسلمون، يومًا ما، قد أخذوا من غنائم اليمن بعض الأشياء، لكن أمير المؤمنين(ع) انتزعها منهم من أجل أن يدفعها إلى النبي(ص) ليوزّعها هو بنفسه؛ «... فَلَقِيَهُم عَن قُربٍ فَوَجَدَهُم قَد لَبِسُوا الحُلَلَ الَّتي كانَتْ مَعَهُمْ. فَأَنكَرَ(ع) ذَلِكَ عَلَيهِم وَقالَ لِلَّذي كانَ استَخلَفَهُ فيهِم: وَيلَكَ ما دَعاكَ إلى أَن تُعطِيَهُمُ الحُلَلَ مِن قَبلِ أَنْ نَدفَعَهَا إلى النَّبِيِّ(ص) وَلَم أَكُن أَذِنتُ لَكَ في ذلِك» (المصدر نفسه). أوَكان الناس آنذاك يمقُتون العدل؟ وعلى فرض المحال، لو كان أمير المؤمنين(ع) خشنًا في حُكمه، فلماذا تركوه بعد رسول الله(ص)؟ ولِمَ لم ينصروه ولم يطيعوه؟ فلم يكن في يده آنذاك حُكْم! ليست القصة بهذه البساطة. لا تقولوا: «السبب هو الحسد الذي كان في نفوسهم!» فكم كان حُسّادُ عليّ(ع) يا ترى؟ أوَكان الجميع أندادًا لأمير المؤمنين(ع) كي يحسدوه؟! إن الذي يحسُد هو الذي يشعر أنه منافس، فما وجه الحسد عند عامة الناس؟! وحتى لو افترضنا أن: «عامة الناس كانوا يحسدون أمير المؤمنين(ع)» ففي أي الأرضيات يمكن أن يتجلى هذا الحسد؟ فإنه لا مجال لظهور الحسد إذا انعدمت أرضيّته.

غَدْر أهل الكوفة يعني "غَدْر خواص الأمة الإسلامية للوليّ"

إن المرء ليسفحُ الدمعَ لهفةً على غربة أولياء الله حين يشاهد بعض الأعمال المسرحية أو الأفلام والمسلسلات التي تحكي قصصهم! كأن تُظهِر أن مسلم بن عقيل قَدِمَ الكوفة، وبين ليلةٍ وضُحاها تفرّقَ عنه أهلها وتركوه وحيدًا، وقتلوه! أهذا كل شيء؟! يتصوّر الكثيرون أن أهل الكوفة يحملون في خلاياهم جِينًا هو «جِين الغَدْر» وقد اصطدم أبو عبد الله الحسين(ع) بهذا الجين من باب المصادفة! حين يقال: «الكوفيّون لا وفاء لهم» فهذا - في الواقع - يعني أن خواص الأمة الإسلامية ونُخَبَها لا وفاء لهم لولي الله. فالكوفة أساسًا لم تكن مدينة عريقة، والكوفيّون لم يكونوا - شأن أهالي سائر المدن - يقطنونها منذ القِدَم جيلًا بعد جيل، بل لقد تجمّعوا فيها من مناطق شتى؛ قَدِمَ أكثرهم من المدينة، وكان غلمانهم من جنسيات مختلفة. كانت الكوفة – في الحقيقة – مدينة عسكرية تأسست أيام الهجوم على بلاد فارس. وكان نُخَب الكوفة في الواقع نُخَب المدينة المنورة، وفَدُوا على الكوفة وجعلوا منها مقرًّا للانطلاق والسيطرة على المنطقة.

لا عنصر القَبَلِيَّة كان حاضرًا ولا عنصر طلب الدنيا!

يقول البعض تفسيرًا لتفرّق الناس عن الإمام عليّ(ع): «كان سلوكهم سلوكًا قَبَلِيًّا»، والحال أن أمير المؤمنين(ع) قال: إن أرادوا القَبَلِيَّة فأنا قريب رسول الله(ص)، وهؤلاء أولاده... فتمسَّكوا بالقَبَلِيّة على الأقل! لقد وَقَّرتُم رسول الله(ص)، فوَقِّروا أهل بيته وقبيلته أيضًا. لقد أنكرتْ قريشُ على أنصار المدينة بأننا أقرب إلى رسول الله(ص)، فنحن قرابَتُه، فسكتَ الأنصارُ وسَلَّموا الحُكم لقريش! فقال أمير المؤمنين(ع): «إذا كانت القضية قضية عائلة وأسرة، فأنا أقرب إلى رسول الله(ص) منكم! «فَإِنْ كانوا صَدَقوا وَاحتَجُّوا بِحَقٍّ أَنَّهُم أَولَى مِنَ الأَنصارِ لِأَنَّهُم مِن قُرَيشٍ وَرَسولُ اللهِ(ص) مِن قُرَيشٍ فَمَن كانَ أَولَى بِرَسولِ اللهِ(ص) كَانَ أَولَى بِالأَمرِ...» (كتاب سليم بن قيس الهلالي/ ج٢/ ص٧٠٢).

ويقـول البعـض الآخـر: «لأن مصالحهـم كانـت مُهَـدَّدة، وكانـوا طالبـي دنيـا...». أَوَهـل كان الخـوارج أيضًـا طالبـي دنيـا؟ إنّ آخـرَ ضربـة وُجِّهَـت لحُكـم أمـير المؤمنـين(ع)، والتـي أدت إلى انهيـار ولايتـه العادلـة، كانـت عـلى يـد الخـوارج، الخـوارج الذيـن لا يحملـون أي حـب للدنيـا! فـماذا تقـول في هـذا؟ هـؤلاء مـا الـذي دهاهـم؟ مـن أيـن جـاؤوا؟ أجـل، طلحـة والزبـير كانـا طالبَـي دنيـا، لكـنّ ضربـة الخـوارج كانـت أشـد مـن ضربـة طلحـة والزبـير. البعـض أيضًـا يدّعـي أن: «التقاليـد العربيـة الجاهليـة كانـت هـي السـبب!» لكـن تقاليـد عـرب الجاهليـة تقـول: «إن كنـتَ مَدينًـا لأحـد فـأدِّ حقَّـه لولَـده»، لكـنّ القـوم لم يعملـوا بتقليدهـم هـذا مـع أولاد رسـول اللـه(ص)! ولقـد أشـارت سيدتنا فاطمـة الزهـراء(س) إلى ذلـك، وذكـرَه الإمـامُ الحسـين(ع) أيضًـا. إذن فـما الـذي دَهَـى القـوم؟ يقـول أمـير المؤمنـين(ع): بحسـب التقاليـد العربيـة لـو رفـع رجـلٌ يـده عـلى فتـاة أو امـرأة فضربَهـا تظـل ذريّتُـه لأجيـال تُعَـيَّر بفعلتـه هـذه: بأنـك ابـن ذاك الجـد الـذي ضرب امـرأة! «وَإِن كانَ الرَّجُـلُ لَيَتَنـاوَلُ المَـرْأَةَ فِي الجاهِلِيَّـةِ بِالفِهْـرِ [الحَجَـر] أَوِ الهِـرَاوَةِ فَيُعَـيَّرُ بِهـا وَعَقِبُـهُ مِـن بَعـدِهِ» (نهـج البلاغـة/ الكتـاب١٤). فلـو أرادوا التمسـك بتقاليـد عـرب الجاهليـة فلـماذا ضربـوا أطفـال الحسـين(ع) بالسـياط؟! لِـمَ أصبحـوا بـكل هـذه الوحشـية في هـذا الزمـان (أي زمـان الإمـام الحسـين(ع) وعاشـوراء) حيـث مَضَـت حقبـة الجاهليـة؟! أيُّ أعـداءَ وخصـومَ تخلُـق الولايـة؟ القـوم لم يكونـوا هكـذا قبـل ذلـك. ففـي ليلـة المبيـت حـين عزمـوا عـلى قتـل النبـي(ص) قالـوا: الوقـت ليـل، والأطفـال والنسـاء نيـام، فلِـمَ نؤذيهـم؟ فلنصبر حتـى مُنبَلَـج الصبـح ثـم نقتحـم الـدار. فكَمَنـوا خـارج الـدار حتـى الصبـاح؛ «فَلَـمّا أَمـسَى رَسـولُ اللـهِ(ص) جـاءَتْ قُرَيـشٌ لِيَدخُلـوا عَلَيـهِ، فَقـالَ أَبُـو لَهَـبٍ: لا أَدَعُكُـم أَن تَدخُلُـوا عَلَيـهِ بِاللَّيـلِ فَـإِنَّ فِي الـدّارِ صِبيانًـا وَنِسـاءَ وَلا نَأْمَـنُ أَن تَقَـعَ بِهِـم يَـدٌ خاطِئَـةٌ. فَنَحرُسُـهُ اللَّيْلَـةَ، فَـإِذا أَصبَحنـا دَخَلْنَـا عَلَيـهِ. فَنامـوا حَـولَ حُجـرَةِ رَسـولِ اللـهِ(ص)» (تفسـير القمـي/ ج١/ ص٢٧٥). لكنهـم، بعـد رسـول اللـه(ص)، هجمـوا عـلى بيـت ابنتـه، ولم يتفـوَّه أحـدٌ منهـم بكلمـة! فـلا نكـن سُـذَّجًا. هـذه التسـاؤلات حـول تاريـخ الإسـلام وتحليـل ظلامـة الـوَلي هـي في غايـة الأهميـة وتسـتحق التأمـل.

دور الولي في بث خطاب الإنفاق والمواساة

إحدى أسرار ظلامة الولي/ الولاية تَيسير للإنفاق وتبديد للبخل

نريد في هذه المحاضرة دراسة علاقة الولي بالإنفاق، والمواساة، وخطاب البذل، ونبذ الشُحّ، وترك البخل، وخطاب الإنفاق (بالمعنى الأعم للكلمة)، حيث سيتم إلقاء الضوء على إحدى زوايا الموضوع من جهة، وعلى أحد الردود على التساؤل المطروح من أنه: «لماذا تُرك الوَلِيّ وحيدًا؟» إن أحد أسرار ظلامة الولي هو تحديدًا موضوع المواساة، والإنفاق، والزكاة، والخمس هذا. فالعطاء والبذل وحرمان النفس من الشيء صعب على الإنسان، والولي مأمور بالقَبْض من الناس.. مأمور بتدبير خطاب الإنفاق.. مأمور بالمعارضة العلنية للشُح والبخل. فالبخلاء يدخلون في صفقات فيما بينهم.. يتفاهمون، أما الولي فإن له منزلة ترفعه عن الدخول في هذه التفاهمات. فإن من أهم القضايا التي تحرّض الناس على الوقوف في وجه الولي هي قضية البذل والشُح. من ناحية فإن الشح والبخل مذموم ويمنع البذل والعطاء، ومن ناحية أخرى فإن الولي يسهّل على الناس البذل؛ أي إن الولاية سبب لإزالة البخل والشح ومدعاة لتيسير الإنفاق والزكاة والمواساة وكل أشكال العطاء، بما في ذلك بذل النفس. فهل إن مشكلة الشُح الأساسية هي الولاية، أم أن الولاية هي المزيلة للشح؟ الجواب: الاثنان معًا! فإنّ دَور الولي في خطاب الإنفاق والمواساة دور جوهري؛ دوره جوهري في تسهيل الأمر، وتنظيمه، وتحديد المصاديق، وفي الوقوف أمام أشكال السرقة، والظلم، والتَعَدّي، والتملص من العدالة، وفي بعث الدافع فيك لتبذل نفسك وتُضَحّي بكل وجودك.

أول أدوار الولي ضمن خطاب المواساة هو غرس الدافع في الأشخاص

إن دور الـولي ضمـن خطـاب الإنفـاق والمواسـاة هو خلـق الدافع. فالكثيرون - على سـبيل المثـال - مَيّالون لبـذل أمـوال طائلـة في سـبيل الحسـين(ع)، ولقـد شـاهدنا أيـام الدفـاع المقـدس كيـف أن شـبابنا بذلـوا في سـبيل الإمـام الحسـين(ع) الأرواح. لاحظـوا أي عشـق كان يَعمُـر قلـوب أولئـك الشـباب! فإننـا نقـول في الزيـارات المأثـورة مخاطبـين المعصـوم(ع): «بِـأَبِي أَنـتَ وَأُمِّـي وَنَفـسي وَأَهـلي وَمـالي وَوُلْـدي» (إقبـال الأعـمال/ ج٢/ ص٦٠٥). هكـذا تغـدو الأمـور حـين يكـون ولي اللـه هـو المَعنِـيّ. الـولي يغرس في الأشـخاص الحافـز. ولنقـرأ معًـا في هـذا الصـدد آية من الذكـر الحكيم: «خُـذْ مِنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَـا وَصَـلِّ عَلَيْهِـمْ إِنَّ صَلاتَـكَ سَـكَنٌ لَهُـم» (التوبة/١٠٣)؛ القـرآن الكريم يقصـد «بالصدقة» أحيانًـا الزكاة، فالصدقـة تشـمل الـزكاة أيضًـا. يقـول: «تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِـمْ بِهَـا»؛ إنـك تطهّـر النـاس حـين تأخـذ منهـم الصدقـات، وتُنضِجُهـم، وتربّيهـم. «وَصَـلِّ عَلَيْهِـمْ» أيهـا النبـي، صَـلِّ عـلى كل مـن تأخـذ منـه الصدقـة. «إِنَّ صَلاتَـكَ سَـكَنٌ لَهُـم» فصـلاة النبـي(ص) عليهـم هـي مدعـاة لسـكينتهم وطمأنينـة نفوسـهم. ونحـن أيضًـا نخاطـب صاحـب الزمان(عـج): «يـا بـن الحسـن، مـا العطـاء الذي عـليَّ بذلُـه كي تُصَلّي أنـت علَيّ؟»

بماذا يزول الإمساك والشح؟

بمـاذا يـزول الإمسـاك والشُـحّ وهـما صفتـان ذاتيتـان في الإنسـان؟ انظـروا الأربعـين؛ الرجـل منهـم يبـذل وجـوده كلـه عـلى قارعـة الطريـق! ينقـل أحـد الزائريـن: نزلنـا في النجـف الأشرف في منـزل كان وضعـه مـن الداخـل مُـزرٍ. وكان الطقـس أيامهـا بـاردًا، وصاحـب الـدار لا يملـك حتـى حصـيرًا مناسـبًا، لكنـه قـدّم لنـا عشـاءً فاخـرًا. سـألْنا صاحـبَ الـدار: «مـا عملُـك؟ وضْـعُ بيتِـك لا يتناسـب مـع مـا قدّمـت لنـا مـن عشـاء!» فأقسـم علينـا أن: «تناولـوا عشـاءكم وسـأخبركم فيـما بعـد!» وكان يعتـذر مـن كـون مكاننـا مُـزْرٍ بعـض الـشيء. قـال لنـا بعـد العشـاء: «أنـا أبيـع السـجائر في صينيـة. وقـد تعاهـدتُ مـع أسرتي عـلى أن نجعـل نصـفَ دَخلِنـا مـن كل يـوم لأربعـين الحسـين(ع). فهـذا المقـدار ليـس مِلكَنـا أصلًا!»...

وهـذا واقـع؛ فـإنّ مقـدار الـزكاة والخمـس ومـا إليهـما مـن المـال الـذي تكسـبُه ليـس ملـكَك أصـلًا، إنـه للمجتمـع، إنـه لإمـام المسـلمين، وأنـت – في الحقيقـة – عامـل لهم. بـل ليس هـو مالَك أساسًـا كي تعطيه! إن مـا تعطيـه ليـس هـو مالَـك، بـل مـالٌ جُعِـل في أموالـك. هـكـذا هـو نظـام الإسـلام. كل مـن كان يلتقي بأئمتنـا(ع)، مـن تلـك القِلّـة الغريبـة المخلصـة مـن الشـيعة آنـذاك، كان عليـه أن يدفـع للمعصـوم(ع) نقـودًا.. أن يدفـع مـا عليـه مـن خمـس وزكاة. مـا الـذي يجعلنـي الآن أتحدث إليكـم بكل راحة وبسـاطة عـن الديـن؟ لأني لا أقبـض منكـم الخمـس، ولا أقـول: «لا بـد أن تدفعـوا إلَيّ مـالًا»، لكن المعصـوم(ع) كان يفعـل هـذا. تخيّلـوا الآن لـو أن النـاسَ ضعيفـو الإيمـان قيـد شـعرة فكيـف تراهـم سـينظرون إلى هـذا الإمـام؟! أنـا شـخصيًّا مـا عنـدي مشـكلة لأنّي مجـرد مُـروِّج ومُبلِّـغ، أمـا الأنبيـاء فكانـت مهمتهـم في غايـة الصعوبـة، كانـوا يقولـون للنـاس: «فَاتَّقُـوا اللـهَ وَأَطِيعُـونِ» (آل عمـران/٥٠). كنـتُ أحـاضر ذات مـرّة فقلـتُ للحضـور: «هـذه الآيـة تكـرّرت في القـرآن الكريـم عـشر مـرات»، فقـال لي عجـوز مؤمـن وَقـور: «النبـي لا يقـول أبـدًا: أطيعـوني، بـل يقـول: أطيعـوا اللـه! لعلـك قـرأتَ الآيـة خطـأً!» قلـتُ: «إنـه نَـصّ الآيـة القرآنيـة، ليـس الذنـبُ ذنبـي». فقـال: «لكـن لـو قـال النبـي: أطيعـوني أنـا، فمـن الطبيعـي أن يسـتاء المخاطَـب». قلـتُ: «بحسـب القـرآن الكريـم فـإن مـا كان يُسيء الكُفّـارَ هو هـذا الـكلام تحديدًا».

لم يكن النبي(ص) معلِّم أخلاق ليقول: "آتُوا الزكاة"، بل كان يأخذ هو الزكاة

مشـكلة الأنبيـاء أنهـم لم يكونـوا مُعلِّمـي أخـلاق، يَعِظـون وينصرفـون. فالنبـي الأعظـم(ص) مثـلًا لم يكـن يقـول: «آتـوا الـزكاة، لكنّـي لا أعلـم لِمَـن تؤتوهـا وكيـف؟» بـل كان يأخـذ هـو الـزكاة، وكان يتُـمّ الاصطـدام مـع مَـن لا يدفعهـا! أنـت الآن تعشـق الإمـام الحسـين(ع)، وتتهيّـأ شـيئًا فشـيئًا لظهـور المـولى صاحـب الزمان(عـج)، ولهـذا تـراك تبـذل بـكل سـهولة قائـلًا: «سـيدي، إني أبـذل وأعطـي حبًّـا لـك». عـلى أن الإمـام الحسـين(ع) هـو عـلى درجـة مـن الظُلامـة مـا يجعلـك تسـتحيي أن تقـول لا. أسـأل اللـه تعـالى أن تكـون عـلى مسـتوى مـن البذل بحيـث إذا ظهر الإمـام المقتـدر - أي صاحب الزمـان(ع) – تبذل أيضًـا في سـبيله وتعطيـه بـكل كـرَم كـما تعطـي للإمـام الحسـين(ع) بالضبـط. فعـن الإمـام الصـادق(ع) قولـه: «مَـنْ زَعَـمَ أَنَّ الْإِمَـامَ يَحْتَـاجُ إِلَى مَـا فِي أَيْـدِي النَّـاسِ فَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّمَـا النَّـاسُ يَحْتَاجُونَ أَنْ يَقْبَـلَ مِنْهُمُ الْإِمَـامُ؛ قَـالَ اللـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: خُـذْ مِـنْ أَمْوالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِـمْ بِهـا» (الـكافي/ ج١/ ص٥٣٧).

قل لـه: «سـيدي، أنـا محتـاج...». لقـد كشـفَ الإمـامُ الحسـين(ع) ليلـة العـاشر مـن المحـرَّم لأصحابـه شـيئًا خاصًّـا ثـم قـال لهـم: «اذهبـوا، لا حاجـة لأن تبذلـوا أرواحكـم...». فراحـوا يتوسّـلون إليـه توسّـلًا. إن ليلـة عاشـوراء ليلـة الولايـة.

الدور الثاني للإمام هو "تحشيد الجماهير" للإنفاق والمواساة/ إننا حاليًّا في المراتب الأولى من التَوَلّي

الـدور الأول للإمـام إذن هـو «غـرس الدافـع عنـد الأشـخاص». وناهيـك عـن غـرس الدافـع الفـردي فـإن العمـل الثـاني الـذي ينهـض بـه الإمـام في ميـدان المواسـاة هـو «التحشـيد الجماعـي». ولقـد لمسـتم هـذا العـام دور قائـد الثـورة الإمـام الخامنئـي (دام ظلـه) في هـذا المجـال. عـلى أن هـذه – حاليًّـا – هـي مجـرد المراحـل الابتدائيـة جـدًّا مـن الإنفـاق. فـما زلنـا، في عهـد الإمـام الخمينـي(ره) والإمـام الخامنئـي، في المراتـب الابتدائيـة جـدًّا مـن الإنفـاق والمواسـاة؛ بمعنـى أن المواسـاة كلهـا ليسـت هـذه. في الوقـت الحـاضر شُـكِّلَت هيـأة زكاة، وهـي أضعـف حتـى مـن هيـأة الصلاة، وهـي تخاطبُنـا: «إنْ أعطيتـم الـزكاة فهـذا جيّـد، فهـو حُكـم إسلامي عـلى أيـة حـال، أرجوكـم آتـوا الـزكاة، ...». أمـا الخُمـس فليـس لـه أساسًـا هيـأة تدعـو النـاس إلى دفعـه. إذن كل شيء، في الوقـت الحـاضر، يسـير بالمجامـلات! ثـاني أدوار الإمـام هـو تحشـيد الجماهـير مـن أجـل الإنفـاق. في الوقـت الحـاضر مـا زلنـا نحـن في مراحـل ابتدائيـة للغايـة. وَليّ الأمـة يقـول لنـا: «تصرّفـوا بهـذه الصـورة...» وحسـب. لقـد أصـدر قائـد الثـورة الإمـام الخامنئـي (حفظـه اللـه) أمـرًا بخصـوص الإنجـاب، فلـماذا يُمسـك الكثـيرون؟! أيُعَـدّ هـذا مـن التَـوَلّي حقًّـا؟! إنـك تـرى بعـض الشـباب الـولائي يقـول متذرّعًـا: «سـأتزوج لاحقًـا، ليـس الآن..!» نحـن إلى الآن لم نتعلّـم التـولّي والتمسـك بالولايـة جيـدًا. لا بـد أن يكـون الإمـام قـادرًا عـلى تحشـيد النـاس للإنفـاق. روحـي لأمـير المؤمنـين عـلي(ع) الفـداء إذ كان النـاس لا يطيعونـه! مهـما نـادى في النـاس للجهـاد لم يـأت أحـد؛ «فَقَـامَ عَـلِيٌّ(ع)، فَنَـادَى فِي النَّـاسِ «الصَّـلَاةَ جَامِعَـةً»، فَاجْتَمَـعَ النَّـاسُ فَصَعِـدَ الْمِنْـبَرَ فَحَمِـدَ اللـهَ وَأَثْنَـى عَلَيْـهِ وَصَـلَّى عَـلَى النَّبِـيِّ(ص) ثُـمَّ قَـالَ:

«أَمَّا بَعْدُ فَهَذَا صَرِيخُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَإِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَقَدْ سَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ النَّابِغَةِ عَدُوُّ اللهِ وَعَدُوُّكُمْ... فَكَأَنَّكُمْ بِهِمْ قَدْ بَدَؤُوكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِالْغَزْوِ فَاعْجَلُوا إِلَيْهِمْ بِالْمُوَاسَاةِ وَالنَّصْرِ...» (الغارات/ ج١/ ص١٩١) حتى توجّه يمشي قاصدًا المُعسكَر بمفرده. فسمع بعضُهم بذلك فجاؤوه وترجّوه أن يتريّث ويرجع حتى يجمعوا الناس...». روحي لك الفداء يا أمير المؤمنين(ع) إذ لم تَعُد الناس تُحشَّد بأوامرك. لا بد للإمام أن يملك قدرة تحشيد الناس. ومن يعطيه هذه القدرة؟ إنهم أولئك القلة من الصالحين الذين ينفقون؛ من أموالهم حتى أنفسهم، ومن سُمعَتهم حتى وجودهم كله.

الدور الثالث للإمام في موضوع الإنفاق هو كبح جماح خواصّ الأمة

وما هي مَهَمّة الإمام الأخرى بخصوص الإنفاق؟ إن من شأن خطاب الإنفاق في الأمة أن يكبح جماح خَواصّها لئلّا يتحوّلوا إلى سُرّاق لبيت المال. فلا بد لإمام الأمة، في ما يتصل بالإنفاق والشؤون المالية، أن يتمتع بقدرة على حَشد الخواصّ أكبر بكثير مما نشهده الآن، والحمد لله. إنه على الرغم من التحوّل الحاصل الآن في السلطة القضائية في البلد، وهو سعيها - من الآن فصاعدًا - لأن تَعُدّ «عدم عمل المسؤول وتركه العمل» جُرمًا وملاحقته لهذا السبب - وهو أمر جيد بحد ذاته - إلا أن سلطة القانون والقوة القسرية ليست بمستوى تستطيع من خلاله توطيد أركان الولاية. صاحب العصر والزمان(عج) أيضًا لن يقيم دولته بسلطة القانون والقوة القسرية وحسب. هذا على الرغم من أنه ما زال أمامنا الكثير لنتطور من حيث القانون؛ فإن قوانين كثيرة لدينا تحتاج إلى إصلاح، وإن رقابة مكثَّفة يجب أن تُفرض على المسؤولين، هذا بحد ذاته جيد، لكنه غير كافٍ.

يجب أن يكون ولي الأمة قويًّا لكي يتمكن من حشد الناس للإنفاق والمواساة/ السبيل لبسط العدل في المجتمع هي قوة الولي

هناك ثلّة من الملتَفّين على القانون يعمدون دائمًا إلى مثل هذه الممارسات. مضافًا إلى أن البعض الآخر يعكّر أجواء البلد السياسية للحيلولة دون تنفيذ القانون، فنضطر باستمرار إلى ملاحظة بعض المصالح والتراجع عن تنفيذ القانون. كان أمير المؤمنين علي(ع) قد رفض أبا موسى الأشعري علنًا! لكن الناس كانوا قد شهَروا عليه(ع) السيوف وفرضوا أبا موسى فرضًا! ألَم يشرّع أمير المؤمنين(ع) قانونًا؟ بلى، شرّعَ قانونًا، لكن الناس خرقوه. يجب أن تكون لدى ولي الأمة المسلمة قوّة ونفوذ اجتماعي لكي يتمكن من حشد الجماهير لإشاعة ثقافة الإنفاق والمواساة، بل أن يتمتع بقوة لا يجرؤ معها أحد على اقتراف الخطأ حتى بمجرد إشارة من الولي. هكذا سيكون الوضع في عهد حُكم صاحب الزمان(عج)، أما أمير المؤمنين(ع) فكان ثمّة من حوله من يقومون مقام «مِفَكّات البراغي!»، وكان أحدهم الأشعث. إننا لو تتبّعنا «الجذور السياسية لبسط العدالة» لتعالت الصيحات! السبيل لبسط العدل في المجتمع هي قوة ولي الأمة؛ قوته من حيث النفوذ الاجتماعي، وقوته لكبح جماح خواصّ الأمة حتى لا يجرؤوا على ارتكاب خطأ أو على عدم جعل المواساة سلوكًا لهم. ففي الخبر أنّ مَن يخرج من مسؤولي دولة صاحب الزمان(ع) عن دائرة أكل الخبز اليابس وارتداء اللباس الخشن فإن مكانه في النار! «...أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سِيَاسَةُ اللَّيْلِ وَسَبَاحَةُ النَّهَارِ وَأَكْلُ الْجَشِبِ وَلُبْسُ الْخَشِنِ شِبْهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ(ع) وَإِلَّا فَالنَّار» (الغيبة للنعماني/ ص٢٨٧). في اجتماع مع الكابينة الوزارية لإحدى الحكومات نصح قائد الثورة الإمام الخامنئي رئيس الحكومة بـ«التخلي عن الشكليات»، فاحتج رئيس الحكومة خارج الاجتماع على السيد القائد أنه: «لماذا قلت هذا؟!» فماذا تتوقعون أن يحصل في ظروف كهذه؟!

يقوم بعض الخواص والساسة مقام "مِفَكّ البراغي!" لسلطة إمام الأمة

يقوم بعض نُخب المجتمع والخواص والساسة، مقام «مِفَك البراغي!» أي يقومون بدور المُضعِف لسلطة إمام الأمة. فانظروا كم «مِفَك براغٍ» لدينا الآن في زماننا؟ ولأذكر لكم مثالًا. أول شهيدِ الاغتيالات في الجمهورية الإسلامية كان «الشهيد المشير قَرَني» من الجيش؛ أي إن الجيش كان قد قدم أول شهداء الاغتيالات، وهذا فَخر أبدي للجيش وكل أفراده. لكن ما الذي جعل الشهيد المشير قَرَني على هذه الدرجة من الغُربة في أيامنا هذه بحيث إن أغلب شبابنا غير مُطّلع على هذا الموضوع؟ السبب هو إن الماكنة الإعلامية في هذا البلد، ولمدة أربعين عامًا، كانت في الغالب في قبضة المتغرّبين والليبراليين الكثيري الصخب والدعاوَى، وأمثال هؤلاء لا يُسَرّون أبدًا بأن ترفعوا من شأن الشهيد قَرَني. لقد أرغمَ التيارُ الليبرالي المتغرّب الشهيدَ قَرَني، الذي كان قائد أركان الجيش في حينها، على الاستقالة، وألزَمَه السيدُ بازركان منزلَه، خلافًا لتوجيهات الإمام الراحل(ره)، ثم تم اغتياله بعد استقالته! وكان، رحمَه الله، أول من اغتيل وسُقي كأس الشهادة على يد «المنافقين» (زمرة «مجاهدي خلق!»). كان السيد بازركان يقول في زمرة مجاهدي خلق: «إنهم أبنائي!» والإمام الراحل(ره) أيضًا قال: «هؤلاء الإرهابيون هم أبناء السيد بازركان». والآن نشاهد اسم الأب الروحي لقاتلي الشهيد العزيز قَرَني، أي المرحوم بازركان، يُكتَب على جدران العاصمة طهران! أي إن مجلس محافظة طهران قرّر أن يسمي أحد شوارع طهران باسم «بازركان». فلتدَعوا وصمة العار هذه تعلو جباه المتغرّبين إلى الأبد!

بازركان، أنموذج المُضْعِف لولاية الفقيه

لماذا أنا أضرب من حركة «نهضت آزادي» (نهضة الحرية) وبازركان مثلًا؟ لأني أريد أن أبيّن من خلال ذلك النمط الأنيق والمرتَّب جدًّا للعامل المُضْعِف للولاية والثورة. ولأن بازركان هو النموذج البارز للعامل المُضعِف لولاية الفقيه في زمان الإمام الراحل(ره)، واليوم أنتم تشاهدون بأُمّ أعينكم الذين يُقَوّون هذا العامل المُضعف للولاية. الإمام الخميني(ره) كان قد كتب إلى وزير الداخلية في حينه حول «نهضت آزادي» (أي حزب السيد بازركان) ما نصه: «هناك حول ما يسمى بـ»نهضت آزادي» مواضيع جمة تتطلب مناقشتها ساعات مطوّلة. لكن ما ينبغي قوله من باب الإجمال: إن ملف هذه الحركة وأداءها إبان الحكومة المؤقتة في أوائل عهد انتصار الثورة يُثبت أن هذه الحركة هي من الأنصار الأشدّاء لتبعية دولة إيران لأمريكا، وهي لم تَألُ جهدًا في هذا المجال... إن حركة «نهضت آزادي» ليست مؤهَّلة لأي دور تنفيذي، أو تشريعي، أو قضائي، وإن ضررها – على اعتبار تظاهرها بالإسلام، وأنها ستعمل عبر هذا السلاح على حَرْف شبابنا الأعزة، وما يمكن أن تتسبب به من فساد كبير من خلال تدخّلاتها السلبية في تفسير القرآن الكريم والسُنّة الشريفة وتقديم التأويلات التي تنم عن جهل – إن ضررها أفدح من ضرر الزُمَر الأخرى، بما في ذلك زمرة المنافقين، الأبناء المحبوبون للمهندس بازركان» («صحيفه امام» (صحيفة الإمام/ ج٢٠/ ص٤٨١). لاحظوا أن الإمام الراحل(ره) كان يأبى أن يقول: «نهضت آزادي» (نهضة الحرية)، بل يقول: «ما يسمى بنهضة الحرية»، لأنها – في واقع الأمر – كانت نهضة العبودية، لا الحرية!

لقد أودى مُضعِفو الولاية بالأمور إلى جعل الناس يقتلون الإمام الحسين(ع)/ نحن لا نريد أن نكون من مُضعفي الولاية

وليّ الأمة هو في قمة النجابة، ونجابته هذه هي أحد أسرار ظلامته. لقد أَودَى مُضْعِفو الولاية على مدى التاريخ بالأمور إلى جعل الناس يُقْدِمون هم على قتل الإمام الحسين(ع)! ونحن لا نريد أن نكون في عداد مُضعِفي الولاية. يقول الإمام الراحل(ره): «إن ضرر نهضة الحرية هو أشد من ضرر زمرة المنافقين الإرهابية»؛ أي أولئك الإرهابيون الذين قتلوا سبعة عشر ألفًا من أفراد الشعب. بعد اغتيال الشهيد المشير قَرَني (أعلى الله مقامه الشريف) أرادوا دفن جثمانه في مقبرة «بهشت زهرا» (جنة الزهراء (س))، فقال سماحة الإمام الراحل(ره): خذوه إلى مدينة قم وادفنوه عند مرقد السيدة فاطمة المعصومة(س) بجوار سماحة آية الله الحائري(ره)، مؤسس الحوزة العلمية بقم المقدسة. لقد كان عسكريًا عظيمًا. ينبغي لهؤلاء الشباب جميعًا أن يعرفوا المشير قَرَني. لماذا لا يُذكَر اسمه في المناهج الدراسية؟! كان الشهيد قَرَني الرجل العظيم الذي صانَ الثكنات العسكرية في أوائل أيام انتصار الثورة. وكان حبيس السجون لبضع سنين قبل انتصارها. وهناك أقوال بأن خطة اغتيال سماحة الإمام الخميني(ره) في النجف الأشرف - والتي تم رسمُها في أنظمة الجيش أيام الحكم الطاغوتي - كانت قد كُشِفَت وأُجهِضَت بمساعدته. وكان هو من حَشَد العسكريين وحثهم على الصمود بعد انتصار الثورة بوصفه إنسانًا وطنيًا. لماذا المشير قَرَني غير معروف إلا لنسبة ضئيلة من شبابنا؟ أيها الأصدقاء، يا من تثمّنون جهود الحاج قاسم سليماني كل هذا التثمين، لا تنسوا المشير قَرَني، فهو العزيز الغالي على قلوبنا.

فضح خيانة حكومة بازركان في كتاب استقالة الشهيد المشير قَرَني

كان الشهيد قَرَني قد كتب كتاب استقالة، إلا أن الإمام الراحل(ره) طلب إليه البقاء في منصبه. فدعاه السيد بازركان بعد بضعة أيام وقال له: «لقد تمت الموافقة على استقالتك». ومن بعد أن أصبح جليس الدار، قتلوه! جاء في كتاب استقالة الشهيد قرني: «على وتيرة يومية يُصدر نائب رئيس وزراء الثورة، الذي يرى نفسه المشرّع للقوانين والمالك للرقاب، ودونما التفات منه إلى مكانة الجيش وتجهيزاته، بل ومن دون مشاورتي أيضًا مع الأسف - يُصدر توجيهات تؤدي كل حين إلى ضربات مُوجِعة لمعنويات الضباط ووقوع كميات من السلاح والعتاد والأموال في أيدي الفاسدين والمرتبطين بالأجانب. إن وزير الدفاع يعمد - من دون التشاور معي وفي ما هو خارج عن نطاق صلاحياته - إلى التصريح بشكل غير مسؤول أمام الإذاعة والتلفزيون والصحافة من أن: الجنود في شهر فروردين [رأس السنة الشمسية] في إجازة! فتَترك تلك القلة القليلة من الجند، التي عمل الجيش بشق الأنفس على الاحتفاظ بها في الثكنات العسكرية – تَترك مواقعها في حراسة الثكنات عائدة إلى منازلها، وتتسلل تحت جنح الظلام عناصرُ من حزب «تُودَة»، المرتبطة بالسياسات الأجنبية، بشاحناتها إلى الثكنات فتشحن ما بقي فيها من الأسلحة والعتاد إلى خارج المدن. وهذا هو ما دعاني إلى الاستقالة». أي كانت الحكومة المؤقتة تعلن العطلة في الثكنات، ليتركها الجنود، فتأتي عناصر مرتبطة بحزب «تودة» لتشحن ما فيها من أسلحة وعتاد بالشاحنات وتأخذها إلى أماكن مجهولة! ويتابع الشهيد قرني في كتاب استقالته: «من دون استشارة قيادة الجيش وأعلى مرجع لتقييم الأوضاع في محافظة كردستان أرسلَت الحكومة وفدًا من المندوبين إلى المحافظة، حيث لدى وصولهم إليها وبعد أول إشاعات أطلقوها، دفعوا الأهالي إلى مداهمة ثكنة مهاباد العسكرية ونهبها، وإمطار قائد الثكنة بالرصاص أمام أنظار الوفد المذكور!» كان هذا الوفد المفاوض مرسَلًا من السيد بازركان للتفاوض مع الإرهابيين. فاشترط الأخيرون أن: «ليتم إخلاء الثكنة كي نتفاوض معكم». فطلب الوفد إلى آمر الثكنة إخلاءها. لكن الإرهابيين أَقدَموا بكل بساطة، بعد إخلاء الثكنة، على اختطاف آمِرها! ولدى وصول وفد الحكومة المؤقتة المفاوض قتلوا آمر الثكنة رميًا بالرصاص أمام الوفد! يقول الشهيد قرني: «هذه هي مواجعي...!» وإني لأطالب رئيس مجلس المحافظة أن يطالع تقارير والده وكتاباته حول خيانات بازركان.

الدور الرابع للإمام في خطاب الإنفاق هو تحديد مجالات الإنفاق وكونه صاحب السلطة على الأموال

وما هو الدور الآخر للإمام في موضوع الإنفاق؟ دوره الآخر هو أنه هو الذي يحدد مجال إنفاق الأموال وصرفها. بعد معركة حُنَين وحين أمر رسول الله(ص) بإعطاء أهل مكة الحظ الأوفر من الغنائم لأنهم جديدُو العهد بالإسلام، قال له حرقوص بن الزهير: «اِعدِلْ يا رسول الله»، فقد كان معارضًا لطريقة تقسيم الغنائم، وهذا أحد مواطن الامتحان. الامتحان الآخر هو أن الولي هو صاحب السلطة على أموال الناس، وأنه ينبغي أن يأخذ بعضَها لنفسه. لقد جاء الأمر إلى النبي الأعظم(ص) من الله عز وجل أن يهَبَ الأموال التي وقعت في يد المسلمين من دون قتال لفاطمة الزهراء(س)، فكان أن وهبها فَدَكًا. وأول ما حدث بعد رحيل رسول الله(ص) هو أنهم أخرجوا عُمّال السيدة الزهراء(س) من فدك واستولوا عليها. وعلى خلفية ذلك ضُرِبَت الزهراء(س) وحدث كل ما قد سمعتم به! وحين طالبت الزهراء(س) بفدك كان ردهم في بادئ الأمر أن: «النبي لا يُوَرِّث». وحين أثبتت(س) أن كلامهم لا أساس له من الصحة قالوا: «لقد جعلنا فدك من بيت المال لتُوزَّع على الناس، فما شأنُكِ ببيت المال؟! إنْ كنتِ تريدين بستانًا أعطيتكِ أنا واحدًا!» فتوجّهت الزهراء(س) إلى الناس مبيّنة لهم أنه يغصبُها حقَّها. لكن حق فاطمة الزهراء(س) كان قد قُسِّم وكان ينزل في بطون أولئك الناس جميعًا، فطأطؤوا رؤوسَهم. خاطبَتهم، سلام الله عليها، (بما مضمونه): أيها الناس، إني ابنة نبيكم، ولقد عاهدتموه أن تصونوا ابنتَه من بعده...! بهذه البساطة ترك الناسُ فاطمة الزهراء(س) وأمير المؤمنين(ع) غريبَين، بما وجدوا من ذريعة جيدة! وبعد عودتها إلى الدار قالت للإمام علي(ع): «لَيتَني مِتُّ» ولم أشاهد هذه المشاهد! أوَتكون فاطمة الزهراء(س) قد استُشهدَت لأمر تافه؟ أهو موضوع بسيط يا ترى؟ أتدرون من هي الصِدّيقة الكبرى(س)؟ لقد قالت(س) بخصوص هذا الأمر: «لَيتَني مِتُّ»...! ففدَك إذن موضوع مهم. ألا يرتبط موضوع فدك بالشُحّ والإنفاق؟ ألم يكن الناس يدركون لماذا ينبغي لهذه الأموال أن تكون مِلكًا لابنة رسول الله(ص)؟!

مباشرةً بعد رحيل رسول الله(ص) اختُبِر الناس ببُخلهم مع فاطمة(س)

ليت الأئمة والأنبياء لم يتدخلوا في الشؤون المالية! فالرَدّ صعب! إننا إلى الآن لا نستطيع ذِكْر مصيبة فدك براحة بال! إلهي، أي امتحان هذا الذي أخضَعتَ الناسَ له؟! أخالفوا علي بن أبي طالب(ع) بعد وفاة النبي(ص) مباشرةً؟ الأسباب لمخالفتهم لعلي بن أبي طالب(ع) متشعّبة! ظَلَّ الإمام علي(ع) جليس الدار.. انتهت قضية عليّ(ع).. فانتفضت فاطمة الزهراء(س) منادية: أعطوني فدك! فماذا كانت مشكلتهم مع فاطمة(س)؟ ما الذي صنعَتْه(س)؟ أكانت قضيتها مالية؟ القضية أعقد بكثير من هذا. مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم(ص) اختُبِر الناس ببخلهم مع الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء(س)! أتفقهون ما معنى هذا؟ يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى» (الأنفال/٤١). أنصحكم أن لا تترجموا هذه الآية مَرَّةً أمام أحد! فلقد ألّفَ بعضُ «المثقفين!!» كتبًا في هذا المجال!!...

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق؟/ لا بد للإمام من قدرة مالية

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق (بذل النفس، إنفاق المال)؟ دعوني أتلوا عليكم واحدة من بضع آيات قرآنية في هذا المحال: «مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثيرَةً» (البقرة/٢٤٥)؛ يُقرِضُه (أي ينفق) من الأموال التي أعطاه هو (الله) له. هكذا يقول الإمام الصادق(ع)، في ما روي عنه، في تفسيره لهذه الآية: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِخْرَاجِ الدَّرَاهِمِ إِلَى الإِمَامِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَجْعَلُ لَهُ الدِّرْهَمَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ» ثم قال «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً». قَالَ(ع): «هُوَ وَاللهِ فِي صِلَةِ الْإِمَامِ خَاصَّةً» (الكافي/ ج١/ ص٥٣٧)؛ أي إنه أقسم على أن هذه الآية نزلت خاصّةً في دفع الأموال للإمام. أين يقف الإمام من موضوع الإنفاق؟ يروى عن الإمام الصادق(ع) قوله: «دِرْهَمٌ يُوصَلُ بِهِ الْإِمَامُ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ يُنْفَقُ فِي غَيْرِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٧٣). فانظر حينئذ كم ستكون القدرة المالية للإمام؟

يقول تعالى في موضع آخر: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكينِ وَابْنِ السَّبيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُم» (الحشر/٧)؛ أي: إن ما يُعيدُه الله تعالى من أهل القرى إلى رسوله(ص) هو ملك لله ولرسوله ولأقرباء رسوله واليتامى والمساكين والمسافر المُنقطِع (الذي يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلّغ به) كي لا يتناقَل أغنياؤُكم هذه الأموال الضخمة فيما بينهم. فلا بد أن تكون للإمام قدرة مالية.

ماذا نصنع لننجح مع الولي الفقيه في امتحان الولاية فنتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص في ما يتصل بالإمامة؟

أتحبون أن يظهر صاحب الزمان(عج) ويحكم العدلُ الأرضَ؟ تعالوا إذن نجتاز بنجاح امتحان الولاية – الذي نعيش الآن مرحلة ولاية الفقيه منه – ونتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص وخلل في ما يخص الإمامة: أولًا: كم قد نفَذَتْ ولاية الفقيه في أعماقك، وتغلغلت في حياتك الشخصية وفي نمط حياتك اليومي؟ دع العالَم كله يقول ما يشاء، واجعل نمط حياتك التالي: قُل مثلًا: أنا أَتزوَّج لأن السيد القائد (الإمام الخامنئي) أوصى بذلك، أنا أُنجب أطفالًا أكثر لأن السيد القائد أوصى بذلك، أنا أمتنع عن شراء سلعة كذا الأجنبية لأن السيد القائد أوصى بذلك... ثانيًا أن نعمل على ترسيخ نفوذ الولي الفقيه في نفوس أفراد المجتمع. كيف؟ بأن نوضح وظيفة وأداء الولي الفقيه في الأمة. ذات يوم سأل طالب جامعي الإمام الخامنئي: ما البأس في أن يوجَّه إليك الانتقاد؟ فأجابه سماحة السيد القائد، بعد أن أوضح له أنه لا بأس في الانتقاد، وأن هناك الكثير ممن يتكلم وينتقد: «إذا كان الانتقاد بمعنى الانتقاص... أيُّ حُسْن ثمة في انتقاص القائد؟ أمن المصلحة أن يقف شخص أمام القائد ويتفوه ضده ببذيء الكلام، وهو الذي من المفترض - بحسب نظام الجمهورية الإسلامية - أن تكون إشارة واحدة من إصبعه كافية، في أحلك الظروف، لدفع الشعب إلى التضحية بالأنفس؟!» (في جلسة أسئلة وردود مع مسؤولي وأمناء المطبوعات الطلابية في ١٩٩٩/٢/٢٣). رد في منتهى البساطة والعقلانية والوضوح.

يـا أمـير المؤمنـين، لقـد كـسروا ظهـرك وجرحـوا قلبـك في قضيـة الغـارات في الشـام نفسـها فـصرتَ تنحنـي في البـئر مناديًـا! يـا أمـير المؤمنـين، لقـد أغـار الدواعـش في زماننـا هـذا، وفي الشـام نفسـها، فأُحبطـت غاراتهـم بإشـارة مـن الـولي الفقيـه عـلى يـد أمثـال الجـنرال سـليماني، والشـهداء حُجَجـي، وهمـداني، وخوشـنويس! أرأيـتَ سـيدي مـا سـطروا مـن بطـولات؟! هـذا ولم يأمـر السـيد القائـد حفظـه ولا مـرة بـأن: «توجّهـوا للقتـال!» ففـي زمـان الحـرب كان الإمـام الراحـل(ره) قـد دعـى بضـع مـرات إلى التوجـه إلى الجبهـات، أمـا في زمـن الـذود عـن الحـرَم والمقدسـات فلـم يَـدعُ السـيد القائـد لذلـك ولا مـرة! وهـذه تباشـير قـرب الظهـور. ثالثًـا: يجـب أن تقفـوا بـكل قـوة في وجـه نُخـب المجتمـع والخـواص والساسـة الذيـن يقومـون مقـام «مِفَـك البراغـي» تجـاه قـدرة الـولي وقوتـه لإضعافهـا، ولا تدعـوا أحـدًا منهـم يجـرؤ عـلى الدنُـو قيـد شـعرة مـن مقـام الـولي وحريمـه وحرمتـه.

إن جانبًا من عظمة عاشوراء هو رهنُ روعة التولّي

لقـد بلـغ الأمـر ليلـة العـاشر مـن المحـرم أن قالـت العقيلـة زينـب(س) لأبي عبـد اللـه الحسـين(ع): هـل أنـت مطْمَـئِن مـن أصحابـك؟ «هَـل اسـتَعلَمتَ مِـن أَصحابِـكَ نِيّاتِهِـم؟» ما معنى هـذا السـؤال؟ أي: أأنتَ واثـق مـن أنهـم غـدًا لـن يخذلوك ويـذروك وحيدًا؛ «فَـإِنّي أَخـشَى أَن يُسْـلِمُوك عِنـدَ الوَثبَـة!» فزينب(س) تذكـر خيانـة أصحـاب أبيهـا أمـير المؤمنـين وأخيهـا الحسـن المجتبـى(ع) لهـما. يـا حبيبـي يـا حسـين! أخـشى أن يغـدر بـك أصحابُـك غـدا فتذهـب ملحمتُـك العظيمـة أدراج الريـاح! فإنهـم الخـواص الدنيئين الوضيعـين الذيـن كانـوا مع الإمام الحسـن(ع) وأرادوا أن يُسْـلِموه(ع) هكذا إلى عـدوه! أعادت زينب(س) السـؤال: أأنـت واثـق مـن أصحابـك؟ فقـال لهـا الحسـين(ع): أجـل يـا زينـب، اطمَئِنّـي، إنني واثـق منهم؛ «واللـه لقـد بَلوتُهُـم فَـمَا وَجَـدتُ فيهم إلّا الأَشـوَسَ الأَقعَـسَ يَستَأنِسـونَ بِالمَنِيَّـةِ دُوني استِئناسَ الطِّفلِ إلَى مَحالِـبِ أُمِّـه» (مقتـل الحسـين للمُقَـرّم/ ص٢٢٦). إن جانبًـا مـن عظمـة عاشـوراء هـو رهـن روعـة التولّي والتمسـك بالولايـة هـذا، التـولّي عنـد الأصحـاب الذيـن كانـوا يتبـارَون للاستشـهاد في سـبيل مولاهـم!....

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاك المجتمع (المحاضرة 2)

الزمان: 01/محرم الحرام/1442 - 21/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

سِرّ مآسي الإنسان جميعاً "القناعة بالقليل"/ الحسين(ع) إنّما قتلوه بسيوف "الراضين بالقليل"!/ البشر طُلّاب كمال، فما الذي يحصل فيقنعوا بالقليل؟

من الجيد جدّاً أن يكون الإنسان "مريداً لكل شيء" وساعياً وراء الأفضل

البشر جميعاً طُلّاب كمال. مصطلح «طلاب كمال»، بالطبع، ليس مصطلحاً جميلاً، فثمة تعابير أدق وأكثر شعبية؛ كقولنا: البشر يطالبون بكل شيء، ويريدون لأنفسهم الأفضل؛ أفضل لذة، وأفضل فرصة. إنهم لا يشبعون، ويطلبون اللانهاية، ...الخ، اللهم إلا أنْ نأسِرَهم ونمنعهم حتى عن الحد الأدنى، فقد يكتفون، بطبيعة الحال، بهذا الحد الأدنى ويناضلون من أجله. أما إذا تُرك الإنسان طليقاً فما من شيء يقف في وجهه. من الجيد جدّاً أن يكون الإنسان «طالباً للكمال»، أو - بتعبير آخر - «مُريداً لكل شيء»؛ وهو تعبير أكثر شعبية، ونحن نستعمله في تخاطبنا. إنْ شئتَ إعطاء درس فيما يسمى بالأخلاق فأول درس أخلاقي هو أن تعزّز في المتلقّي صفة «المطالَبة بكل شيء»، والرغبة في المزيد، والسعي وراء أعظم اللذات! فلا ينبغي - في مُستهل طريق التهذيب - تخويف المتهذّب من الطمع، ومن أن لا يشاء إضاعة أية فرصة، ولا التفريط بأيّ لذة، ..الخ، بل لا بد من تحريضه على الطمع. لا يجوز بتاتاً تخويفه من شيء، بل يجب أن نزرع فيه الشجاعة.

الذي يتخلّى عن "المطالبة بكل شيء" يبتعد عن هويته الإنسانية

إذا تخلّى المرءُ عن صفة «المطالبة بكل شيء» يكون قد ابتعد عن هويته الإنسانية. فمن، يا ترى، ستُربّي حينئذ؟! فإن هُدِّمت ركائز متطلّبات الإنسان الأساسية والجوهرية فما الذي تود قوله لإنسانٍ جبان قانع بالحد الأدنى؟ إلى أين تريد أَخذَه؟ لن تعود فيه جدوى، فهو إنسان محطَّم. ومع أن الإنسان «طالبٌ لكل شيء» يتستَّر معظمُ الناس على هذه الصفة فيهم. كما أن هناك الكثير ممَّن إذا شاءَ تهذيب الناس حاولَ عدم التطرُّق إلى هذا الموضوع بحجة أنّ: «هذا خَطِر للغاية! إذ أتدري ما سيحصل لو طالبَ الإنسان بكل شيء؟ إنه سيتحوّل إلى فرعون!»

على كل إنسان أن يلمس في ذاته صفة "المطالبة بكل شيء"

وبالمناسبة فإن خطة الإسلام في تربية الإنسان، في مراحل نضجه العُمْري، هي هكذا بالضبط؛ حيث إن الطفل في السبعة الأولى (وفق هذه الخطة) سيّد: «الْوَلَدُ سَيِّدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَعَبْدٌ سَبْعَ سِنِين» (وسائل الشيعة/ ج٢١/ ص٤٧٦)؛ أي عليك، مدّةَ سبع سنين، أن لا تخيفه، وأن تقول له: «سمعاً وطاعة». دعه يشعر أنه قوة عظمى، فيَحكُم. بعض الآباء والأمهات يُبَكّرون في تأديب أولادهم، وهذا خطأ! حقّاً لا بد للمرء، في البداية، أن يلمس هذا المطالبة في نفسه ويتذوق حلاوتها، وأن يرى كيف أن أبويه في خدمته! بعض الآباء والأمهات يبادرون أطفالَهم مبكّراً بالسؤال: «أتحبّني أم لا؟» لكن لماذا تسأل طفلك هذا السؤال؟! قل له: «أنا أحبك!» حالياً لا تكلّفه بأمر، ولا تفرض عليه شيئاً. إنه الآن أمير! هذا الكلام عميق المغزى للغاية؛ فينبغي، خلال السنوات السبع الأولى، أن يعيش هذه الرحابة في وجوده ويستشعرها، فلا يجوز أن تخيفَه أو تقيّدَه. لا بد لكل إنسان أن يمر بهذه المرحلة ويلمس حالة المطالبة بكل شيء في كيانه. إن أحد أسرار ابتغائنا صاحبَ الزمان (أرواحنا له الفداء) ورغبتنا في ظهوره هو أن الحياة في ذلك الزمن سيكون لها طعم آخر؛ إذ سيظهر الإمام(عج) ليكون بمنزلة الأب للمجتمع البشري وسيؤَمّن للبشر الحياة والمتطلّبات الأولية، فيتحرّروا من سجون احتياجات الحد الأدنى.

لماذا أكثرُ الدورس الأخلاقية تُفسد الناس وتجرّهم إلى اللادين؟

لا بد أن نطيل الوقوف على قضية أن الدورس الأخلاقية التي تُفسد الناس، أو التي تجُرّهم إلى اللادين أو إلى مناهضة الدين، بل وتُنشِئهم نشأة سيّئة، هي حقّاً ليست قليلة. فلا بد، أساساً، أن تكون ثَمّة مرحلة في حياة الإنسان يُطلَب إليه فيها أن: «ابتَغِ كل شيء، لا تطلب القليل، اتّصف بالجشع، كُن طمّاعاً، كُن طالباً للانهاية، كُن انتهازياً، كُن أنانيّاً!» في حين أنك لو تفوّهت بهذا الكلام في مكان ما لقيل لك: «هذا كلام لاأخلاقي». بل لو لمس الناس، أحياناً، وجود شيءٍ من هذه الصفات في أنفسهم لسارعوا إلى التعتيم عليها!»إن صفاتٍ من مثل «الأنانية»، و»الانتهازية»، و»الغرور»، التي نراها نحن سيئة، هي في الإسلام غير سيئة بتاتاً؛

وليس الغرورُ بغير سيّئ فحسب، بل هو منتهى الفضائل جميعاً، لا بل ما له حد يحدّه لنقول للفرد: «اغترَّ بنفسك قليلاً!» بل إن علينا – بالمناسبة - أن نُحرّض الإنسان على «الاغترار بنفسه دوماً!» وعندها ستحترمُ أهلَ العالم على خلفية هذا الغرور تحديداً، بل وستفديهم بنفسك؛ لأن هذا من مصلحتك!

لا بد أن ينشأ الطفل في أعوامه السبعة الأولى مريداً لكل شيء (طالبَ كمال)

ماذا عساي أصنع لهذا العالَم الذي استعبد البشر، والذي وظّفَ حتى الدين لاستعبادهم؛ فوضع لهم دروسَ أخلاق، ورغّبهم في القناعة؛ أي أقنَعهم بالحد الأدنى، فرضوا بأن تستأثر القوى العظمى بالحد الأقصى من كل شيء قائلين: «دعنا، في المقابل، نحيا هذه الأيام القليلة من أعمارنا!» لعنَ الله هؤلاء! لعنَ الله كل مَن تنازل قيدَ شَعرة عن طموحه لأجل القوى العظمى المهترئة! فلتبتغي – حالياً - كل شيء، هذه هي المرحلة الأولى؛ أي لا بد للطفل، في أعوامه السبعة الأولى، أن يُربَّى على هذا النهج. ذات مرة أردنا تأسيس مدرسة للعلوم الدينية فرأينا أن الدعائم التربوية للطالب قد وُضِعتْ في المرحلة الثانوية من المدرسة، وأنّ تلك المدارس قد حطّمته! وليس في أيدينا، في هذه المرحلة، تقويمُ الكثير فيه، بل يتعيّن علينا ترميم ما سبق بناؤه. لهذا قرّرنا تأسيس مدرسة متوسطة. ففوجئنا، من جديد، بأن الأطفال قد سُحقت شخصيتهم في الابتدائية! فعزمنا على إنشاء مدرسة ابتدائية. فشاهدنا أن مسؤولي الروضة وكذا العائلة قد دمّروا الطفل خلال أعوامه السبعة الأولى! ماذا عسانا نصنع إذاً؟ قلنا: فلنبدأ من الروضة، وليأت الآباء والأمهات فيتعلّموا كيف يتعاملون مع طفلهم! فإنّ لنا معه شأناً فيما بعد.

يُقنع الطاغوتُ الناسَ بالحد الأدنى من العيش ليتّخذهم مَطيّة

قولُ القرآن الكريم: «أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت» (النحل/٣٦) يعني، في الحقيقة، أن الطاغوت هو الذي يُقنعنا بالحد الأدنى من العيش؛ وإلا لما تمكّن من الطغيان. والإنسان مخلوقٌ لا نهاية لرغباته، لكن هل تظن أن مشكلة البشرية المعاصرة هي طغيان الإنسان بسبب هذه الصفة؟ كلا، هذا غير صحيح!

حينما أراد الله تعالى بَعثَ نبيه(ص) بالرسالة قال له: إن الناس قد طغوا: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى» (العلق/٦ و٧). وعندما أراد إرسال نبيه موسى(ع) قال له: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» (طه/٢٤)؛ أي: إن قضيتك هي «الطواغيت»! وكذا في زماننا الحاضر فإن المشكلة هي الطواغيت. أما البشر فمشكلتهم، في الحقيقة، ليست «الطغيان»، بل «الرضوخ للطواغيت!» لماذا تَقنَع أنت بالحد الأدنى؟ لماذا تَرضى بالقليل، فيتسلّط الطاغوت، ويتخذك مطيّة، ويذبحك من الوريد إلى الوريد! ثم تتضرّع إلى الله أنْ: «إلهي، خلّصني من هذا الظالم؟» فمشكلتك أنك قنعتَ بالقليل، وهو رغب في الكثير!

مشكلة معظم الناس هي المطالبة بالقليل

مشكلة معظم البشر هي، تحديداً، المطالبة بالقليل. ولشَغلِهم بهذه المطالبة، تراهم يُلهُونهم بمختلف صنوف اللهو، ويبذلون لهم الشهوات الضحلة، ويبتدعون لهم الحِيَل ليَقنَعوا بالمطالبة بالقليل. فهم، من ناحية، يسوقون الإنسان صوبَ الشهوات واللذات الحقيرة، ومن ناحية أخرى يروّجون لأخلاق الرِقّ؛ أي يتخذون من الدين وسيلة للتنظير لهذا النمط من الأخلاق، ويَزُقّون الناس بها زَقّاً قائلين للفرد: «لا تكن طمّاعاً!» المسكين لا يملك فلساً! فلا تقولوا له: «لا تطمَع!» بل إنّ عليكم أن تقولوا له: «اطمَعْ!» إنه في مستوىً لا طمعَ له فيه بأي شيء؛ فلقد قَنَعَ بوظيفة حكومية بسيطة! إذاً فلتقولوا له: «لماذا طمعُك ميت؟! لِمَ لا تطالب بأكثر من هذا؟»

الحسين(ع) إنّما قتلوه بسيوف "الراضين بالقليل"!/ المعصية هي الانشغال بالقليل

الإنسان لا نهايةَ لمطالبه، فلا تُخفِ لانهائيّةَ مطالِبك هذه! أنا ليس في نيّتي، حالياً، أن أقول: «إنْ أصبحتَ لا نهايةَ لمطالبك فحاذر من سحق حقوق الآخرين!» أو: «وجّه لانهائيّةَ مطالِبك، وحدّدها، ..الخ!» فأين هذا الذي لا نهاية لمطالبه كي نتحدث معه بهذا المنطق أصلاً؟! علينا، أولاً، أن نرى كيف نُحيي في الناس روحَ المطالبة بكل شيء هذه؟ فالحسين(ع) إنما قتلوه بسيوف الراضين بالقليل، وبإشارة من الطواغيت!الإنسان يريد كل شيء، والمعصية هي الانشغال بالقليل! إني حين أقول وسط الشبّان الذين يعلنون عدم تدينهم: «الإثم هو أن تطالب بالقليل من اللذة!» يقولون: «هذا ما لم نسمعه من أحدٍ قَطّ،

لقد أُعجبتُ بالدين!» فلماذا هذه هي حالنا؟ ما الذي تصنعه، إذاً، مؤسسة التربية والتعليم؟ وما الذي نفعله نحن طلاب العلوم الدينية؟ لماذا يعارض بعض العلماء ويحتاط إذا ترجمنا العبارة المُفَلسَفَة «الإنسانُ مخلوقٌ طالبٌ للكمال» - والتي يُقرّها كل العلماء - وصُغناها بلسان العامّة قائلين لهم: «الإنسان لا نهاية لمطالبه»؟ قائلين: لا تقل له: «طالِبْ بكل شيء» لأنك إن قلتَ له هذا فإنه سيلتهم الجميع! كلا، لن يَلتهِم أحداً، فمشكلته الحالية هي أنه يُلتهَم، وأنه راضٍ بالتِهامِه! حين تطلب إلى البعض أن يقول: «الموت لإسرائيل» يَشمَخ بأنفه ولا يقولها؛ ذلك أنه راضٍ بأن يُؤكَل حقُّه! المشكلة أنه يعلم أنهم قد أكلوا حقه، ومع ذلك تراه يركع أمامهم! مشكلته، في الوقت الحاضر، ليست تقييدَ مطالَبَته بكل شيء، بل لا بد أن يقال له الآن: «طالِبْ بكل شيء!»

ليس الدين قانوناً للتعساء/ الدين مُرشد لمن يطالب بكل أشكال السعادة

يقال إن في الهند ديانات يولَد أصحابُها على شاطئ النهر وقارعة الطريق ويفارقون الدنيا على الشاطيء ذاته وقارعة الطريق نفسها قانعين بما هم فيه ولا يمدّون أبصارَهم إلى أهل القصور، مُدَّعين: «هذه هي حياتنا في الواقع!» أقول: أفي الهند فقط الوضعُ هكذا؟ إن الوضع هكذا تقريباً في كل مكان؛ فالبعض يولَد عاملاً وموظّفاً وفي المستويات الدنيا، ويموت أيضاً على هذه الحال، ولا يطمح لأكثر من هذا! إن عليك أن تقف في وجه آكِلي حقّك، وتلوي رقاب العُتاةِ والمَرَدَة! لا بد أوّلاً أن تُعزّزوا روح المطالبة بكل شيء في كيانكم، ليأتي النبي بعد ذلك فيقول: «أتسمحون لي أن أوجّه روحَ المطالبة بكل شيء هذه فيكم، وأُخبرَكم بنمطها الصحيح؟» لكن، للأسف، ليس ثمّة حالياً مَن يطالب بكل شيء، فما الذي تريد (أيها النبي) قولَه له والحال هذه؟! بل إنه لا معنى للدين عند هذا الشخص أصلاً. ليس الدين قانوناً للتعساء، بل هو مرشد لمن يطالب بكل أشكال السعادة.

الإنسان طالبٌ للكمال، أي إنه مخلوق مُستَأثر

الإنسان مخلوق مستأثِر! والاستئثار هو طلبُ الكمال عينُه؛ أنا أترجم المصطلح فقط! وهو يعني أن الإنسان يطالب بكل شيء، بل ويطالب بالأحسن، ومهما أعطيتَه طالَبَ أيضاً بالمزيد منه! أوَينبغي ذَمّ الإنسان على هذه الميزة؟! كلا، فما لهذا يُذَمّ الإنسان، بل إن الذَمَّ المذكور في كلام الأولياء يخُصّ ما إذا حَدّدَ المرءُ هذه اللانهائيّةَ لمُطالبَته بالأمور التافهة؛ فهو في هذه الحالة – في واقع الأمر - لا يطالب بكل شيء؛ وإلا فليس ثمة من بأس أبداً فيما لو طالب امرُؤٌ بكل شيء وكانت – حقّاً - في الأمور التي يطالب بها لذّةٌ أعظم وأسمى. الفضيلة، بحسب الأخلاق الإغريقية، «هي التوازن بين الإفراط والتفريط!» حقّاً كم هذا الكلام مُقَزِّز! أَيجب علَيَّ أن لا أفرط في نيل أعلى اللذات؟! فلو لم يُفْرِط المرء في حب أعلى اللذات لكان كالبهيمة! فلأجل أيّ شيء بُعث النبي إذاً؟ هل الفضيلة دائماً هي في الموازنة بين الإفراط والتفريط؟! كلا، ليست القضية هكذا أبداً. بل إن الفضيلة – بالمناسبة - هي في الإفراط؛ الفضيلة هي في الإفراط في حب الله تعالى؛ فليس ثمة حد لهذا، اذهَب به حتى النهاية، نافِس به الآخرين واسبقهم جميعاً، أَنفِق له عمرَك كُلّه؛ في هذا تكون الفضيلة. ليست الفضيلة في الوسَطية! مَن الذي وضع هذه التُّرَّهات؟!

لا توصِ ولَدَك أبداً بالحد الأدنى، وإلاّ أخرجتَه من الدين!

الإنسان طالبٌ للكمال. أنا أرجوكم أوّلاً أن تحاولوا ترجمة «طلب الكمال» هذا إلى حدٍّ ما، قبل أن تقولوا: «الكمال المطلق هو الله». فأين طلَبُ الكمالِ هذا أصلاً؟ معظم الآباء والأمهات يحطّمون روحَ طلبِ الكمال في أولادهم. إنّ بعض الكلام في البيت، كقولهم (للطفل) مثلاً: «أدرُس، ونَل الشهادات الدراسية، كي لا تشقى»، يجب أن يُحرَّم! بل قُل له: «يا بُنَيّ، لا بد أن تبلغ من العِلم والكفاءة والصلاح مبلغاً لا تحتاج معه إلى الشهادات الدراسية، وعندها سيقصدُك أصحاب هذه الشهادات ليقتاتوا على فُتات مائدتك!» لا توصوا أولادكم أبداً بالحد الأدنى، وإلا أخرجتموهم من الدين!

إن لطلب الكمال معنىً عميقاً ولا بد أن نضع له أدبيات

الإنسان مخلوق طالب للكمال. على أن لطلب الكمال معنىً في غاية العمق قد ابتعدنا نحن عنه، للأسف، ولم نضع له أدبيات خاصة به. إنّ من الواجب أن تكون لدينا، بخصوص طلب الكمال، تحليلات وقراءات سليمة إذا سمعَها الشُبّان استأنَسوا بها واستمتَعوا. عليك أن تطلُب المزيد من كل شيء! ففيما يتّصل باللذة الشهوانية مثلاً، اسعَ نحو اللذة الأعظم. ما معنى هذا؟ يعني: اطلُب ما هو أعلى من اللذة الشهوانية، وما يُسكِرُك أكثر منها، ولا تَحُدَّ نفسَك بهذا المستوى الضَحل منها. فما هذه الأخيرة إلا نموذج صغير هدفه تعريفُنا بأجواء اللذة، وجَعْلُنا قادرين على التحدث عن موضوع اللذة. إنها للتعريف، وليست للتوقّف عندها، بل إنّ صبرك، بعد مدة من حصولك على هذه اللذات الضحلة، سيتناقص ومن ثم سينفَد. إننا لم نضع أدبيات خاصة بروح طَلَب الكمال والاستئثار عند الإنسان. أتعلمون لماذا يتملّص الكثيرون من الدين؟ لأنهم يمقُتون التقييد. وإنّ من الجميل أن تمقُت التقييد.. مَرحى! بل لو أنك أحببتَ التقييد لكنت عبداً رقيقاً! فماذا يقول الدين إذاً؟ إنه يقول: للوصول إلى مقام لا قيود فيه - وهو المقام الذي إذا تكلّمتَ أنتَ فيه يقول الله تعالى لك: «حاضِر»، وهو مقام «النفس المَرْضِيّة» - ثمة طريق يتحتّم عليك فيها أن تقبل بوجود القيود. ولو أنك شرحتَ الدين بهذه الطريقة لقال لك (المتلقّي): «لا بأس، أَقْبَل». فأيُّ تُرَّهات في أن يقال للإنسان: «أيها الإنسان، يجب أن تكون محدوداً بالكامل؟!» (ولو سمع هذا) لقال: «عُذراً، إذاً لماذا خلقتَني إنساناً أصلاً؟!» فتّشوا عن مقام «النفس المَرْضِيّة» في الطَفّ، حين قال ربُّ الحسين(ع) ظهيرةَ العاشر من المحرم (ما مضمونه): «يا حسين، الأمرُ ما تطلُب أنت! لو شئتَ أهلكتُ أعداءَك الساعة، أو شئتَ أن تنال الشهادة وفقَ السُنَن الطبيعية! لكن اعلَم أنك بشهادتك لن تكون أعَزّ عندي مما أنت عليه الآن، ستظل عندي في هذا المستوى من العزة حتى إن لم تستشهد...» واختارَ الحسين(ع)، فقال الله له: «لك ما تريد، يا حبيبي يا حسين». إذ يقول تعالى في سورة الفجر: «ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّة» (الفجر/٢٨)؛ أي: لقد بلغتَ مقام النفس المَرْضِيَّة، ولا حدود تحدُّك. هذه ضالَّة الإنسان.. فتعالوا نحدث الناس قليلاً بهذا الأمر.

سِرُّ مآسي الإنسان جميعاً "القناعةُ بالقليل"/ قناعة الناس بالحدود الدنيا هي التي جعلتهم يرضخون ليزيد ويقتلون الحسين(ع)!

سِرُّ مآسي الإنسان جميعاً القناعة بالقليل. قناعة الناس بالحدود الدنيا هي التي جعلَتهم يرضخون ليزيد وينهضون لقتل الحسين(ع). فما أدنَى فطرةَ أولئك القانعين بالقليل! وما أشد وضاعَتَهم وجُرمَهم! لقد عملتْ بعضُ القضايا الأخلاقية، وبعضُ أنماط التربية الخلُقية والرُّؤى على إهلاك المجتمع. لماذا يأبى البعضُ أن يكون ثورياً وأن يهتف: الموت لأمريكا؟ هذه ثمار بعض دروس الأخلاق الخاطئة؛ إذ قد لُقِّنَ هذا الشخص أن: «اقنَعْ بالقليل!» ولهذا هو يقول: «حسنٌ، أنا قانع بالقليل. فدع أمريكا تتسلّط.. ودعنا، بدورنا، نحصل على بعض الفُتات ونقتات عليه!» إن بعض الأساليب الخاطئة للدعوة إلى الدين تجُرّ إلى العلمانية. بالطبع لا يمكن للدين بحال أن يكون علمانياً، بل إنه يربّي الإنسانَ سياسيّاً، ويُنشئه ثوريّاً. فلماذا، إذاً، يغدو البعض هكذا على أثر تبليغ الدين؟ لعلك حين قدّمتَ الدين له ودعوتَه إليه لم تُدقّق في استخدامك للتعابير، فأضفتَ على الدين أو أنقصتَ منه شيئاً! فلا بد من مراعاة بعض المبادئ أثناء عرض الدين، وفي عملية التربية وتقديم المواعظ الأخلاقية.

الدين سبيل لبلوغ اللامحدودية

الدين سبيلٌ لبلوغك اللامحدودية، ووصولك السلطة المطلقة. وإنما تصبح طاهراً حين ترى أنك قادر على فعلِ كل شيء لكنك، على الرغم من ذلك، تقول: «لا أفعل!» لماذا يوفّر الله تعالى للعبد، إذا صارَ عارفاً، أسباباً يشعر معها أن له قدرة خارقة للعادة؟ لأنه تعالى يريد أن يطهّره تطهيراً كاملاً! إنما نحن، الضعفاء الشديدي التولُّع (بالتفاهات)، الذين نرتكب الخطيئة! فلقد جاءَ في تعقيبات الصلاة: «وَاجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي» (مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد/ ج١/ ص١٤٣). ما معنى هذا القول؟ معناه أنك تقول لربك: «لقد نلتُ كل شيء، ولا أريد المزيد!» أتدري كم يصبح المرءُ راقياً إذا بلغ كل شيء! سيغدو «آدميّاً» بالمعنى الحرفي للكلمة، طاهراً، صالحاً، مُترفّعاً عن اقتراف الخطايا، لا يظلم.. بل لأي شيء يظلم أصلاً؟! نسأل الله تعالى أن نكون طالبي كمال بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأن نُربَّى على المطالبة بكل شيء، وبلوغ السلطة المطلقة، ونيل الغِنى الكامل، والوصول إلى كل مطامعنا؛ المطامع الإيجابية طبعاً.

الناس طالبو كمال، فما الذي يجعلهم يتوقفون ويقنعون بالقليل؟

نعيد هنا سؤال الحلقة السابقة بتعبير آخر: البشر كلهم طالبو كمال، فما الذي يجعلهم يتوقفون عن طلب الكمال؟ ماذا يحصل لهم، وهم راغبون في كل شيء، فيُفرّطون حتى في ما يملكون؟ ما الذي يعوقهم، وهم طالبو كمال، عن التوجُّه نحو الأسباب والوسيلة التي تعينُهم على بلوغ كل ما يطمحون إليه؟ وهي وسيلة سهلة وضَعَها الله تعالى في متناول أيديهم، وهي الدين تحديداً؟ الدين وسيلة لبلوغ البشر حالةَ المطالبة بكل شيء، فما الذي يجعلهم يكتفون بالقليل منه ولا يتقدّمون إلى الأمام؟ ما هي أوّل هاوية تواجه البشر؟ هذه الهاوية أوقعتْ بآدم(ع)، فلقد خدعه الشيطان لهذا السبب بالذات. لا يجب علينا أن نعتبر بإبليس فحسب، بل بآدم(ع) أيضاً. فما الداعي لقول الله تعالى في قرآنه الكريم: «عَصَى آدَمُ رَبَّهُ» (طه/١٢١)؟ أيريد تعالى فضحَ نبيّه آدم(ع) يا ترى؟ كلا، بل يريد أن يخبرنا بشيء. الإنسان طالبٌ للكمال، فما الذي يجعله ينسى طلبَه للكمال هذا؟ في المحاضرات القادمة سنجيب على هذه الأسئلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة3)

الزمان: 02/محرم الحرام/1442 - 22/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

أين يتوقّف طلبُ الإنسان للكمال؟/ أين يكون المُنعطَف الذي يسقط فيه الإنسان وتظهر فيه مساوئه؟/ مشكلة الإنسان أنه غير مستعد لإعطاء شيء مقابل أخذ غيره، بل يريد الاحتفاظ بكل أشيائه.

لماذا يتوقّف حسُّ طلَبِ الكمال عند الإنسان و"أين"؟

البشر مخلوقات طالبة للكمال، هذا إذا احتفظوا بروح طلب الكمال والرغبة في كل شيء ولم يتراجعوا عنها بسبب الخوف وازدراء الآخرين لهم. هذا وقد بُعث أنبياء الله تعالى لتعزيز هذه الروح عند الإنسان، وتقديم المصداق له، وتعليمه في هذا المضمار. لكن السؤال الآن هو: لماذا يتوقف طلبُ الكمال هذا عند الإنسان، وأين؟ ونريد في هذه المحاضرات أن نتحدث عن مَوضِع توقّفه أكثر من الحديث عن سبب توقفه. على أننا سنتطرق كذلك إلى «سبب توقفه»، لكنّ تركيزنا الأكبر سيكون على الموضع الذي «يتوقف الإنسان عنده». كأنْ تتعرض سيارة أحدهم وهو يقودها إلى حادث وتنقلب. فالسؤال عن أنه: «لماذا انقلبت؟» هو موضوع؛ فقد يكون بسبب طيشه، أو إهماله، أو قيادته السيارة بسرعة عالية، أو تشتُّت باله، ...الخ، أما قولنا: «أين انقلبت؟» فهذا موضوع مختلف؛ كأن نقول: لقد انقلبت في منعطف خطير.

أين يُخطئ البشر، في العادة، ويسقطون؟

لماذا يخطئ البشر؟ يخطئون مثلاً بسبب التكبّر، أو الحسد، أو حب الدنيا، ...الخ؛ هذا موضوع. أما الموضوع الآخر فهو: متى وأين يقترف البشر، عادةً، الخطيئة «وتنقلب بهم مركبتهم!» ويسقطون؟ عن هذه القضية نريد التحدث حالياً. فمن المهم جدّاً أن نعرف موضع هذا المنعطف الخطير، لأننا نواجهه في حياتنا يوميّاً، تقريباً؟ البشر مخلوقات طالبة للكمال، فما الذي يجعلها تتوقف؟ لقد آمن البعضُ بالله، بل وأصبح ولائياً، ليعزز طلبه للكمال هذا ويتعلّم كيف يبلُغه، فلماذا يتوقف إذاً؟ ولقد سمعنا - ردّاً على هذا السؤال - قولَ البعض: «لأنهم أناس سيّئون، أو أنهم يحملون الكثير من السيئات؛ كالكِبْر والحسد». لكن هناك الكثيرين ممن يتّصفون بالحسد ومَن عندهم تكبّر (فجميعنا تقريباً مبتلون بمثل هذه الأمراض) فلماذا إذاً «تنقلب سيارة» البعض و«لا تنقلب سيارة» البعض الآخر؟

حتى الموالين لأهل البيت(ع) قد "تنقلب بهم مركبتهم" في هذا المنعطف!

حتى الموالين لأهل البيت(ع) قد «تنقلب بهم مركبتهم»، لأن المنعطف منعطف صعب؛ فحتى الذين يتقنون القيادة قد يقلبون سيارتهم هنا. وعادة ما توضَع على الطريق، قبل المنعطف، بضع علامات مرورية. وليس القصد من هذه العلامات هي القول لك: إنك لا تُحسن القيادة، بل هي لإخبارك بأن: «انعطافة هذا المنعطف حادّة!» وقد نُبِّهنا في القرآن الكريم إلى هذا المنعطف بتعابير مختلفة، وتم – بواسطة هذه «العلامات» - تخويفنا، وتوعيتنا، وإيقاظنا! وإحداها قصة نبي الله آدم(ع). نبي الله آدم(ع)، وهو الذي عُلِّم «الأسماء» الإلهية، قد «انقلب» هنا، فما بالُك بي أنا وبك أنت! ولذا لا بد من الوقوف طويلاً عند هذا الموضوع؛ لأنه يرافقنا عمراً كاملاً، وعلينا أن نحيا معه. لا مثل الصلاة؛ فنحن نصلي يومياً ثلاثة أوقات ونقضي باقي يومنا بشؤون أخرى، أما هذا الموضوع فإنّنا مشتغلون به في كل لحظة. إلى أي نقطة يصل ابن آدم، الطالب للكمال، فيتوقف فجأة عن التقدم؟ في الوقت الذي يكون فيه الإنسان طالبَ كمال، ومُريداً للكثير من الأشياء، ومريداً لكل شيء فإنه يكون عُرضةً لضرر كبير وهو عدم إدراك فلسفة وجوده في هذه الدنيا!

"الافتقار إلى روح المقايضة" في الدنيا يبعث على سقوط الإنسان أو توقفه!

دعوني، في البدء، أضرب مثالاً ثم أوضحه: لو أن طفلاً صغيراً يلعب بلعبة فرأى في يد طفل آخر لعبةً أفضل لبكى وقال: «أريد تلك!» إلى هنا ممتاز، لأن الإنسان مريد لكل شيء ومن الصعب جدّاً تحديده. لكنك إن قلت لهذا الطفل: «لا بأس، نعطيك تلك اللعبة، لكن أعطنا أنت لعبتك هذه» فإنه لا يعطيها عادةً، بل إنك إن تنتزعها منه يأخذ بالبكاء ثانية! فمع أنه لا يستطيع اللعب إلا بلعبة واحدة تراه غير مستعد للتخلي عن القديمة مع أخذ الجديدة؛ يعني أنه لا يحمل روح المقايضة! طلبُ هذا الطفل للكمال يجعله ما إن تقول له: «أعطني هذه اللعبة الأصغر وأعطيك تلك الأكبر» يقول: «ألا يمكن أن أحتفظ بهذه، وتعطيني تلك معاً؟»

المشكلة هي أن الإنسان الطالب لكل شيء غير مستعد لإعطاء شيء!

أَمِنَ المعيب أن يكون الإنسان هكذا؟ في الجنة ليس من المعيب أن تكون هكذا، فأنت هناك لا تُقايَض؛ إذ قد تكون هناك على مائدتك دجاجةٌ مشوية من الجنة فتشتهي تناول ديكٍ رومي أيضاً، فيضعون لك إلى جانبها ديكاً رومياً، فتلتهم الاثنين وتلتذ بهما، أما في الدنيا فالأمر يختلف؛ فإنك في الدنيا لا تطلب شيئاً إلا ويأخذون منك شيئاً آخر لإعطائك ما تطلب. المشكلة هي أنّ كَونَ الإنسان طالبَ كمال ومريداً لكل شيء يجعله غير مستعد لإعطاء شيءٍ ما مقابل أخْذِ آخر، بل وقد يخطئ فلا يتخلّى عما عنده وهو الأقل إذا أرادوا مَنحَه شيئاً أفضل.

في الدنيا ما من شيء تريد أخذه إلا وعليك أن تعطي آخر / عند منعطف "المقايضة" يسقط البشر وتظهر فيهم مساوئ مثل الكِبْر والحسد

إذاً ذكرنا إلى الآن مسألتين: الأولى هي أنه ما من شيء تريد الحصول عليه في الدنيا إلا وعليك أن تمنح شيئاً آخر مكانه. والثانية هي أنك إن أردت في الدنيا شيئاً أفضل وجبَ عليك إعطاء الأقل! هذه المقايضة موجودة في الدنيا. لماذا؟ هذه المقايضة بالذات هي الحكمة من وجودنا في هذه الدنيا، وإن البشر ليسقطون عند منعطف المقايضة هذا وتظهر فيهم مساوئ من مثل التكبّر، والحسد، ورذائل أخرى كثيرة. ولا بد أن نتعرّف هذا المنعطف. ولا صلة لهذا المنعطف بكم، بل هي ميزة الدنيا! إذ يُروَى عن أمير المؤمنين علي(ع) أنه قال: أتدرون كيف هي الدنيا؟ إنها لا تهبُك نعمة إلا وتسلُبُك إزاءَها شيئاً آخر: «لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى» (نهج البلاغة/ الخطبة١٤٥)؛ أي ما من امرئ يستطيع إضافة شيء. ثم يُردف(ع) توضيحاً لكلامه: إنك لا تعيش يوماً إلا وينقص يومٌ من عمرك: «وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِه». «مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِ أَكْلَةٍ غَصَص».

فلنُقرّ بحقيقة أنّ "الدنيا محل مقايضة"!

إنـك لا تنـال نعمـة حتـى تفقـد أخـرى. إذاً عليك أن تختـار! فلنهدأ، ولنُقِرّ بهـذا.. إنها حقيقـة؛ الدنيا محل مقايضـة. وإن لم يعتقـد المؤمـن الـولائي بهـذا فسيسـقط! كيف تريد اجتيـاز هذا المنعطـف؟ إنه المنعطف الـذي ينبغـي لإيمانـك أن يعينـك عـلى اجتيازه. ليسـت القضية أنْ يقال: «لقـد آمن فلانٌ بالله، وسيسـتعين باللـه تعـالى لـكي ينـال كل شيء دون أن يمنـح شـيئاً!» أو: «لقـد آمـنَ فـلانٌ بـوَلِيّ اللـه كي لا يفقـد شـيئاً!» كلا وحاشـا، لا شيء مـن هـذا؛ فهاهـو أمـير المؤمنـين(ع) يقـول: «لَا تَنَالُـونَ مِنْهَـا نِعْمَـةً إِلَّا بِفِـرَاقِ أُخْرَى»!

إذا استوعبنا ضرورة المقايضة سنواجه أزمتَين:

في هـذه الحالـة (وباسـتيعاب المسـألة أعـلاه) سـيواجه الإنسـان أزمتـين؛ إحداهـما قولـه: «إذاً لأكُـفّ عـن العمـل والمثابـرة!» وثانيتهـما قولـه: «إذاً كفـاني دعـاءً!» وإنّ اجتيـاز هاتـين الأزمتـين صعـب؛ إذ سـيحدّث نفسَـه: «مـا الفـرق في أن أعمـل أو لا أعمـل؟» والـرد عـلى هـذا السـؤال صعـب جـداً؛ لأن الدنيـا محـل مقايضـة، ومـا مـن شيء تقبضـه حتـى يتحتـم عليـك دفـع شيء آخـر! فـلا تُفسِـد وضعَـك أكثر. وهـل عليَّ أن لا أُحَسِّـن وضعـي أيضـاً؟ ليـس ثمّـة وضعٌ أحسـن! فالأحسـن، بمعنـى «المطالبة بـكل شيء»، لا وجود له في الدنيـا! ليـت مُنتجـي الأفـلام بيّنـوا لنـا الحقيقـة عوضـاً عـن اسـتغفالنا وعرضهـم عالَـماً خياليّـاً وهميـاً لنـا؛ كأن يقولـوا: «هـذا الـذي ترونـه أجمـل، يعـاني مـن نقـص في موضـع آخر. هـذا الـذي ترونه أكثر ثراءً يشـكو مـن عيـب في موضـع آخـر. وهـذا الـذي ترونـه غـير مشـلول، مصـاب بمشـكلة مـن نـوع آخـر!»

إنما يتوقف الإنسان لامتناعه عن المقايضة وحبه الاحتفاظ بالشيء!

الإنسـان مُريـدٌ لـكل شيء، فـما الـذي يجعلـه يتوقـف عـن طلـب كل شيء؟ لأنـه يرفـض المقايضـة في دنيـاً هـي محـل مقايضـة، ويريـد الاحتفـاظ بمـا يملكـه لنفسـه! يقـول: لا أريـد شـيئاً إضافيّـاً، أريـد الاحتفـاظ بهـذا الـذي أملكـه! يقـال لـه: هـذا غـير ممكـن، إنهـم سـيأخذونه منـك، فتَخَـلَّ عنـه أنـت! لهـذا تحديـداً سـقط نبـي اللـه آدم(ع)؛ إذ قـال لـه إبليـس: «أتريـد أن أدلـك عـلى طريقـة لتحتفـظ بممتلكاتـك؟» قـال: «أجـل».. نَـسيَ اللـه!.. نَـسيَ عِـداء إبليـس لـه. ولـذا توجّـه نحـو الشـجرة المحرَّمـة. لأجـل مـاذا؟ للاحتفـاظ بهـذه الأشـياء التـي يملكهـا! ولهـذا سـقط! قـال إبليـس لآدم(ع): «هَـلْ أَدُلُّـكَ عَـلَى شَـجَرَةِ الْخُلْـدِ وَمُلْـكٍ لَا يَبْـلَى» (طـه/١٢٠).

ألا وإنّ طلب الخلود شيء جميل، لكنك إن رغبت في إضافة طلب الخلود إلى ما تملك فتقول: «أريد أن أحتفظ بهذه الممتلكات إلى الأبد» لفسد الأمر. يقول لك الله تعالى: «لا يمكنك الاحتفاظ بهذه الأشياء، إذاً فلتُتاجر معي؛ إنْ أنت بذلتَها من أعماق قلبك فسأشتريها منك. ومن الأمثلة على هذا الشهادة؛ فإن أنت لم تستشهد، ستموت! فإن بذلتَ أنت روحك لي، اشتريتُها منك، وإلا فإنك لا محالة ستموت وتُدفن في مقبرة! « فَإِنَّهُ لَيْسَ عَنِ الْمَوْتِ مَحِيصٌ إِنَّكُمْ إِنْ لَا تُقْتَلُوا تَمُوتُوا» (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد/ ج١/ ص٢٣٨). أوليس مُحرَّم الحرام شهر الشهادة؟ أوليست الشهادة تجارة؟ طيب، فما الشيء الذي أتيتم لتأخذوه من الإمام الحسين(ع) في شهر محرم هذا؟ وما الذي تودون إعطاءه للحسين(ع)؟ عن أي شيء أنتم مستعدّون للتخلي؟

متى ينفع الإيمانُ بالله صاحبَه ويقيه من السقوط؟

متى ينفع الإيمانُ بالله صاحبَه ويقيه من السقوط؟ إنه ينفعك حين تقول إذا أُخِذ منك شيء: «هذه هي الدنيا، إنها موضع الأخْذ»، فتصبر، وتهدأ! واللافت أن الله تعالى يقول لك: «أنا على استعداد لأشتريها منك! أي لا تبقى عندك مُخَلَّفات؛ إذاً تاجر معي فقط؛ إن أصابك برد، أو مرضتَ، أو أُصبت بحُمّى، أو فقدتَ صحتك، فأنا أشتري منك كل هذا». فماذا يحصل حين تُشفى من المرض؟ عندها انظُرْ ما الذي فقدتَ كي تُمنح الصحة إزاءه؟ فلأي شيء ينفع الإيمان إذاً؟ هل الإيمان هو أن تعلم أن الله موجود؟ وما دور الولاية في هذه المقايضة؟ ما محل الولاية من الإعراب في هذه القضية؟ لا بد من التحدث حول هذه الأمور.

التحفُّظ (وهو احتفاظك بما تملك) يُشقي الإنسان!

هذه الصفة السيئة، وهي «أن يرفض الإنسان بذل ممتلكاته ويحاول الاحتفاظ بها» تسمى «التحفُّظ». والتحفُّظ – وهو احتفاظك بما تملك – يُشقي الإنسان حقّاً. ولقد قال إبليس لنبي الله آدم(ع): «أتحب أن لا تفقد هذه الأشياء؟»، وهكذا خدعه. التحايل على جدنا آدم(ع) نجده في حياتنا نحن أيضاً. ولهذا التحايل ركنان؛ الثاني - وفقاً لما نقلَه بعض المفسرين - احتمالي ولا يهمنا. أما ركنه الأول، وهو القطعي، فهو قول إبليس لآدم(ع): «أتود الاحتفاظ بهذه الأمور التي تملكها؟»

والله عزّ وجل ينقل هذه القصة بكل روعة إذ يقول: لقد قلت لآدم: هاهنا الجنة، فلا يُخرجَنَّك منها عدوُّك! «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (طه/١١٧). وهذه قصتنا نحن جميعاً. ثم يقول تعالى: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى» (طه/١١٨ و١١٩)؛ إنك في الجنة لا تجوع، ولا تعطش، ولا تَعرَى، ولا تحمَى، ولا تبرُد.. إنك تملك فيها كل شيء! يقول الله سبحانه وتعالى كل هذا لآدم ويُذكّره به مع أن آدم(ع) هو في الجنة وهو يعلم بهذه الأمور. ثم يقول: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى» (طه/١٢٠) لكي تحتفظ بكل هذا؟ أي إن الله تبارك وتعالى قال لآدم: احترس من أن يدفعك ما تملك إلى الشقاء والسقوط! أما سمعتم مقولة: «لا تغتر بضخامة جسمك، لا تغتر بممتلكاتك». فلقد اغتر آدم بما يملك! أساساً لم يَكُ في نية أحدٍ سلبُه إيّاها. فكيف خدعه الشيطان إذاً؟ قال له: «أتود أن لا يأخذوا هذه منك؟» فانخدع آدم(ع). فماذا يقول لنا الله في شأن الجهاد؟ يقول: «هلّا أعطيتني روحَك!» لكن أبا أجدادنا (آدم) لم يُطلَب منه بذل النفس، بل غُرِّر به لمجرد أنه أراد الاحتفاظ بما يملك! ومن ثم يريد الله تعالى، منا نحن، أخْذَ أرواحنا! هناك خشيَ آدمُ(ع) أن يفقد ممتلكاته، فانخدع! أَوَتخشى أنت أيضاً أن تفقد روحك؟! لا تخَف! يروى عن أمير المؤمنين(ع) ما مضمونه: إذا جاهدتَ لا ينقُص عمرك. فإن انقضى عمرُك تموت - على حد قول القرآن الكريم - حتى ولو كنت في بيتك! «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَة» (النساء/٧٨)، «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِم» (آل عمران/١٥٤).

ستنكشف مساوئُك إن لم تكن من المقايضين!

ماذا حصل عندما أكلا (آدم وحواء) من الشجرة؟ يقول تعالى: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا» (طه/١٢١)؛ أي انكشفت مساوئهما! فإن لم تكن من المقايضين فستبدو مساوئك! وهذه المساوئ هي الكلام ذاته الذي يدور على الألسن؛ من أنّ فلاناً حسود، وهذا مغرور، وذاك متكبر، ...الخ. فإن لم تكن في هذه الدنيا مبسوط اليد، وكنت مُمسكاً، وغير مستعد للتقايض فإنك ستشقى.كم هي مهمة وجوهرية هذه الميزة! وقد لمسنا أهميتها في قصة نبي الله آدم(ع). ولنتلو الآن بضع آيات من القرآن الكريم. يقول تعالى: «إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً» (المعارج/١٩)؛

أي خُلق حريصاً، يريد الاستحواذ على كل شيء. ولا بأس إن أراد الاستحواذ على كل شيء بشكل سليم. لكنه تعالى يقول: إنه يفعل ذلك بشكل سيّئ، وسوؤه يكمن في أنه: «إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً» (المعارج/٢٠)؛ فحين أريدُ أن آخذَ منه شيئاً يجزَع، حتى وإن أردتُ منحَه شيئاً أفضل مكانَه، ويقول: «يا ويلي، لا أريد، ...»، بالضبط كجزع الطفل وتصرّفه الصبياني حين نريد أخْذَ شيء منه. ثم يقول عز وجل: «وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» (المعارج/٢١). فإن أعطيتَ هذا الطفل لعبة، أفَتَراه سيُعيدها لك؟! سيقول: «لا، أريد الاحتفاظ بها!» ما هذه التصرفات الصبيانية يا صغير؟! هذه الآيات الثلاث هي في غاية الأنثروبولوجيّة وتستحق جداً الوقوف عندها طويلاً.

الإنسان ضيّق الأفق وهو مخلوق عجيب!

ولكي تدركوا عمق الفاجعة سأتلو عليكم آية أخرى. يقول جل وعلا: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي» (الإسراء/١٠٠)؛ فلو كنتم، أيها البشر الذين أعرفهم، تملكون خزائن رحمة رب العالمين، ثم قيل لكم: «أنفقوا»، لا تنفقون؛ «إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ». أيها الإنسان، أنت هكذا، تخاف أن تنفق! أيها الإنسان، لو كنتَ تملك رحمة ربك جميعاً، لما كنت على استعداد لإنفاق ولو واحدة منها. ثم يقول تعالى: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً»؛ إنه على هذا المستوى من ضيق الأفق! يحتفظ بالشيء، لا يتركه. كم سيكون نزْعُ الروح صعب على أمثال هؤلاء! فهذا الإحسان والعطاء وبسط اليد، الذي يظلّ المرءُ العمرَ كلَّه يتمرّن عليه بالبلاء والتكليف وما إليهما، إنما هو من أجل هذه اللحظة الأخيرة حيث سيأخذون منك روحك. فلنسأل الله تعالى أن يجعلنا محبين لبذل النفس له، محبين للعطاء، محبين للمقايضة، محبين للتجارة.

إن تطمَع بابتسامة الله فعليك بالعطاء...

قد نسمع في الخطاب العرفاني العاشق قولهم: «عبادة التُجّار ليست راقية»، لكن لا يدفعنّك هذا أبداً إلى الظن بأن العبادة عن حب هي غير العبادة للاتّجار؛ فالمُحِبّ هو الآخر يتاجر مع الله عز وجل؛ كل ما في الأمر هو أنّ تَدَنّي مستوى التجارة أمر سيئ. فإن كانت التجارة على مستوى عالٍ فهي جيدة جداً.

الإمـام الحسـين(ع) كان قـد طلـب ابتسـامة ربـه! فقـال لـه اللـه: إن أردتَ أن أتبسّـم لـك فعليـك بالعطـاء... فأعطـى الحسـين(ع) حبيبـه عـلي الأكـبر، وفلـذة كبـده عبـد اللـه الرضيـع... يقـول تعـالى: أتريـد ابتسـامتي؟ طيّـب، سـآخذ منـك أشـياء. ولقـد أخـذ اللـه مـن الحسـين(ع) أشـياء لا يأخذهـا مـن أحـد قـط. بـل حتـى لنبيّـه إبراهيـم(ع) فإنـه تعـالى قـال: يكفـي هـذا، انهـض، فلـن آخـذ منـك إسـماعيلك. فحسـبُك أنـك صرتَ مسـتعداً للعطـاء. ولقـد عـرف العزيـز الحـاج سـليماني أن اللـه لا يأخـذ مـن أحـدٍ شـيئاً بهـذه البسـاطة، ولهـذا كان يَضِـجّ بالبـكاء طلبـاً للشـهادة قائـلاً: «إلهـي، خُـذ منّـي...».

مَن لا يتاجر مع الله سيفقد ما احتفظ به بطرق أخرى!

لقـد بُـيِّن معنـى التحفّـظ في عبـارة في القـرآن الكريـم بكثـير مـن الشـدة والمـرارة والمهانـة! سأشـير هنـا إلى هـذه الآيـة مجـرد إشـارة ولتذهبـوا بأنفسـكم وتدرسـوا الآيـة بدقـة؛ يقـول تعـالى: «فَـرِحَ الْمُخَلَّفُـونَ بِمَقْعَدِهِـمْ خِـلَافَ رَسُـولِ اللـهِ» (التوبـة/٨١)؛ أي: الذيـن لم يرافقـوا رسـول اللـه(ص) إلى الجهـاد كانـوا فرحـين بأنهـم قعـدوا وأن رسـول اللـه(ص) قـد توجّـه إلى الجهـاد مـن دونهـم! مـا الـذي تريـد الاحتفـاظ بـه يـا تعيـس؟! لقـد أُخـرج آدم(ع) مـن الجنـة لهـذا السـبب بالـذات، وهـو أنـه أراد الاحتفـاظ بمـا يملـك، فحـدث مـا حـدث خشـيةً منـه لئلا نأخذهـا منـه. ثـم يقـول تعـالى: «وَكَرِهُـوا أَنْ يُجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَقَالُـوا لا تَنْفِـرُوا فِي الْحَـرِّ قُـلْ نَـارُ جَهَنَّـمَ أَشَـدُّ حَـرّاً لَـوْ كَانُوا يَفْقَهُـون»؛ قالـوا: لا تخرجـوا للجهـاد فالجـو حـار. قـال لهـم: ألا إنّ جهنّـم أشـد حـراً! لِـمَ لا تتاجـرون؟ لمـاذا لا تقايضوننـي؟ ويقـول تعـالى في موضـع آخـر: «إِنَّ الَّذِيـنَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللـهِ وَأَقَامُـوا الصَّـلَاةَ وَأَنْفَقُـوا مِـمَّا رَزَقْنَاهُـمْ سِرّاً وَعَلَانِيَـةً يَرْجُـونَ تِجـارَةً لَـنْ تَبُـور» (فاطـر/٢٩)؛ أي: إن الذيـن يبغـون العطـاء للـه والتقايـض معـه ويريـدون أن ينفقـوا في سـبيله إنمـا يسـعون وراء تجـارة لا خسـارة فيهـا. لاحظـوا كيـف يُثنـي اللـه سـبحانه وتعـالى عـلى أهـل البيـت(ع)؟ حـين طـرق بابهـم مسـكين ويتيـم وأسـير وهـم جلـوس عـلى مائـدة الإفطـار عـلى وشـك تنـاول رغيـف الخبـز أعطـوا خبزهـم للسـائل. هـؤلاء كانـوا في أعـلى درجـات الاسـتعداد؛ بـل «وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَـلَى حُبِّـه»؛ إنهـم يُتاجـرون بعشـق! آدم(ع) سـقط مخافـة أن يُفـرّط بمـا لديـه. بالطبـع لقـد تـاب بعـد ذلـك، وقـد قَبِـل اللـه عـزّ وجـل توبتـه.

أيمكننا العطاء عن حب؟

لقد طرحنا إلى الآن ثلاثة مواضيع؛ أوّلاً: لا تخشَ أن يأخذوا منك شيئاً، إذ سيأخذونه منك لا محالة. فعن أمير المؤمنين(ع) إنك لا تنال نعمة إلا ويأخذون منك إزاءَها أخرى. ثانياً: إنهم، بهذه المقايضة، يمرّنوننا لكي يأخذوا منا أرواحنا ساعة الموت وينظروا ماذا سنفعل حينها! فإنْ تكُن، في تلك الساعة، رائعاً يغفروا لك جميع ما فات من سيئاتك وقبائحك. وثالثاً: إنه شهر مُحرَّم وشهر الشهادة ...الخ وقد جئنا لنرى أيمكننا أن نعطي عن حب؟ أيمكننا أن نعطي ما يريدون أخذه منا عن حب؟

ما هو نقيض التحفّظ؟/ ماذا نصنع إن رغبنا في أن لا نكون متحفّظين مُمسكين؟

ما هو نقيض التحفظ؟ لقد تحدثت إلى الآن عن نصف المنعطف واجتيازه وما زلنا لم نجتزه كله. ما الذي يجعل الإنسان، وهو المريد لكل شيء، يتوقف؟ حينما لا يشاء إعطاء الأشياء التي يملكها والتخلي عنها، هذا مع أنها ستؤخذ منه. هذا وإنك لتَعلَم ما الذي يصنع الله لك مع كل شيء تمنحه في سبيله؛ إنه سيفعل الأفاعيل! ما الذي علينا فعله لنتجنب الإمساك، ونتفادى التحفظ، ونكون من المتاجرين؟ سأتحدث عن هذا الموضوع في المجلس التالي. ولماذا الدنيا هكذا أساساً؟ سنتحدث معاً أيضاً عن فلسفة هذه الـ«لماذا».

لقد قدّمَ الإمام الحسين(ع) ألوان عطائه عن حب...

لقد قدّم الإمام الحسين(ع) كل ما لديه من عطاء، فما كان أصعب ألوان عطائه؟ لعل أصعب ألوان عطائه، كما يقال، كانت لحظة رأى، بعد وداع النسوة والعيال، أنّ ذا الجناح لا يتحرك. «إلهي، ما الذي حصل؟» فالتفت وإذا بسُكَينة الحبيبة تقف في طريق أبيها! لستُ قادراً على التوضيح. أسأل الله أن لا تضطر أبداً لترك ابنتِك في الصحراء وترحل! فما الذي قالته هذه البنت للحسين(ع)؟ قالت: أَبتِ، تريد الرحيل؟ لا بأس، لكن أَعِدنا أولاً إلى المدينة ثم اذهب...

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة4)

الزمان: 03/محرم الحرام/1442 - 23/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

سقوط الفرد والمجتمع يبدأ من "الإمساك عن العطاء"/ ما الحكمة من العطاء؟ لماذا يعطينا الله شيئاً ثم يستردّه منا؟

الإنسان "مُريدٌ لكل شيء" ولا يقف عند حد معيّن

نحن معاشر البشر طالبون للكمال. وطلبُنا هذا للكمال، إن فُسِّر جيداً، يعني: أننا نريد كل شيء، ولا نغُضّ الطرفَ عن كل ما يمنحنا اللذة، ولا نقف عند حد من السلطة، ولا نكتفي بمقدار معيّن من النعمة.. لقد خُلقنا هكذا، ولولا أننا طالبون للّانهاية سنعجز عن عبادة الله تعالى. وكما قد أسلفنا في المحاضرات الفائتة فإن الدين هو منهاج لبلوغ هذا الـ«كل شيء» الذي نصبو إليه؛ أي إنه يعرّفنا بالـ«كل شيء» من جهة، ويدلّنا على الطريق للحصول عليه من جهة أخرى، ويقوّينا على بلوغه من جهة ثالثة. فالدين، في النهاية، يُعلّم الإنسان أن كل شيء بالنسبة إليك هو الله، وأنه تعالى سيعطيك كل شيء؛ سيعطيك في هذه الدنيا، وسيعطيك الباقي في الآخرة.

الإنسان غير المُطالِب بكل شيء يصبح جنديَّ سُخرَة للقوى الانتهازية

لكن ما الذي يجعل هذا الإنسان الطالب لكل شيء والمريد للّانهاية يتوقف عن الطلب؟ وهو لا يتوقف عن بلوغ كل شيء فحسب، بل يمسي في خدمة الذين يطالبون بكل شيء على نحو خاطئ؛ أي يعمل سُخرَةً لطلاب السلطة الجبابرة الذين يسعون لنهب الآخرين، وهذا سيّئ ومثير للاشمئزاز جداً. وأمثال هؤلاء سيكونون في نارجهنم مع المجرمين وطلاب السلطة والفراعنة. إنهم ليسوا سيئين فحسب، بل في قمة السوء! إن مشكلة الذي يتوقف (عن طلب كل شيء) هي أنه يتحول إلى وسيلة لاستقواء طلاب السلطة الجبابرة الذين يستعبدون البشر! يقول الله تعالى في كتابه العزيز: «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» (البقرة/٢٥٦)؛ فإن لم تشأ أن تكون ذا دين فلا تكن.. لا بأس.. لا إكراه في الأمر، لكن لماذا تُعِين جبابرة العالم؟ لماذا تموت في سبيلهم؟ إنّ من الجميل أن تُنتَج أفلام عن العهود التي كان فيها البريطانيون الخبثاء يرسلون الجنود الهنود إلى أرجاء العالم المختلفة ليُقتلوا! لا يجوز لقلب أحد أن يحترق ألماً على أولئك الذين يُقتلون في سبيل الجبابرة!

إن لم يكـن المـرء مطالباً بـكل شيء فسـيصبح – شـاء أم أبي – جنـديَّ سُـخرة للظّلَمـة المطالبـين بـكل شيء، وسـيكون في خدمتهـم حتـى وإن لم يخدمهـم في الظاهـر! فـإن قلتُـم: «لا نريـد أن نطالـب بـكل شيء، حسـبُنا هـذه اللُقَيـمات التـي تسـد رمَقنـا!» أصبحتـم، بالقـوة، جنـودَ سُـخرةٍ للقـوى الانتهازيـة، وسـيعوِّل الصهاينـة المجرمـون عـلى مسـاعداتكم، ويحبونكـم، بـل ويولَعـون بكـم.

لماذا يصبح كلُّ مَن ليس مع أهل البيت(ع) عدوّاً لهم؟

لـو أحببـتُ أن أكتـب لكـم مقولـة مـن أمـير المؤمنـين عـلي(ع) كتـذكار فسـأكتب لكـم هـذه المقولـة: «مَـنْ لَـمْ يَكُـنْ مَعَنَـا كَانَ عَلَيْنَـا» (الإرشـاد في معرفـة حجـج اللـه عـلى العبـاد/ ج١/ ص٣٠٣). فالذيـن قالـوا عـلى مـر التاريـخ: «نحـن أقـل بكثـير مـن أن نسـتحق شـخصاً كعـليّ(ع)، ولا نريـد أن نصطبـغ بصبغـة عـليّ إلى هـذا الحـد» قـد آلَ أمرُهـم في النهايـة إلى أن يُمسـوا أعـداءه(ع)! وحتـى إن لم ينـصروا أعـداء أهـل البيـت(ع) واكتفـوا بالانـزواء جانبـاً والسـكوت، فإنهـم مسـاهمون أيضـاً في قتـل أهـل البيـت(ع) أو ظلمهـم؛ لأنهـم، بسـكوتهم، قـد أعانـوا معسـكر الباطـل وأعـداء أهـل البيـت(ع).

إن بعـض الذنـب وراء فـوز مَـن لا يتحـرّج مـن الاستسـلام للقـوى الكـبرى في الانتخابات هو ذنـب الحوزة العلميـة؛ فلـو أنها عرّفَـت النـاس بالديـن بشـكل جيـد، أو أن أنظمـة التربيـة والتعليـم ووسـائل الإعـلام العامـة قـد قدّمَـت الديـن إلى النـاس عـلى نحـو سـليم لعَـرف النـاس أن الـذي لا يتـورّع مـن الاستسـلام للقـوى الكـبرى لا بـد وأن يكـون خطـراً عـلى أرواح النـاس، وعـلى الأمـن، وعـلى المصالـح الوطنيـة.

درس الأخلاق السليم لا يمكن السكوت فيه عن السياسة

الإنسـان مريـد لـكل شيء، والويـل لـه إن تخـلّى عـن هـذه الصفـة، وإلا سـيصبح عبـداً لجَشِـعي العـالم الذيـن يريـدون الاسـتحواذ عـلى كل شيء ولَسَـيطروا عليـه. وإن تخـلّى المـرء عـن صفتـه في إرادة كل شيء فسيسـقط. فـما الـذي يقيـه مـن هـذا السـقوط؟ ليـت بالإمـكان إعطـاء درس في الأخـلاق دون الحديـث فيـه عـن السياسـة! لكـن هـذا مسـتحيل! وهـو بالضبـط كقولـك: «لا إلـه» دون أن تقـول: «إلا اللـه».

أقل درس في الأخلاق هو أن تقول: «كُن صالحاً وإلّا صرتَ عبداً لذئاب العالم! كُن إنساناً صالحاً، ولا تكن جنديَّ سُخرةٍ للطواغيت والصهاينة قَتَلة البشر والأطفال!» هذه جملة كاملة مفيدة. فلا يمكن أن يخلو درس الأخلاق الجيد من السياسة. فالقرآن أيضاً يتكلم في السياسة: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (النحل/٣٦)؛ كلاهما معاً. فليكن في بالكم أيها الشباب الأعزاء أن لو شاهدتُم في التلفزيون أو حضرتم في المسجد أو أي مكان آخر درسَ أخلاق يقول: «أَنِ اعْبُدُوا اللهَ» ولا يقول: «وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»؛ أي يقول: «كن إنساناً طيباً» ولا يقول: «لا تكن عبداً للطواغيت» فلا تُنصتوا إليه لأنه يَحرفُكم، ويُفسد أذهانكم شيئاً فشيئاً، حتى وإن تُليَت على مسامعكم فيه آية قرآنية أو نُقِل فيه حديث شريف. لماذا؟ لأنه يقرأ الآية ناقصة، ولذا فإنه سيترك عليكم، تدريجياً، أثراً سلبياً. عبارة: «كُن صالحاً» لوحدها ستجعلك عبداً للطالحين والأشدّ طلاحاً في العالم، ستصير عبداً لهم لإراقة دماء الآخرين ولتُقتل في سبيلهم!

متى تحطِّم صفةُ المطالبة بكل شيء صاحبَها؟/ حينما يودّ الاحتفاظ بما يملك!

الإنسان طالبٌ لكل شيء. لكنه يتوقف عن طلبه هذا للكمال وإرادته لكل شيء، وحينها يصبح عبداً للجشعين الجبابرة الذين يريدون الاستحواذ على كل شيء! النقطة التي يتوقف الإنسان فيها عن المطالبة بكل شيء هي عندما يحاول، بسبب هذه الصفة، الاحتفاظ بما يملك. وإنّ ساعة الصفر لسقوطه هي قوله: «إنني أريد كل شيء؛ فلأحتفظ حالياً بهذه الأشياء إلى أن أحصل على الباقي!» وهكذا بالضبط هبطَ نبي الله آدم(ع)؛ إذ قال له الشيطان: «إن ما تملكه في قمة الروعة، أتريد الاحتفاظ به؟» فقال: «أجل»، فكان في هذا شقاؤه! ولقد بكى وتضرّعَ أعواماً حتى قُبلتْ توبتُه. من الجميل جداً أن يريد الإنسان كل شيء، وإن الطريق السليمة لتلبية رغبته هذه هي الطموح باللانهاية، وهو الله تعالى. ولقد جاء الأنبياء ليدلوك على الطريق السليمة لذلك. لكن في وسع هذه الرغبة في كل شيء أن تذيقك التعاسة؛ وهو عندما تحاول الاحتفاظ بما تملك والإمساك عن بذله. هذا تحديداً هو ما يُشقيك! فإنك تَهلَك إذا قلتَ: «لا أريد أن أفقد هذه الأشياءْ».

ما الشيء الذي إن أراد الإنسان الاحتفاظ به هلَك؟ كلّ شيء؛ السُمعة، المال، ..الخ

من الناحية النفسية متى ما رأيتَ أنك تملك شيئاً هلكتَ! وهذا هو العُجْب! والعُجْب هو على درجة من السوء بحيث إنك لو كنتَ مذنباً لكان أفضل من أن تتصف بالعُجب؛ ففي الخبر: «إِنَّ اللهَ عَلِمَ أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا ابْتُلِيَ مُؤْمِنٌ بِذَنْبٍ أَبَداً» (الكافي/ ج٢/ ص٣١٣). فما الشيء الذي إن أراد الإنسان الاحتفاظ به هلَك؟ كلّ شيء! فإن أُعطيتَ مالاً واحتفظتَ به؛ فلم تدفع زكاته، وأمسكتَ عن الإنفاق منه، ولم تتصدق به، فستهلك! وإن لم تبذل ما مُنحتَ من سُمعةٍ فستهلك! فأحياناً يتحتّم عليك أن تبذل سُمعتَك لإنقاذ مؤمن، فإن لم تبذلها فستلفَح وجهَك حرارةُ النار يوم القيامة فتشتوي بها حتى وإن كنتَ من أهل الجنة! هذا ناهيك عن الذلة التي سيُذيقها اللهُ المرءَ في الدنيا. ولقد وبّخَ أبو عبد الله الحسين(ع) وُجهاء المدينة قبل اندلاع ملحمة كربلاء على عدم بذلهم سمعتَهم ووجاهتَهم! «ثُمَّ أَنْتُمْ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ؛ عِصَابَةٌ بِالْعِلْمِ مَشْهُورَةٌ، وَبِالْخَيْرِ مَذْكُورَةٌ، وَبِالنَّصِيحَةِ مَعْرُوفَةٌ، وَبِاللهِ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مَهَابَةٌ؛ يَهَابُكُمُ الشَّرِيفُ، وَيُكْرِمُكُمُ الضَّعِيفُ... تَشْفَعُونَ فِي الْحَوَائِجِ إِذَا امْتَنَعَتْ مِنْ طُلَّابِهَا، وَتَمْشُونَ فِي الطَّرِيقِ بِهَيْبَةِ الْمُلُوكِ وَكَرَامَةِ الْأَكَابِرِ... فَلَا مَالاً بَذَلْتُمُوهُ، وَلَا نَفْساً خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا، وَلَا عَشِيرَةً عَادَيْتُمُوهَا فِي ذَاتِ اللهِ..» (تحف العقول/ ص٢٣٧ـ٢٣٨).

بداية سقوط الفرد والمجتمع هي "الإمساك عن العطاء"/ لنكن متأهّبين لبذل كل ما نملك في سبيل الله

ما الذي يحصل للإنسان فيسقط، ويُمسك عن العطاء؟ إنك إنْ خشيتَ أن تفقد ما تملك فعليك السلام! إني أستشعر خطراً وأريد أن أخبركم به. وقلقي هذا يرتبط بامتحان من تلك الامتحانات التي فشل فيها آدم(ع) في الجنة! ولا أدري إن كنتم قادرين على اجتياز هذا الامتحان أم لا؟ أنا، بالطبع، متيقّن من أن معظمكم مستعد لبذل النفس في سبيل الله، لكن القلق والخطر الذي أتحدث عنه أعظم من هذا بكثير! فقد جاء في الخبر أن لكل ما تملكون زكاة؛ «لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ» (الكافي/ ج٤/ ص٦٢)، وعليكم بذل جزء منه، أي لا بد لكم من العطاء.

«العطاء» صعب، وإن الإمساك عنه هو ساعة الصفر لسقوط الإنسان والمجتمع. فلقد روي عن الإمام الصادق(ع) أن هلاك الأمة بمنعها الزكاة: «مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ وَفِيهَا تَهْلِكُ عَامَّتُهُم» (الكافي/ ج٣/ ص٤٩٧). وسقوط الفرد هو الآخر يكون بسبب أنواع «الإمساك»، وإنّ أحد أنواع الإمساك كان قد أَهبطَ آدمَ(ع) من الجنة! أتريد أنت أيضاً أن تُخدع بأن لا تفرّط بما تملك؟! لقد اغترّ نبي الله آدم(ع) بإبليس! والله تعالى كان قد أخبره بأن «الشيطان عدُوّ لك!» وآدم(ع) لم يكن مثلنا؛ فلقد كان في وضعٍ جيد من ناحية، وقد أُخبِر بشفافية عن كل ما يتصل بعداء إبليس له من ناحية أخرى، ثم إنه قد عُلِّمَ «الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» (البقرة/٣١) من ناحية ثالثة؛ أي أنه عُلِّم كل شيء. أما أنا وأنت ففي غاية الضعف مقارنةً بآدم(ع)! أتريد الإبقاء على ممتلكاتك؟! إنك إن قلقتَ على ما تملك هلكتَ! وإن ظننتَ أنك تملك شيئاً (فساورَك العُجب) تحطّمتَ! وإن اغتررتَ بما عندك فنَيت، وإذا رغبتَ في الاحتفاظ بها هلكتَ! فماذا عسايَ أصنع إذاً؟! عليك أن تتأهّب لبذلها جميعاً في سبيل الله.. أن تتهيأ للقول: «إن لي ربّاً، وهو يعطيني ما يشاء متى يشاء، أنا لم أعُد قلقاً على فقدان شيء». بالطبع إن قول مثل هذا الكلام صعب. نعم حينما يكون المرءُ خالي الوفاض فمن السهل عليه قول هذا، لكنه حينما يمتلك شيئاً سيصعب عليه العطاء. وهذا من الامتحانات التي فشل فيها آدم(ع) وهو في الجنة! فماذا عسانا نحن نصنع في هذه الدنيا؟!

قد تُسَلّمك خصلةُ الإمساك سيفاً وتقول لك: "اقتُل إمامك"!

قد تظنون، أيها الشباب، أن محاربة خصلة الإمساك هذه سهلة. ولو كان الأمر كذلك فلماذا كان أمير المؤمنين(ع) يضج بالبكاء كل ذاك الضجيج؟! ولماذا كان لونُ الزهراء(س) يتغيّر ساعة الصلاة؟! ما كان السبب وراء قلقهما كل هذا القلق؟ إن خصلة الإمساك هذه هي من الخطورة ما قد يجرّد فؤادَك من حبك لأهل البيت(ع)! وقد لا تقوى هذه الخصلة على تجريد قلبك من الحب، بل تُسَلّمك سيفاً وتقول لك: «هيّا اقتُل إمامك!» هكذا كان شعور أهل الكوفة تجاه الإمام الحسين(ع)! كانوا: «قُلُوبُهُمْ مَعَكَ وَسُيُوفُهُمْ عَلَيْك» (دلائل الإمامة/ ص١٨٢).

دخل رجل على الإمام الصادق(ع) «فَقَالَ(ع) لَهُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: مِنْ مُحِبِّيكُمْ وَمَوَالِيكُم»، ولم يقل: من شيعتكم، كي يقول له الإمام(ع): لكنك لست من شيعتنا! فمقام الشيعي أعلى من هذا، بل قال: من محبيكم. فقال له(ع): «مِنْ أَيِّ مُحِبِّينَا أَنْتَ؟ فَسَكَتَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ سَدِيرٌ: وَكَمْ مُحِبُّوكُمْ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ؟ فَقَالَ(ع): عَلَى ثَلَاثِ طَبَقَات...» (تحف العقول/ ص٣٢٥). ما الذي يحصل للإنسان المريد لكل شيء فيسقط؟ إنه يسقط حين يُعطَى القليل فيغتَرّ به، أو لا يعطي زكاته، أو يقلق بشأنه. يقول الإمام علي(ع): «زَكَاةُ الْعِلْمِ نَشْرُه» (غرر الحكم/ ص٣٩٠)؛ فانقُل ما تعلّمتَه للآخرين، لأنك إن احتفظتَ به لنفسك فستُصاب - رويداً رويداً - بالحُمق، ويذهب علمُك. فما من شيء تحصل عليه حتى تُسلَب شيئاً آخر بسرعة.

سيأخذ الله تعالى منك كل ما تملك، إما بالتكليف أو بالتقدير

الليلة سأجيب على السؤال الذي طرحتُه في الليلة الماضية: ما هي منزلة البذل والعطاء في الدين؟ ما هي الخطة الإلهية وراءَ عملية الأخذ هذه؟ إنك حتى إن لم تكن ذا دين فإن الله سيسترد منك كل ما تملك، سيُخْليك من كل شيء بالموت. إنه عز وجل يمنح الإنسان أشياء كثيرة في شبابه ثم يستعيدها منه، الواحد تلو الآخر، خلال الخمسين أو الستين عاماً من عمره. لكن، يا إلهي! إن المدة التي أعطيتني فيها ما أعطيت كانت قصيرة جداً، أما المدة التي أخذتَ تسترد فيها الأشياء التي أعطيتنيها واحداً واحداً فطويلة للغاية! «إلهي، في ذلك الثلث الأول من عمري الذي وهبتَني فيه الكثير كنتُ صغيراً ولم أفقه شيئاً! وكأنّ غايتك من عملية إعطائنا الأشياء كانت الأخذ أكثر مما هي الإعطاء، وذلك لكي تختبرنا». خطة الدين هي أن تبذل وتُعطي أنت بنفسك، وإلا فستُؤخذ أشياؤُك منك، شئتَ أم أبيت. لماذا هكذا؟ لماذا يجب أن يأخذ الله مني الأشياء أصلاً؟ ألم يخلقني راغباً في كل شيء؟ إلهي! إنني أتعلّق بالأشياء التي تمنحُها لي.. لا أستطيع أن أنتزعها من روحي.. فلماذا تريد استردادَها منّي بالتكليف أو بالتقدير؟!

ما هي الحكمة من البذل؟/ بل لماذا يعطينا الله شيئاً ثم يعود ليستردّه منا؟!

أساساً ما قصة عملية الأخذ هذه؟ إن الله عز وجل يأخذ هذه الأشياء لأنه قد زوّد الإنسانَ بميزة وقال في كتابه: لقد خلقتك من أجل هذه الميزة! البذل، بالطبع، صعبٌ على الإنسان فدعوني، إذاً، أحدثكم عن العلّة أو الحكمة من ورائه وانظروا إن كنتم ستقتنعون بالحكمة منه أم لا. بل لربما أحببتم هذه الحكمة. لقد جُعلتَ مخلوقاً اسمه «الإنسان»، لا ملاك ولا حيوان. إنك المخلوق الوحيد القادر على الاختيار. والله عز وجل لم يقل في كتابه: لقد خلقتك أيها الإنسان من أجل «الاختيار»، بل قال: خلقتك «لأبلُوَك وأمتحنك»: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (المُلك/٢)؛ أي: لأرى كيف ستختار؟ أيها المخلوق المختار! أتنزعج لأنني خلقتك مُختاراً؟! أتستاء من أن تكون ذا قيمة بالاختيار؟! أكنتَ تودّ أن تكون بهيمة؟! إذاً الاختيار قضية محورية للإنسان، بالضبط كقضية «الحرية» التي ترى كم قد أصبحتْ شعاراً محورياً وعالمياً ومهماً.

من لوازم الاختيار العطاء والمعاناة/ المعاناة هي أن يؤخَذ منك ما تحب

ماذا يستلزم الاختيار؟ الاختيار يستلزم أن تُسلبَ النعمة مني، يستلزم العطاء، يستلزم المعاناة والبلاء. ومتى يصبح للاختيار معنى للإنسان؟ حينما يوضَع أمامه شيئان محبوبان ويقال له: «إن اخترتَ الأفضل سترتقي وتكون أكثر قيمة». فلو صببتُ في إناءٍ «سُمّاً» ووضعتُ في إناء آخر «طعاماً» وأنت تعرف ما هما فمن الواضح أنك ستختار الطعام لتتناوله؛ فلا معنى هنا للاختيار إذاً. الاختيار إنما يتحقق عندما يضعنا الله تعالى أمام «محبوبَين» فلا تختار هذا إلا وتضطرّ إلى ترك ذاك، وهاهنا تحديداً أول المعاناة في حياة الإنسان. إني لأتأسّف كثيراً من أن مدارسنا لا تعلّم الأطفال الحكمة من المعاناة. عشرَ مرات، منذ المدرسة وحتى الجامعة، يُثبتون للطالب وجود الله، قائلين له: «آمِن بأن الله موجود!» لكن حتى إبليس كان مؤمناً بوجود الله، مثلما كان آدم(ع) مؤمناً به أيضاً. ترى أيُحَلّ كل شيء بمجرد الاعتقاد بوجود الله عز وجل؟! المشكلة لا تكمن هنا. ما هي الفلسفة من المعاناة؟ المعاناة هي أن لا تملك ما تحبه. المعاناة هي أن يُؤخَذ منك ما تحبه. المعاناة هي أن تحاول الوصول إلى ما تحب فتوضَع في طريقك العراقيل، وتضطر إلى التخلّي عن عدد من محبوباتك الأخرى لتنال الأول. وهذه الأمور تُتعبك. لماذا يجب أن تعاني؟ لأنك إنسان مختار، والاختيار يعني المعاناة.

الإمام علي(ع) يُطلِع الشباب على المعاناة من خلال رسالة

يقول أمير المؤمنين(ع) في مطلع الكتاب ٣١ من نهج البلاغة: «مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ... إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِك [يُدْرَك] ...غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ»؛ أي: أكتُب إلى الحدَث الذي لن يبلغ آمالَه والذي سيكون هدفاً لسهام المصائب والبلايا. إنه أول كرّاس تعليمي خُطّ في صدر الإسلام بيد أمير المؤمنين(ع) في إطار كتاب موجَّه إلى الشبان يعلّمهم به دينهم، وهو الكتاب ٣١ من نهج البلاغة. يوضح(ع) لولده في مطلع الرسالة «أن الدنيا ستنال منك، ستسلبُك أشياءك، كما سلبَت الماضين أشياءَهم، إنها لن تعطيك كل شيء...». لا ينبغي للإنسان أن يخشى المعاناة. فأمير المؤمنين علي(ع)، في هذه الرسالة، يُخبِر سبع مرات عن معاناته وآلامه بوصفه «الوالد الشيخ»، وأربع عشرة مرة عن المعاناة والآلام التي سيقاسيها الشاب في الدنيا. يُطلع الإمام(ع) ولَده، في هذا الكتاب، على المعاناة مخبراً إيّاه بأنك في الدنيا ستعاني! وكل من أخبرك بأنه من الممكن أن لا يصيبك في الدنيا أي ألم فقد كذب عليك، وأراد خيانتك. لا تعش في الأوهام! إنك لا بد أن تعاني. لكن هلُمَّ واجعَل معاناتك لذيذة لك، هيّا استغلّ معاناتك على نحو أفضل. تعال واجنِ من آلامك مُتَعاً عظيمة.

لماذا المعاناة في الدنيا؟ لأن فيها اختيار

حاولنا مرة أن نطبّق جميع هذه المباحث التربوية في روضة للأطفال فصمّمنا ألعابها ونظامها على غرارها. وكان أحد البرامج أن توضع أمام الطفل، إذا جاعَ، قطعتَا حلوى لذيذتان بلونين متغايرين ويقال له: «يمكنك تناول واحدة فقط». الطفل (طبعاً) يرغب في أخذ الاثنين، فيقال له: «هذا غير جائز!» لماذا؟ لأنه تمرينٌ يراد منه إنضاج عقل الطفل عبر الاختيار، فكأنما يقال له: «لك أن تختار من بين قطعتَي الحلوى واحدة فقط، هذا هو حال الدنيا حتى النهاية!» فلماذا ثمة معاناة؟ لأنه ثمة اختيار. من المستحيل أن يُخيِّر أحد نفسَه بين أكل خشبة أو بوظة، إذ لا أحد يرغب في أكل خشبة. فإنما يكون الاختيار بين الأشياء المرغوب فيها؛ فإن اشتهيتَ البوظة فعليك أن تبذل المال، وإن امتلكتَ مالاً أكثر وأحببتَ تناول ثلاثة أضعاف كمية البوظة فينبغي أن تتنازل عن صحتك! وإن قلتَ: «آكُل ما يداوي هذا المرض»، وجبَ عليك التفريط بعقلك! فالأكول يصبح أحمق. أيها المخلوق المختار، يا من تحب إنسانيتك ولا تريد أن تكون حيواناً! اِعلَم أن الاختيار يساوي المعاناة.

قد تكون المعاناة بسبب الاختيار، وقد تأتي من التقدير الإلهي

إننا في كل مرة نختار نقاسي ألماً وننال لذة، هذا إذا صَحَّ اختيارنا. فإن أخطأنا الاختيار، وظهرَت اليد (في لعبة المحيبِسْ) فارغة، نكون قد خسرنا هنا أيضاً. لكن ثمّة آلام تصيبنا لم نكن قد اخترناها؛ أي ليست جميع آلامنا في الحياة هي بسبب اختيارنا، ونتيجة تنازلنا عن شيء نحبه لنيل لذة ما، بل قد ينزل علينا بلاء من السماء دون أن يكون الذنب ذنبَنا أبداً. لأي شيء يُنزِل الله تعالى مثل هذه البلايا في الحياة؟ يُنزِلها لتعلم أنه حتى وإن لم يكن اختيارك سليماً فستجعلك الطبيعة والتقدير الإلهي تتعذّب أيضاً.. لا تخَف من العذاب.. لا تخشَ المعاناة! فلو كان مصدر معاناتنا اختيارَنا السليم وحسب لما شئنا أبداً أن نختار بشكل سليم! يقول (الله): أنا أيضاً أعذّبك! وإن لم يكن اختيارك سليماً جعلتك تعاني أكثر. بل إنّ في الدنيا معاناة وإنْ لم تفعل شيئا أبداً. إنني سأسلبك الأشياء التي تحب، هذا لمصلحتك. فتنازل أنت، بنفسك، عن محبوباتك لصالح محبوباتك الأسمى. فمن المستحيل أن تملك كل شيء معاً في هذه الدنيا، لأنه يتوجب عليك الاختيار.

بعض معاناة الإنسان ترجع لاختياراته؛ سواء السليمة أو غير السليمة/ الاختيار السليم معاناتُه أقل

الدنيا محل اختيار، والاختيار يعني المعاناة. والله تعالى لا بد وأن يذيق كلَّ امرئٍ في حياته آلاماً. لكن الله تعالى يستردّ الأشياء هنا في غاية اللين والهدوء، يستردها بمنتهى الرأفة والملاطفة. إنه لا يعذب بقوة؛ فمتى ما سلبَ الإنسانَ شيئاً عوّضَه محلَّه ببضع نِعَم أفضل ومنحه أجراً. فإنّ إعطاء الأجر يبدأ من الدنيا. بل إنه سبحانه يعطيك الأجر حتى على المعاناة الطبيعية التي لا دخل لاختيارك بها أبداً، بل ويعطيك عشرة أمثال الحسنات الأخرى أيضاً. فإن أخَذَ منك بصرَك يُزيد قدرتَك على التخمين، وإن أخذ ساقَك يعطيك قدرة غيرها. إن الله لا يؤذي عبداً من عبيده، لكن لا بد من المعاناة في حياة الإنسان؛ إذ يقول عز وجل: «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد» (البلد/٤)؛ أي في معاناة وآلام! لماذا؟ لأنه مخلوق مختار. وبعض معاناته ترجع لاختياراته؛ سواء السليمة منها أو غير السليمة. على أن الاختيار السليم معاناتُه أقل، والاختيار غير السليم معاناتُه أكثر. والاختيار السليم تصحبه معاناة قليلة في البداية، ثم تَتبعُها اللذة، أما الاختيار الخاطئ فمعاناته متأخّرة، وأشَدّ.

غاية بعض الآلام كَبْح تكبر الإنسان

لكن يا إلهي، أنت لماذا تذيقنا الآلام؟ يجيب الله تعالى: أنا الذي خلقتُ هذا الإنسان، وأعلم أنه لا يمكن أبداً السيطرة عليه (لولا إذاقته المعاناة). فمن الجميل أن يشيخ الإنسان، وأن يَطعَن في السن، وتخور قواه إذا شاخ، وإلا فلستَ تعلم ما الذي كان سيصنعه لولا هذه الشيخوخة! ولقد خلقه الله تعالى حراً أيضاً. فمن الجيّد أن يرحل البعض عن الدنيا. صحيح أننا نحزن لفراقهم، لكن لو بقوا دون أن يفارقوا الدنيا، وزادوا سمنة يوماً بعد يوم لَما وصَلَ إلينا الدور في الحياة أصلاً. في الجنة مهما أكلنا يتحوّل الطعام إلى عرق عَطِر الرائحة أو عِطْر، أما الدنيا فنظامها يختلف. لماذا جعل الله عز وجل نظام بدن الإنسان في الدنيا بحيث ما إن يتناول الطعام حتى تحدث له أمور قبيحة جداً ويكون مضطراً للذهاب لبيت الخلاء؟ قالوا إنه للسيطرة قليلاً على تكبّره عبر هذه الحالة: «تَصْغِيراً لِابْنِ آدَمَ لِكَيْلَا يَتَكَبَّرَ وَهُوَ يَحْمِلُ غَائِطَهُ مَعَه» (علل الشرائع/ ج١/ ص٢٧٥).

الغرض من بعض البلايا تبديد الخوف من المعاناة

بعض البلايا يُنزلها الله تعالى هو بك كي لا تخاف البلاء كثيراً ولتتهيأ للآلام التي تصيبك جراء اختيارك أنت. ليس هناك اختيار من دون معاناة. لماذا؟ لأن الاختيار يكون دائماً بين شيئين محبوبين. إنك تحب الاختيار، ومن أجل هذا أنت تحب الحرية أيّما حب. إنك تكره أن تكون بهيمة؛ فالبهيمة لا تختار، إنه الإنسان الذي يختار. ولا يكون الاختيار إلا بين شيئين تحبّهما، وإنك تعاني كلما تخليتَ عن شيء تحبه. لكن ما فلسفة الأشكال الأخرى من المعاناة؟ فلسفتها أنه حين تزداد معاناتُك يقلّ فرارك من المعاناة. يقول الله في محكم كتابه: «يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَة» (النساء/٧٨)؛ أتريد الفرار من الجهاد هرباً من ألَم الموت؟ لكن الموت سيدرككم جميعاً، فلماذا الخوف؟ وإن الحكمة من أنماط المعاناة الأخرى هي إعدادك لتقبّل المعاناة، المعاناة التي ستقاسيها باختيارك. الملاحظة الأخرى حول علة وجود الآلام والمعاناة هي أنه في خِضَمّ الآلام يُجري الله عليك أغلب امتحاناته ليختبر اختيارك؛ فهو يُنزل بك بلاءً ليرى كيف تختار، إنه مشهد اختبار واختيار؛ فإنّ نصف مشهد الاختيار يكون في البلاء، ونصفه الآخر في الرخاء.

متى يسقط الإنسان؟ يسقط حينما لا يطيق معاناة العطاء

الإنسان مُحب لكل شيء، فمتى يفسد أمرُه؟ يفسد أمرُه إذا أراد الاحتفاظ بكل ما يملك. لكن الله سيأخذها منه، إنه سيسترد منه أشياءه التي يحبها. لماذا يستردها؟ لماذا لا يدعني أحتفظ بما أملك؟ لأنّ عليَّ أن أختار، وحين أختار لا بد أن أتخلّى عن شيء في حوزتي، وإلا فليس ثمة معنى للاختيار. يتحتم عليّ أن أتنازل عن أحد محبوباتي، عن أحد ممتلكاتي، وإلا لن أسمح لإنسانيتي أن تبرز وتتجلى! متى يسقط الإنسان؟ إنه يسقط حينما لا يطيق معاناة العطاء. إذاً فابذِلْ.. لا تُمسِك.. وإلا سوف تسقط.

معاناة العطاء تكون أحياناً أشق من معاناة بذل النفس!

معاناة العطاء تكون أحياناً أشق من معاناة بذل النفس. وسنتحدث حول هذا الموضوع، إن شاء الله، في الليلة القادمة. أيها الشباب، لا تخشوا الآلام والمعاناة. فالذي يخشى الآلام سيُرَغِّبه الإمام الحسين(ع) بنفسه في أن يتركه ويرحل عنه! لقد قال(ع) لأصحابه ليلة العاشر من المحرم: أنا راضٍ عنكم جميعاً، ولستُ أتوقّع منكم شيئاً، فانهضوا وارحلوا عني! فرحلَ عنه الذين ما كانوا يتحمّلون أن يُضرَبوا ولا يطيقون المعاناة وضرب السيوف، ولم يبقَ معه إلا القليل...

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة5)

الزمان: 04/محرم الحرام/1442 - 24/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

إننا قد نتعرّض لامتحان "المواساة" قبل الظهور / إذا بَخِلنا وأمسكنا في امتحان المواساة فسنسقط

لا بد من تكرار المفاهيم المهمة بعد معرفتها لكي تترسخ جيداً في النفس

من الأمور التي يجب أن نُوليها اهتماماً كبيراً، سواء في عملية تزكية أنفسنا أو على مستوى تربية الآخرين (كالتلاميذ، والطلاب، والأبناء، ..الخ)، لكنها في مجتمعنا – مع الأسف - مُهمَلة إهمالاً كبيراً وتعصف بها أزمةُ فوضى واضطراب شديدة الضرر، هي أن ننظر: إلى أي مدى علينا التأكيد على كل مفهوم وتكراره، سواء مع أنفسنا أو مع الآخرين؟ المفاهيم المهمة والاستراتيجية ليست للاطّلاع عليها فحسب، بل لا بد بعد الاطّلاع من تكرارها لكي ترسخ في النفس جيداً. لكن مثل هذه المفاهيم – أحياناً - لا يُطَّلَع عليها أيضاً. وسنطرح في هذه الليلة على حضراتكم بعض هذه المفاهيم، وهي مفاهيم في غاية الأهمية ويتحتم تكرارها في حياتنا بكثرة، وإلا لن نستطيع العيش عيشة سليمة.

إذا وقَفَ المرءُ على موطن اضطراره فسيهرول إلى الله

القضية الأخرى هي أننا أكثر ما نؤكد، في عملية التربية الدينية، على «الإيمان» بالله تعالى؛ فنبالغ في الإصرار على الناس أنْ: «آمِنوا.. أَسلِموا.. تديّنوا..» وتتكرر هذه الكلمة كثيراً في الأوساط الدينية بينما لا ينبغي تكرارها. نعم قد لا يكون مجرد قولِها مُضراً، لكن في تكرارها بكثرة أضراراً جَمّة. فعوضاً عن أن تقول لنفسك: «آمِن.. تديَّن، ..الخ» حدِّث نفسَك بما يجعلك تدرك أنك مُرغَم على التوجّه إلى الله عز وجل. خاطب ولَدك الشاب بما يجعله يتساءل: «إذن، ما الذي يجب عليَّ فعله؟» ثم يكتشف هو الجواب فيقول لنفسه: «عليَّ أن أتوجه إلى الله، إنني بحاجة إلى هذا الأمر...». فالطفل إذا جاع اتجّهَ إلى أمه، وإنّ العبد أيضاً إذا استشعر الفقر والحاجة توجّه إلى ربه. فلنحاول، عوضاً عن التأكيد على الإيمان بالله، أن نكتشف اضطرارَنا وفَقرَنا وفاقَتَنا إلى بارئنا. فإذا اكتشف الإنسان مَوطِن اضطراره توجّهَ إلى الله عز وجل. إن من الواجب علينا، أكثر من نُصح الغير بعبادة الله، أن نتكلّم مع الناس فيما يوقِفُهم على اضطرارهم ويُلجِئُهم إلى بارئهم. يجب أن نؤكد أكثر على هذه المسألة، وأن نتعلّم هذا الجانب من الدين. فإنّ سكوتنا المستمر عن مسألة اضطرار الإنسان في حياته الدنيا هو – بشكل من الأشكال – خيانة بحق النَشْء والجيل الشباب.

عدم لَمسِنا لاضطرارنا إلى الله هو الذي يقودنا إلى عدم الإيمان واللادين

الحقيقة هي أن الإنسان في الدنيا في معاناة. فلنُخبر الإنسان بهذه الحقيقة كي يصبح مضطَرّاً ويسأل: «إذن ماذا أفعل؟ وإلى مَن ألجأ؟ وكيف أُحَسِّن أوضاعي؟» وعندذاك سيعرف الحل لوحده حتى لو لم نقل له: «الله». لقد صِرنا، نحن معاشر البشر، نحس بالاستغناء الكاذب ولا نرى اضطرارنا إلى الله تعالى، ولهذا أصبحنا عديمي الإيمان ولادينيّين. وما هذا الكلام بذوقي الشخصي أنا، بل هو أول كلمات قالها الله جل وعاله في أول ليلة تكلم فيها إلى نبيه الكريم(ص): «كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى» (العقل/٦و٧)؛ فالإنسان يطغى إذ يرى نفسه مُستَغنياً.. فيا أيها النبي، اذهب إلى هؤلاء القوم الذين طغَوا. إن أكثر الأسواق رواجاً في الفضاء الافتراضي هي سوق الألعاب! فلماذا يلعب الناس كل هذا اللعب؟ لأننا لم نُكَبِّر الأطفال في المدارس! إنهم لم ينضجوا. فبالمعاناة والآلام يُطبَخ الإنسان وينضج فيكُفّ عن اللعب والتفاهات؛ « قَلِّل طلَبَ الماءِ واستجلِب العطش/ فتتفجّرْ لك عيونُ الماء من كلّ حَدَبٍ وصَوب» (بيت شِعر). أَقنِعه أنه «مضطر إلى الله» واكشِف له اضطرارَه هذا، كي يقول: «فماذا أصنع إذن؟» ألا ترى كيف يتوجه المريض إلى المستشفى؟ وكيف يتوسل إلى الطبيب كي يفحصه؟ لأنه مضطر.. فالمسألة مسألة حياة أو موت. ولا بد لنا نحن أن نلمس اضطرارَنا أكثر من هؤلاء. هذه المقدمة الأولى.

اِلمَس رغبتَك في كل شيء، لا تقنع بالقليل!

كان موضوع بحثنا هو أننا نحب امتلاك كل شيء. فالمَس رغبتَك في كل شيء.. لا تقنع بالقليل. كلما رغبتَ في لذة اسأل نفسك: «ماذا يحصل بعد أن تنال هذه اللذة؟ عن أيِّ لذة أخرى ستفتّش إذا سئمتَ من هذه؟» لا تتشبّث بأيّ لذة أعمىً أصمَّ، تشبُّثَ المتسوّل، فإنك لن تكتفي بأي لذة.. إنك تتطلّب أشياء كثيرة جداً. الإنسان يطالب بأشياء كثيرة، إنه يريد كل شيء.. إنه يريد الأفضل والأرقى.. إنه حتى لو كان في أحسن الأحوال والظروف فسيضجر ويطالب بشيء آخر. هذا التفسير لطلب الكمال يجب أن يُعاد على الأسماع مراراً وتكراراً. إن الأبوين ليخونان ولدَهما إذا قالا له: «متى ما صرتَ طبيباً أو مهندساً ستبلغ غاية المُنى»، وإن معلّم المدرسة ليُحطّم الطالب إن أخبره بأنك:

«متى ما قُبِلت في الفرع الجامعي الفلاني بلغتَ الذُرى». وتلاحظون كيف أن معدلات الاكتئاب بعد امتحانات القبول في الجامعات عالية جداً وكم يشكو الطلاب في هذه المرحلة من انخفاض النشاط وهبوط الدافع. لماذا معدلات الطلاق مرتفعة؟ لأن الزوجين يبدآن بعد الزواج بالتباغُض حين يكتشفان كم أنهما تمادَيا في الأوهام الكاذبة فظهَرَ أن الأمر ليس كما تصوّرا. فليس من المُفترض أساساً أن يكون الزواج هكذا.. عبثاً نسجتَ الخيال يا هذا! فالحياة هي أن تخوض سلسلة من المشاكل بصلابة.. فلا تتظاهر بالضعف! لقد بدأنا موضوعنا من أن الإنسان طالب لكل شيء، إذن لا نُطالبَنّ بالقليل. لا يهدأنَّ لأحدٍ بال. لا بد من قول هذا للأطفال، يجب أن يُنتَج الكارتون والأنيميشن وتُؤلَّف القصص بطريقة تكشف للأطفال هذه المساحة الواسعة لطلبات الإنسان. إنه ليس من درس الأخلاق أن نقول: اخفِض مطالبَك. بل قل: «اطلُبْ كل شيء». فلا يجوز أن يكون المرءُ أعمىُ وأصمَّ بحب الشيء ما، كيلا يُغشى عليه إذا وجد نفسه أمام أحد محبوباته، فليصبر قليلاً، لا يتحطّمَنّ روحياً إذا فقدَ إحدى الأشياء التي يحبها. فالإنسان طالب لكل شيء.

الإنسان المريد لكل شيء لا يستطيع في الدنيا امتلاك الأشياء كلها في آنٍ واحد

فكيف للإنسان المريد لكل شيء أن لا ينال كل الأشياء، بل ويفرّط بما يملك، لا بل يصبح عبداً للجبابرة؟! ولا نريد الهرب من الإجابة بالقول: «يصبح إنساناً سيئاً» فالإنسان لا يصبح سيئاً بهذه السهولة، لكن ماذا يحصل لتصبح حالُه هذه؟ القصة وما فيها هي أن الإنسان المريد لكل شيء لا يستطيع في الدنيا امتلاك الأشياء كلها في آن واحد؛ فإما أن يفرّط ببعض ما يملك، أو لا ينال بعض ما يحب، أو يضطر هو إلى التخلي عن بعض ما يحب، أو أنه لا ينبغي له الدنُوّ من بعض الأشياء التي يحب. وهذا كله يعني المعاناة؛ فأنْ يؤخَذ منك ما تحب يعني المعاناة، وأن لا تُعطى ما تحب يعني المعاناة، وأن لا تتقرب مما تحب يعني المعاناة! لكن لماذا المعاناة؟ لماذا أنا لا أحصل على كل شيء؟

قلنا في القسم الأول من البحث إنك طالبٌ لكل شيء. إذن فلتهتم بكل حاجاتك ولا تظل أسيرَ حاجة أو حاجتين منها. لكن هل ستنالها كلها؟ كلا، فالدنيا ليست مكاناً لنيل كل شيء، بل هي موضع فقدان الأشياء وعدم امتلاكها. وهذه أيضاً من الأمور التي إن لم نصارح بها شبابنا نكون قد جنَينا عليهم. لا بد أن نصارح الشاب، كما فعل أمير المؤمنين(ع)، فنقول له: «إنك لن تنال كل ما تطمح إليه!» وإن لم نقل له ذلك نكون قد خُنّاه، وحطّمناه! فلنكن صادقين مع شبابنا كما صدق معهم مولانا أمير المؤمنين(ع). إنك لن تنال كل ما تطلب، بل إن الدنيا ليست مكاناً تنال فيه كل ما تطلب. والحال هي هي حتى إن لم تكن متديناً، فلا صلة للدين بهذا الموضوع.

أعظم ميزة فيك هي كونك مختاراً، فإنما أنت إنسان لأنك مختار!

القضية الأولى هي: «إنك تريد كل شيء». القضية الثانية هي: «لا يمكن نيل كل شيء في الحياة الدنيا». القضية الثالثة هي: «لماذا لا يمكن امتلاك كل شيء في الحياة الدنيا؟» الجواب: لأنك كائن مختار يقرّر مصيره. أتحب أن تكون كالملاك أو الحيوان لا يمكنه تحديد مصيره؟! أتود أن تكون مثل النبات؟! أتريد أن تكون كالشجرة مشدود القدمين إلى الأرض لا تستطيع الحراك؟! أتحب أن تكون كالحيوانات لا تُحسن غير بناء نمط واحد من الأوكار؟! إنك كائن يقرر مصيره. إن علينا أن نكرر دوماً على مسامع بعضنا البعض، وعلى مسامعنا نحن، ومسامع أبنائنا القول: «إنك كائن مختار، كائن يقرر مصيره». علينا أن لا ننفك نقول ذلك حتى يخاف فيصيح: «أي الأشياء أختار؟ هل أنا الآن أختار؟» أجل، إنك الآن تقوم بعملية اختيار. هذه أيضاً من الأشياء التي ينبغي أن نرددها بكثرة. قلّبوا الكتب المدرسية من الصف الأول حتى الثاني عشر وانظروا كم قد قيل فيها من هذا الكلام؟! كم مرة قيل فيها للطالب: إنك مختار، إنك مُقَرِّر، إنك تحدّد كل شيء؛ ليس في الدنيا فحسب، بل إلى أبد الآبدين حيث إنك ستحيا في الآخرة أيضاً، وإن جميع تفاصيل تلك الحياة أنت الذي تقرّرها.

إنـك مقـرِّر، إنـك مختـار؛ دنيـاك أنـت الـذي تختارهـا، آخرتُـك أنـت الـذي تتخيّرُهـا، وباسـتطاعتك أن تبلـغ مقـام «النفـس المرضيـة». إن أعظـم ميـزة فيـك هـي كونـك مختـاراً، وإنما أنـت «إنسـان» لكونـك مختـاراً. هـذا الـكلام أيضـاً يجـب أن يكـرَّر بكـثرة.

لو كان النبي(ص) قد بيّن للناس كل شيء وبكل وضوح لما بقي مجال لاختيارهم

يـوصي اللـه تعـالى نبيـه الكريـم(ص) أن إذا أردت تعريـف النـاس بالديـن فـلا توضـح لهـم وتنوّرهـم كثـيراً، لا تُظهِـر لهـم الآيـات جميعـاً، تحـدّث بـشيء مـن الضبابيـة. فلـو بالغـتَ في التوضيـح لما بقـي لهـم مجـال للاختيـار. بـلا شـك عليـك أن توضـح، لكـن قليـلاً، لا تتـمادَ في التوضيـح. يقـول اللـه عـز وجـل في كتابـه العزيـز لنبيـه الكريـم(ص): أنـا أعلـم أنـه يَعـزّ عليـك أن يضِـلّ النـاس، وإنـك لتـودّ لـو بالغـتَ بالتبيـين والتوضيـح، لكـن لا تضـع لهـم جميـع النقـاط عـلى الحـروف لأنـه لـن يبقـى أمامهـم مجـال للاختيـار: «وَإِنْ كانَ كَـبُرَ عَلَيْـكَ إِعْراضُهُـمْ فَـإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِـيَ نَفَقـاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُـلَّماً فِي السَّـماءِ فَتَأْتِيَهُـمْ بِآيَـةٍ وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَجَمَعَهُـمْ عَـلَى الْهُـدى فَـلا تَكُونَـنَّ مِـنَ الْجاهِلِـينَ» (الأنعـام/٣٥). هَـب أن إمـام مسـجدِ حيِّكُـم عـارف كامـل واصـل يمتلـك عينـاً برزخيـة وبإمكانه أن يـرى المسـتور ويُخبر بالمغيَّبـات؛ كأن يقـول لـك: «أتعلـم أن صاحـب الزمان(عـج) في الأمـس قـد سـجل اسـمك إذ شـاركتَ في المجلـس الحسـيني؟ ومـاذا قـال الإمـام الحسـين(ع) لولـده المهدي(عـج) عنك؟» يـشرح لـك بالتفصيل، ثم يقـول: لقـد حصـل كـذا بسـبب كـذا وكـذا ...الخ. هل سـتفرح لو أخـبرك بكل هـذا بمنتهى الشـفافية؟ أمِنَ الجميـل أن يخـبرك بهـذا؟ إن العـارف الواصـل لا يخـبر بهـذا عـلى الإطـلاق إلا اسـتثناءً. أتـدري لمـاذا؟ لأنه إن أخـبرك بهـذه الأمـور فسـتتوقف عـن الرُقّـي، إنـك سـتعيش أسـير التشـجيعات، وتفقـد حالـة الاختيار.

لا قيمة لفعل الخير إن فعلتَه إثر رؤية المعجزة فالخير هو أن تفعله باختيارك

لو أراد الله أن يداعب وجهك بنسيم الجنة كلما ذهبتَ إلى المجلس الحسيني فستذهب إليه كل يوم. وهل يصعُب على أبي عبد الله الحسين(ع) يا ترى أن يجعلك تشم رائحته أو رائحة الجنة؟! فلماذا لا يفعل(ع) هذا إذن؟ لكي تكون قد اخترتَ أنت. فلو أشمَّك الإمامُ الحسين(ع) رائحةَ الجنة لسَكَرْتَ مدى العمر وواظبتَ على فعال الخير، لكن لن يكون لأيّ من هذا قيمة. وقد رأينا كيف أخبر الله نبيه الكريم(ص) في الآية ٣٥ من سورة الأنعام أن: لا تُظهر جميع الآيات. لماذا؟ لأنك إن أرَيتَهم إياها لتوقفوا عن الاختيار. أود، لكي يُصغي أولادي إلى كلامي، أن أصنع بهم ليلةً ما يجعلهم يرون الجنة والنار في المنام، بل أن يذهبوا في رحلة إلى ذلك العالم ويعودوا، ثم أقول لهم صباحاً: «هل ستصغون الآن إلى كلامي؟» فيقولوا من فورهم: «أجل والله يا أبي سنصغي إليك...» لكن ما قيمة هذا الإصغاء؟ الله تعالى يُبقي الأمور غامضة لك لكي تختار أنت. إن للاختيار قيمة عظمى. ولكي تختار فإنه تعالى لا يريك المعجزات. الليلة حضرتَ المجلس الحسيني. واضح أنك إن لم تحضره ليلة غد فلن تنطبق السماء على الأرض، ولن يختلف الأمر كثيراً بحسب الظاهر. أيها الشباب! بل لو تركتُم الصلاة لن يحصل تغيير كبير! نعم قد تحصل بعض الأمور، لكن المُصلّين - ممن هم أكبر منك - هم من الكثرة بحيث...! - ما هذا القول منك يا شيخ؟! قل له: إن لم تُصَلِّ فتُصاب بالسرطان! - لكنه لن يصاب بالسرطان، لماذا عليَّ أن أكذب؟ بل لربما سمِنَ أيضاً! فليس لي عِلْم بخطط الله تعالى! إنه الاختيار الذي يكون ذا قيمة.

لأننا مختارون فيجب أن نعاني/ الاختيار الجيد لا بد وأن يُصحَب بالمعاناة

إنني مختار، ومُقرِّر لمصيري؛ أي إنني لستُ حيواناً، كما أنني لست ملاكاً أيضاً. ولأنني مختار فيجب أن أعاني، ولأنني مختار فلا يمكنني امتلاك كل شيء. الاختيار يكون بين بضع أشياء محبوبة، فلا يمكن أن يكون الاختيار بين شيء محبوب وآخر غير محبوب؛ فمن الواضح أنك لو خُيِّرتَ بين شيء تحبه وآخر لا تحبه فستختار الذي تحبه. إذن فإنك تتخلى عن إحدى الأشياء التي تحبها في كل مرة تختار.

فالاختيـار الجيـد يكـون دائمـاً مصحوبـاً بالمعانـاة. هـذه القضيـة يجـب أن تترسـخ في أذهاننـا منـذ الطفولـة، لأن الاختيـار الجيـد يعنـي التفريـط بـشيء تملكـه أو تحبـه. لقـد أعطـاك اللـه تعـالى عمـداً أشـياءَ لـكي تقايـضَ عنـد الاختيـار؛ أي أن تعطـي مـا تملـك وتأخـذ إزاءَه شـيئاً آخـر؛ فجلوسـك في الموكـب الحسـيني الآن يعنـي أنـك لا بـد أن تكـون فرطـتَ بتسـلية مـا أو باسـتراحة مـا.

متى يسقط الإنسان؟ يسقط حينما يريد الاحتفاظ بما يملك

لقـد وضـع اللـه تعـالى نبيـه آدم(ع) أمـام امتحـان في الجنـة فقـال لـه: لا تـأكل مـن ثمـرة هـذه الشـجرة. وكان آدم(ع) طالبـاً لـكل شيء (إنـه جدنـا الأكـبر وإننـا إنمـا ورثنا صفـة المطالبة بكل شيء منـه). فما كانت تلـك الشـجرة؟ قـال الشـيطان (لآدم): إن أكلـتَ مـن ثمـرة هـذه الشـجرة فلـن تفقـد أيّـاً مـما تملـك. وكان آدم(ع) يحـب أن يحتفـظ بـكل مـا يملـك، فـأكل منهـا. فقال اللـه تعالى لـه: ألم أقل لا تـأكل منهـا؟ أَخِفتَ أن آخـذَ منـك مـا تملـك؟ وهكـذا سـقط آدم(ع). متى يسـقط الإنسـان؟ يسـقط حينـما يريـد الاحتفاظ بما يملـك، ولهـذا لا يقايـض مـع اللـه جـلَّ وعـلا. ومتـى يسـقط المجتمـع؟ يسـقط عندمـا لا يدخـل في صفقـة مـع اللـه سـبحانه. وإن الإنسـان ليَشـقَى إذا أمسـكَ عـن الإنفـاق أو كان بخيـلاً شـحيح النفـس. وبعبـارة أدق: الإنسـان يشـقَى إذا تهـرّب مـن المعانـاة. الإنسـان يَتعَـس إذا خاف مـن الحرمان وانشـغل بجمع المال والـثروة. فـماذا نصنـع إذن؟ ليكـن قلبُـك قلب أسـد، الدنيا مـكان اختيار، والاختيـار يعني الأخـذ والعطاء.

لماذا لا ينمو الناس اقتصادياً؟

يقـول علـماء النفـس: العطـاء صعـب جـداً عـلى الإنسـان، الخسـارة شـاقّة جـداً عـلى الإنسـان. وقـد ظهـر مؤخَّـراً مزيـج مـن علـم النفـس والاقتصـاد يسـمى بـ»الاقتصـاد السـلوكي». التفِتـوا إلى أن مـا يقولـه هـؤلاء ليـس مـن الديـن. فلـو سـألنا خـبراء هـذا الحقـل مـن العلـم أن: لمـاذا لا ينمـو النـاس اقتصاديـاً؟ لأجابـوا بمـا قلنـاه في هـذا المجلـس بالضبـط. يقـول هـؤلاء: إننـا نـرى السـلعة التـي في أيدينـا ثمينـة، وحـين نريـد بيعَهـا نحـب أن نبيعهـا بثمـن باهـظ، ويصعـب علينـا جـداً أن نبيعهـا بثمـن رخيـص.

افترضوا أنني بعتُ ساعة بتسعين ألف تومان بدلاً من مائة ألف، واشتريتُ بهذه التسعين ألف تومان سلعةً أخرى قيمتُها الحقيقية تسعمائة ألف. فكم عليَّ أن أحزن على الصفقة الأولى؟ أحزن بمقدار عشرة آلاف تومان. وكم علي أن أفرح بالصفقة الثانية؟ أفرح بمقدار ثمانمائة ألف تومان. يقول علماء النفس: «إنّ ألَمَ تلك العشرة آلاف تومان أشدّ من فرحة هذه الثمانمائة ألف تومان، وهكذا لا يصبح معظمُ الناس أثرياء، ولا يتمكنون من مزاولة التجارة!» المثال الذي طرحتُه مثال واضح جداً على أن الناس مُمسِكون بُخلاء، متشبثون بممتلكاتهم تشبثاً فلا يتخلّون عنها. نقول للرجل منهم: «تصدّق في سبيل الله تعالى ليزيدك الله»، لكنه غير قادر على العطاء.

متى يسقط الناس؟ يسقطون حين لا يطيقون ألَمَ الفقدان

متى يسقط الناس؟ يسقطون حين لا يتحمّلون ألَمَ العطاء، ألَمَ التنازل، ألَمَ الفقدان. وكيف ينبغي أن نُنَشّئ أولادَنا؟ وأن نربّي أنفسنا؟ يجب أن نربيها على عدم الخوف من العطاء، وعلى تحمل ألم الفقدان. كان الإمام الصادق(ع) يحُث أصحابه على كثرة الاتّجار، فقد روي عنه قوله: «اتَّجِرُوا بَارَكَ اللهُ لَكُم» (الكافي/ ج٥/ ص١٤٩)، حتى وإن اشتريتم بثمن باهظ وبعتم بثمن أقل. لكن ما هو قصد الإمام(ع) من هذا الكلام؟ قصده أن البركة - في النهاية - في البيع والشراء، وإنك لتربح. يريد أن يربّينا، وأن لا نخاف من الاتجار وعقْد الصفقات. فقد تخسر في التجارة حيناً، وتربح حيناً.. لا تخف إن خسرتَ مرة أو مرتين. فلا بد للإنسان، من أجل وُلوج عالم الاقتصاد، أن يتمتع بروح كبيرة.

التفتيش عن الربح المضمون عمل قبيح

كان الإمام الصادق(ع) إذا حصل على مال يستثمره في تجارة فيها مجازَفة. فالتفتيش عن الربح المضمون عمل قبيح خلقَتْه المصارف في ثقافة مجتمعنا. لقد ارتكبت المصارف هذه الجريمة باسم المضاربة. أوَيجب أن تخلو المعاملة من الربا وحسب؟ إن ثقافة الأرباح المضمونة ثقافة قبيحة جداً تعزّز في الإنسان الخوف والجُبن في التجارة إلى أبعد الحدود، وهي أشبه بثقافة العِمَالة والعمل الوظيفي؛ فحين تكون قادراً على العمل لحسابك فلماذا تعمل موظّفاً أو عاملاً بأجرة عند الغير؟ أتخاف المجازفة؟ أتخشى الاتّجار؟ أقلتَ لنفسك: فليَصلْني راتب ثابت يسد الرمق على الأقل؟

لا تكن جباناً! اتّجِرْ أنت بمالك. الله يقول لك: «الرزق بيدي». إن تعاسة الإنسان في أنه يخشى المقايضة. لقد خاف جدنا آدم(ع) أن يفرّط بهذه الأشياء.. أراد تجميدها.. أراد إيداعَها في مصرِف الخلود، وهو ما أدى إلى هبوطه. على أنه تاب فيما بعد، ولأن الله رؤوف رحيم فقد تابَ عليه.

أخشى أن لا يظهر الإمام(ع) حتى نُمتحَن بالمواساة!

فلنسترجع ما قلناه مرة أخرى: بما أنك مختار فإنك غير قادر على امتلاك كل شيء في الدنيا، والاختيار يعني أن تتخلّى عن إحدى محبوباتك، أو أن تمنحها، أو أن تغض الطرف عنها؛ وفي كل هذا معاناة. فأن تكون إنساناً فهو يعني أن تختار وتعاني. فمَن الذي يكون أفضل في الاختيار؟ إنه الذي لا يخاف من العطاء والفقدان، إنه الذي لا يبخَل. (قد يقال لي): إذن موضوعك هو أن لا نبخل، وأن نكون كرماء مبسوطي اليد؟ (أقول): كلا، القضية ليست بهذه البساطة. فلأعرض عليكم تحليلاً خطيراً قبل أن أخبركم كيف ينجو الإنسان من الهلاك والتحفُّظ: أنا أحتمل أننا سنواجه امتحاناً «بالمواساة» قبل ظهور الإمام صاحب الزمان أرواحنا له الفداء. وما معنى المواساة؟ يعني: ليس من حقك أن تملك من المال أكثر من صاحبك.. لا يجوز لبيتك أن يكون أفضل من بيت أخيك المؤمن.. لا ينبغي لمائدتك أن تكون أكثر امتلاءً من مائدة أخيك المؤمن. إني لأخشى أننا إن لم نُمتحَن بالمواساة في آخر الزمان فلن يظهر الإمام(ع)! لأن الإمام الباقر(ع) كان قد قال لمن أتاه يسأله عن سبب عدم نهوضه بالأمر: «يَجِيءُ أَحَدُكُمْ إِلَى كِيسِ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ حَاجَتَهُ» دون إذْن منه؟.. ألا تستاؤون من ذلك؟ «فَقَالَ: لَا..» بل نستاء، العمل عمل والأخوّة أخوّة! فقال(ع): «..إِذَا قَامَ الْقَائِمُ.. أَتَى الرَّجُلُ إِلَى كِيسِ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ حَاجَتَهُ فَلَا يَمْنَعُهُ» (الاختصاص/ ص٢٤).

هل الإخوان في التعبئة (البسيج) هكذا؟ هل طلبة العلوم الدينية هكذا؟ هل رواد المواكب وأصحابها هكذا؟ ليت هذا التحليل خاطئ وأننا لن نمتحن بهذا الامتحان. لسان حالنا يقول: إن كنتَ تطلب النفس فقُل.. أنا مستعد لبذل النفس، فأنا طالب شهادة... لكن سيقال لنا: «لا نريد أخذ روحك، بل هاتِ مالَك!» - كلا، المال غير ممكن! نريد أن نعيش!

النبي الأعظم(ص) في صدر الإسلام امتحنَ الناس بالمواساة

أخشى أن تكون الحكمة من وراء أضرار الكورونا والمشاكل الاقتصادية التي نجمتْ عنها هي لاختبار مدى قابلية المؤمنين والولائيين على بلوغ حالة المواساة! إني لأدعو أن لا نتعرض لامتحان كهذا! لكن النبي الأعظم(ص) أجرى هذا الامتحان في صدر الإسلام إذ قال: «ليهاجر كلُّ مَن أسلمَ إلى يثرب». (وكأنهم قالوا): لكنّ بُنية يثرب التحتية غير مُعَدّة، ليس لنا فيها أراضٍ زراعية، ولا نملك منازل! (وكأن النبي(ص) أجاب): يجب أن تهاجروا، وإلا فلستم بمسلمين! فقَدِمَ مُسلمو مكة يثربَ واقتسم مؤمنو يثرب منازلهم بينهم؛ تنازلَ كلٌّ عن حُجرة من حُجرتَيه. أترانا أفضل من أصحاب النبي(ص) في صدر الإسلام؟! على أن أولئك ما إن نالوا متاعاً حتى أمسَكوا ثانية، فتركوا الزهراء(س) وحيدة بين الحائط والباب! فقالت الزهراء(س) لهم (بالمضمون): ماذا حصل فأخذتُم بالإمساك.. أخذتم بجمع المال، ولم تعودوا راغبين في بذل شيء في سبيل الله؟... سأبيّن في المحاضرة التالية، إن شاء الله، بعض ما يتصل بمنزلة البذل في الدين، وسنستعرض معاً مجموعة من الروايات لنتنبه من جديد إلى مواضيع من مثل الصدقة، والإنفاق، وإقراض القرض الحسن، والبذل، والعطاء، والمواساة، ...الخ. بالطبع هذه تمارين لمرحلة أعلى وهي المواساة.

كل مَن يبخَل في امتحان المواساة يسقط

إننا، في آخر الزمان، قد نواجه امتحان «المواساة»، وكل من يُمسك ويكون بخيلاً سيسقط فيه. فالتحفُّظ، وهو «خشية فقدان الشيء»، يُسقِط الإنسان. فماذا نصنع للنجاة من هذا السقوط؟ أولادكم، منذ نعومة أظفارهم، لا تُرَبّوهم على الإمساك. أرأيتم كيف صامَ أهل البيت(ع) مع أولادهم، وحين جاءهم مسكين، وأسير، ويتيم أعطوه إفطارهم الذي لم يكن غير رغيف خبز؟ هذا يُفصِح عن سلوك تربوي لتربيتك أنت على عدم الإمساك. قيل إن حادثة الإنفاق هذه حصلت في ليلة واحدة؛ ففي المرة الأولى أعطى أهل البيت(ع) جزءاً من الرغيف لمسكين. وحين هَمّوا بتناول الباقي طرقَ البابَ يتيم فأعطوه جزءاً آخر منه. وفي المرة الثالثة أعطوا الجزء المتبقي لأسير. هنا يوسوِس للمرء أيّما وسوسة فيقول: «لقد أعطينا نصف الرغيف، فدعونا نأكل هذه الكِسرَة نحن!» على أن أهل البيت(ع) كانوا قد سَمَوا إلى ما فوق المواساة، كانوا قد بلغوا «الإيثار». في امتحان الدفاع المقدس كان قد طُلب من بعضنا بذل «النفس» وقد مَرَّ ذاك الامتحان والحمد لله،

فقد بذل بعضُنا الأرواح واجتزنا جميعاً بسلام. أما امتحان المواساة فيُستبعَد أن نتمكّن جميعاً من اجتيازه بهذه البساطة! «الجهاد بالمال» في القرآن الكريم جاء دائماً مقدَّماً على «الجهاد بالنفس». لقد جاهد الشهداء بالأنفس فبذلوها. على أنهم جاهدوا أيضاً بالمال بصورة رائعة، ويمكنكم قراءة ذلك في مذكّراتهم. لقد كان الدفاع المقدس، بكل عظمته، ساحة للجهاد بالأنفس. أما المرحلة الأخيرة، المُقبلين عليها نحن، فهي أوان الجهاد بالأموال. وبعد هذه المرحلة الشديدة سيظهر صاحب الزمان(عج) إن شاء الله، بحسب ما روي عن الإمام الباقر(ع). أنا شخصياً أعترف بأن هذا الأمر صعب جداً. علينا أن نستعين بالله تعالى، فنقول له: إلهي، لا تضعنا أمام امتحان صعب، بل يسّر علينا امتحاننا، وأعِنّا عليه!

كيف يسقط المجتمع ويتحوّل إلى مجتمع مجرم؟

في زمنٍ من الأزمنة كان الإمام الحسن المجتبى(ع) يمُدّ الموائد في المدينة المنورة ويُطعم الطعام، وقد لا يكون امرؤٌ زارَ المدينة في ذلك الزمن إلا وأكل في بيت الإمام الحسن(ع). فاختبرَ الله تعالى أهل المدينة؛ إذ أمطرَ نفرٌ من الأدنياء جثمان الإمام(ع) الطاهر بالنبال أثناء تشييعه، فلم يقُل أهل المدينة لهم: «أيها الأدنياء، لا ترمُوه...» وقد تحوّل هؤلاء أنفسهم، فيما بعد، إلى قتَلة قطّعوا أجساد أبناء الإمام الحسن والحسين(ع) إرباً إرباً. هكذا يسقط الإنسان، وهكذا تشقَى الأمة. ما من يتيم في المدينة المنورة إلا وأكل الخبز والتمر من يد الإمام الحسن والإمام الحسين(ع). ثم هل رأيتم ماذا صنع القوم؟ فلا نكونَنّ نحن مثل أولئك! لقد كبرنا على مائدة هذه السلالة الطاهرة. فلا نقصّرن إذا انقلبَت الأمور عليهم! فإننا إن قصّرنا في حقهم يسخط الله علينا ونتحوّل إلى مجرمين. أشكرك يا إمامي يا حسين(ع) إذ إنك تجتذبنا باستمرار إلى مجلس عزائك، وتجعلنا مَدينين لزادك وملحك، وتُعوِّدنا عليك فنأنس بك.. إنك تصنع بنا ما يُخجِلنا فلا نستطيع أبداً أن نقف في وجه الإمام المهدي(ع). فما إن يعرّف نفسَه بـ«أنني ابن الحسين بن علي(ع)» حتى نترك دنيانا جانباً ونلحق به. يا إمامي يا حسين(ع)، إنك تربّينا بصنيعك هذا، تُكبّرنا على مائدتك. فإن أمرَ صاحب الزمان(عج) في الغد أمراً فلن نجرُؤ أبداً على عصيانه. تَمثَّل (أيها الشاب) بقول عبد الله بن الحسن، يتيم الحسن المجتبى(ع)، فحتى لو رأيتَ إمامك الحسين(ع) في المصرع فصِحْ: «والله لا أفارق عمي»...

يقوم بعض الخواص والساسة مقام "مِفَكّ البراغي!" لسلطة إمام الأمة

يقوم بعض نُخب المجتمع والخواص والساسة، مقام «مِفَك البراغي!» أي يقومون بدور المُضعِف لسلطة إمام الأمة. فانظروا كم «مِفَك براغٍ» لدينا الآن في زماننا؟ ولأذكر لكم مثالًا. أول شهيدِ الاغتيالات في الجمهورية الإسلامية كان «الشهيد المشير قَرَني» من الجيش؛ أي إن الجيش كان قد قدم أول شهداء الاغتيالات، وهذا فَخر أبدي للجيش وكل أفراده. لكن ما الذي جعل الشهيد المشير قَرَني على هذه الدرجة من الغُربة في أيامنا هذه بحيث إن أغلب شبابنا غير مُطّلع على هذا الموضوع؟ السبب هو إن الماكنة الإعلامية في هذا البلد، ولمدة أربعين عامًا، كانت في الغالب في قبضة المتغرّبين والليبراليين الكثيري الصخب والدعاوَى، وأمثال هؤلاء لا يُسَرّون أبدًا بأن ترفعوا من شأن الشهيد قَرَني. لقد أرغمَ التيارُ الليبرالي المتغرّب الشهيدَ قَرَني، الذي كان قائد أركان الجيش في حينها، على الاستقالة، وألزَمَه السيدُ بازركان منزلَه، خلافًا لتوجيهات الإمام الراحل(ره)، ثم تم اغتياله بعد استقالته! وكان، رحمَه الله، أول من اغتيل وسُقي كأس الشهادة على يد «المنافقين» (زمرة «مجاهدي خلق!»). كان السيد بازركان يقول في زمرة مجاهدي خلق: «إنهم أبنائي!» والإمام الراحل(ره) أيضًا قال: «هؤلاء الإرهابيون هم أبناء السيد بازركان». والآن نشاهد اسم الأب الروحي لقاتلي الشهيد العزيز قَرَني، أي المرحوم بازركان، يُكتَب على جدران العاصمة طهران! أي إن مجلس محافظة طهران قرّر أن يسمي أحد شوارع طهران باسم «بازركان». فلتدَعوا وصمة العار هذه تعلو جباه المتغرّبين إلى الأبد!

بازركان، أنموذج المُضْعِف لولاية الفقيه

لماذا أنا أضرب من حركة «نهضت آزادي» (نهضة الحرية) وبازركان مثلًا؟ لأني أريد أن أبيّن من خلال ذلك النمط الأنيق والمرتَّب جدًّا للعامل المُضْعِف للولاية والثورة. ولأن بازركان هو النموذج البارز للعامل المُضعِف لولاية الفقيه في زمان الإمام الراحل(ره)، واليوم أنتم تشاهدون بأُمّ أعينكم الذين يُقَوّون هذا العامل المُضعف للولاية. الإمام الخميني(ره) كان قد كتب إلى وزير الداخلية في حينه حول «نهضت آزادي» (أي حزب السيد بازركان) ما نصه: «هناك حول ما يسمى بـ»نهضت آزادي» مواضيع جمة تتطلب مناقشتها ساعات مطوّلة. لكن ما ينبغي قوله من باب الإجمال: إن ملف هذه الحركة وأداءها إبان الحكومة المؤقتة في أوائل عهد انتصار الثورة يُثبت أن هذه الحركة هي من الأنصار الأشدّاء لتبعية دولة إيران لأمريكا، وهي لم تَألُ جهدًا في هذا المجال... إن حركة «نهضت آزادي» ليست مؤهَّلة لأي دور تنفيذي، أو تشريعي، أو قضائي، وإن ضررها – على اعتبار تظاهرها بالإسلام، وأنها ستعمل عبر هذا السلاح على حَرْف شبابنا الأعزة، وما يمكن أن تتسبب به من فساد كبير من خلال تدخّلاتها السلبية في تفسير القرآن الكريم والسُنّة الشريفة وتقديم التأويلات التي تنم عن جهل – إن ضررها أفدح من ضرر الزُمَر الأخرى، بما في ذلك زمرة المنافقين، الأبناء المحبوبون للمهندس بازركان» («صحيفه امام» (صحيفة الإمام/ ج٢٠/ ص٤٨١). لاحظوا أن الإمام الراحل(ره) كان يأبى أن يقول: «نهضت آزادي» (نهضة الحرية)، بل يقول: «ما يسمى بنهضة الحرية»، لأنها – في واقع الأمر – كانت نهضة العبودية، لا الحرية!

لقد أودى مُضعِفو الولاية بالأمور إلى جعل الناس يقتلون الإمام الحسين(ع)/ نحن لا نريد أن نكون من مُضعفي الولاية

وليّ الأمة هو في قمة النجابة، ونجابته هذه هي أحد أسرار ظلامته. لقد أَودَى مُضْعِفو الولاية على مدى التاريخ بالأمور إلى جعل الناس يُقْدِمون هم على قتل الإمام الحسين(ع)! ونحن لا نريد أن نكون في عداد مُضعِفي الولاية. يقول الإمام الراحل(ره): «إن ضرر نهضة الحرية هو أشد من ضرر زمرة المنافقين الإرهابية»؛ أي أولئك الإرهابيون الذين قتلوا سبعة عشر ألفًا من أفراد الشعب. بعد اغتيال الشهيد المشير قَرَني (أعلى الله مقامه الشريف) أرادوا دفن جثمانه في مقبرة «بهشت زهرا» (جنة الزهراء (س))، فقال سماحة الإمام الراحل(ره): خذوه إلى مدينة قم وادفنوه عند مرقد السيدة فاطمة المعصومة(س) بجوار سماحة آية الله الحائري(ره)، مؤسس الحوزة العلمية بقم المقدسة. لقد كان عسكريًا عظيمًا. ينبغي لهؤلاء الشباب جميعًا أن يعرفوا المشير قَرَني. لماذا لا يُذكَر اسمه في المناهج الدراسية؟! كان الشهيد قَرَني الرجل العظيم الذي صانَ الثكنات العسكرية في أوائل أيام انتصار الثورة. وكان حبيس السجون لبضع سنين قبل انتصارها. وهناك أقوال بأن خطة اغتيال سماحة الإمام الخميني(ره) في النجف الأشرف - والتي تم رسمُها في أنظمة الجيش أيام الحكم الطاغوتي - كانت قد كُشِفَت وأُجهِضَت بمساعدته. وكان هو من حَشَد العسكريين وحثهم على الصمود بعد انتصار الثورة بوصفه إنسانًا وطنيًا. لماذا المشير قَرَني غير معروف إلا لنسبة ضئيلة من شبابنا؟ أيها الأصدقاء، يا من تثمّنون جهود الحاج قاسم سليماني كل هذا التثمين، لا تنسوا المشير قَرَني، فهو العزيز الغالي على قلوبنا.

فضح خيانة حكومة بازركان في كتاب استقالة الشهيد المشير قَرَني

كان الشهيد قَرَني قد كتب كتاب استقالة، إلا أن الإمام الراحل(ره) طلب إليه البقاء في منصبه. فدعاه السيد بازركان بعد بضعة أيام وقال له: «لقد تمت الموافقة على استقالتك». ومن بعد أن أصبح جليس الدار، قتلوه! جاء في كتاب استقالة الشهيد قرني: «على وتيرة يومية يُصدر نائب رئيس وزراء الثورة، الذي يرى نفسه المشرّع للقوانين والمالك للرقاب، ودونما التفات منه إلى مكانة الجيش وتجهيزاته، بل ومن دون مشاورتي أيضًا مع الأسف - يُصدر توجيهات تؤدي كل حين إلى ضربات مُوجِعة لمعنويات الضباط ووقوع كميات من السلاح والعتاد والأموال في أيدي الفاسدين والمرتبطين بالأجانب. إن وزير الدفاع يعمد - من دون التشاور معي وفي ما هو خارج عن نطاق صلاحياته - إلى التصريح بشكل غير مسؤول أمام الإذاعة والتلفزيون والصحافة من أن: الجنود في شهر فروردين [رأس السنة الشمسية] في إجازة! فتَترك تلك القلة القليلة من الجند، التي عمل الجيش بشق الأنفس على الاحتفاظ بها في الثكنات العسكرية – تَترك مواقعها في حراسة الثكنات عائدة إلى منازلها، وتتسلل تحت جنح الظلام عناصرُ من حزب «تُودَة»، المرتبطة بالسياسات الأجنبية، بشاحناتها إلى الثكنات فتشحن ما بقي فيها من الأسلحة والعتاد إلى خارج المدن. وهذا هو ما دعاني إلى الاستقالة». أي كانت الحكومة المؤقتة تعلن العطلة في الثكنات، ليتركها الجنود، فتأتي عناصر مرتبطة بحزب «تودة» لتشحن ما فيها من أسلحة وعتاد بالشاحنات وتأخذها إلى أماكن مجهولة! ويتابع الشهيد قرني في كتاب استقالته: «من دون استشارة قيادة الجيش وأعلى مرجع لتقييم الأوضاع في محافظة كردستان أرسلَت الحكومة وفدًا من المندوبين إلى المحافظة، حيث لدى وصولهم إليها وبعد أول إشاعات أطلقوها، دفعوا الأهالي إلى مداهمة ثكنة مهاباد العسكرية ونهبها، وإمطار قائد الثكنة بالرصاص أمام أنظار الوفد المذكور!» كان هذا الوفد المفاوض مرسَلًا من السيد بازركان للتفاوض مع الإرهابيين. فاشترط الأخيرون أن: «ليتم إخلاء الثكنة كي نتفاوض معكم». فطلب الوفد إلى آمر الثكنة إخلاءها. لكن الإرهابيين أَقدَموا بكل بساطة، بعد إخلاء الثكنة، على اختطاف آمِرها! ولدى وصول وفد الحكومة المؤقتة المفاوض قتلوا آمر الثكنة رميًا بالرصاص أمام الوفد! يقول الشهيد قرني: «هذه هي مواجعي...!» وإني لأطالب رئيس مجلس المحافظة أن يطالع تقارير والده وكتاباته حول خيانات بازركان.

الدور الرابع للإمام في خطاب الإنفاق هو تحديد مجالات الإنفاق وكونه صاحب السلطة على الأموال

وما هو الدور الآخر للإمام في موضوع الإنفاق؟ دوره الآخر هو أنه هو الذي يحدد مجال إنفاق الأموال وصرفها. بعد معركة حُنَين وحين أمر رسول الله(ص) بإعطاء أهل مكة الحظ الأوفر من الغنائم لأنهم جديدُو العهد بالإسلام، قال له حرقوص بن الزهير: «اِعدِلْ يا رسول الله»، فقد كان معارضًا لطريقة تقسيم الغنائم، وهذا أحد مواطن الامتحان. الامتحان الآخر هو أن الولي هو صاحب السلطة على أموال الناس، وأنه ينبغي أن يأخذ بعضَها لنفسه. لقد جاء الأمر إلى النبي الأعظم(ص) من الله عز وجل أن يهَبَ الأموال التي وقعت في يد المسلمين من دون قتال لفاطمة الزهراء(س)، فكان أن وهبها فَدَكًا. وأول ما حدث بعد رحيل رسول الله(ص) هو أنهم أخرجوا عُمّال السيدة الزهراء(س) من فدك واستولوا عليها. وعلى خلفية ذلك ضُرِبَت الزهراء(س) وحدث كل ما قد سمعتم به! وحين طالبت الزهراء(س) بفدك كان ردهم في بادئ الأمر أن: «النبي لا يُوَرِّث». وحين أثبتت(س) أن كلامهم لا أساس له من الصحة قالوا: «لقد جعلنا فدك من بيت المال لتُوزَّع على الناس، فما شأنُكِ ببيت المال؟! إنْ كنتِ تريدين بستانًا أعطيتكِ أنا واحدًا!» فتوجّهت الزهراء(س) إلى الناس مبيّنة لهم أنه يغصبُها حقَّها. لكن حق فاطمة الزهراء(س) كان قد قُسِّم وكان ينزل في بطون أولئك الناس جميعًا، فطأطؤوا رؤوسَهم. خاطبَتهم، سلام الله عليها، (بما مضمونه): أيها الناس، إني ابنة نبيكم، ولقد عاهدتموه أن تصونوا ابنتَه من بعده...! بهذه البساطة ترك الناسُ فاطمة الزهراء(س) وأمير المؤمنين(ع) غريبَين، بما وجدوا من ذريعة جيدة! وبعد عودتها إلى الدار قالت للإمام علي(ع): «لَيتَني مِتُّ» ولم أشاهد هذه المشاهد! أوَتكون فاطمة الزهراء(س) قد استُشهِدَت لأمر تافه؟ أهو موضوع بسيط يا ترى؟ أتدرون من هي الصِدّيقة الكبرى(س)؟ لقد قالت(س) بخصوص هذا الأمر: «لَيتَني مِتُّ»...! ففدَك إذن موضوع مهم. ألا يرتبط موضوع فدك بالشُحّ والإنفاق؟ ألم يكن الناس يدركون لماذا ينبغي لهذه الأموال أن تكون مِلكًا لابنة رسول الله(ص)؟!

مباشرةً بعد رحيل رسول الله(ص) اختُبِر الناس ببُخلهم مع فاطمة(س)

ليت الأئمة والأنبياء لم يتدخلوا في الشؤون المالية! فالرَدّ صعب! إننا إلى الآن لا نستطيع ذِكْر مصيبة فدك براحة بال! إلهي، أي امتحان هذا الذي أخضَعتَ الناسَ له؟! أخالفوا علي بن أبي طالب(ع) بعد وفاة النبي(ص) مباشرةً؟ الأسباب لمخالفتهم لعلي بن أبي طالب(ع) متشعّبة! ظَلَّ الإمام علي(ع) جليس الدار.. انتهت قضية عليّ(ع).. فانتفضت فاطمة الزهراء(س) منادية: أعطوني فدك! فماذا كانت مشكلتهم مع فاطمة(س)؟ ما الذي صنَعَتْه(س)؟ أكانت قضيتها مالية؟ القضية أعقد بكثير من هذا. مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم(ص) اختُبِرَ الناس ببخلهم مع الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء(س)! أتفقهون ما معنى هذا؟ يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى» (الأنفال/٤١). أنصحكم أن لا تترجموا هذه الآية مَرَّةً أمام أحد! فلقد ألّفَ بعضُ «المثقفين!!» كتبًا في هذا المجال!!...

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق؟/ لا بد للإمام من قدرة مالية

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق (بذل النفس، إنفاق المال)؟ دعوني أتلوا عليكم واحدة من بضع آيات قرآنية في هذا المحال: «مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثيرَةً» (البقرة/٢٤٥)؛ يُقرِضُه (أي ينفق) من الأموال التي أعطاه هو (الله) له. هكذا يقول الإمام الصادق(ع)، في ما روي عنه، في تفسيره لهذه الآية: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِخْرَاجِ الدَّرَاهِمِ إِلَى الإِمَامِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَجْعَلُ لَهُ الدِّرْهَمَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ» ثم قال «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً». قَالَ(ع): «هُوَ وَاللهِ فِي صِلَةِ الْإِمَامِ خَاصَّةً» (الكافي/ ج١/ ص٥٣٧)؛ أي إنه أقسم على أن هذه الآية نزلت خاصّةً في دفع الأموال للإمام. أين يقف الإمام من موضوع الإنفاق؟ يروى عن الإمام الصادق(ع) قوله: «دِرْهَمٌ يُوصَلُ بِهِ الْإِمَامُ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ يُنْفَقُ فِي غَيْرِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٧٣). فانظر حينئذ كم ستكون القدرة المالية للإمام؟

يقول تعالى في موضع آخر: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكينِ وَابْنِ السَّبيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُم» (الحشر/٧)؛ أي: إن ما يُعيدُه الله تعالى من أهل القرى إلى رسوله(ص) هو ملك لله ولرسوله ولأقرباء رسوله واليتامى والمساكين والمسافر المُنقطِع (الذي يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلّغ به) كي لا يتناقَل أغنياؤُكم هذه الأموال الضخمة فيما بينهم. فلا بد أن تكون للإمام قدرة مالية.

ماذا نصنع لننجح مع الولي الفقيه في امتحان الولاية فنتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص في ما يتصل بالإمامة؟

أتحبون أن يظهر صاحب الزمان(عج) ويحكم العدلُ الأرضَ؟ تعالوا إذن نجتاز بنجاح امتحان الولاية – الذي نعيش الآن مرحلة ولاية الفقيه منه – ونتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص وخلل في ما يخص الإمامة: أولًا: كم قد نفَذَتْ ولاية الفقيه في أعماقك، وتغلغلت في حياتك الشخصية وفي نمط حياتك اليومي؟ دع العالَم كله يقول ما يشاء، واجعل نمط حياتك التالي: قُل مثلًا: أنا أَتزوَّج لأن السيد القائد (الإمام الخامنئي) أوصى بذلك، أنا أُنجب أطفالًا أكثر لأن السيد القائد أوصى بذلك، أنا أمتنع عن شراء سلعة كذا الأجنبية لأن السيد القائد أوصى بذلك... ثانيًا أن نعمل على ترسيخ نفوذ الولي الفقيه في نفوس أفراد المجتمع. كيف؟ بأن نوضح وظيفة وأداء الولي الفقيه في الأمة. ذات يوم سأل طالب جامعي الإمام الخامنئي: ما البأس في أن يوجَّه إليك الانتقاد؟ فأجابه سماحة السيد القائد، بعد أن أوضح له أنه لا بأس في الانتقاد، وأن هناك الكثير ممن يتكلم وينتقد: «إذا كان الانتقاد بمعنى الانتقاص... أيُّ حُسْن ثمة في انتقاص القائد؟ أمن المصلحة أن يقف شخص أمام القائد ويتفوه ضده ببذيء الكلام، وهو الذي من المفترض - بحسب نظام الجمهورية الإسلامية - أن تكون إشارة واحدة من إصبعه كافية، في أحلك الظروف، لدفع الشعب إلى التضحية بالأنفس؟!» (في جلسة أسئلة وردود مع مسؤولي وأمناء المطبوعات الطلابية في ١٩٩٩/٢/٢٣). رد في منتهى البساطة والعقلانية والوضوح.

يـا أمـير المؤمنـين، لقـد كـسروا ظهـرك وجرحـوا قلبـك في قضيـة الغـارات في الشـام نفسـها فـصرتَ تنحنـي في البـئر مناديًـا! يـا أمـير المؤمنـين، لقـد أغـار الدواعـش في زماننـا هـذا، وفي الشـام نفسـها، فأُحبطـت غاراتهـم بإشـارة مـن الـولي الفقيـه عـلى يـد أمثـال الجـنرال سـليماني، والشـهداء حُجَجـي، وهمـداني، وخوشـنويس! أرأيـتَ سـيدي مـا سـطروا مـن بطـولات؟! هـذا ولم يأمـر السـيد القائـد حفظـه ولا مـرة بـأن: «توجّهـوا للقتـال!» ففـي زمـان الحـرب كان الإمـام الراحـل(ره) قـد دعـى بضـع مـرات إلى التوجـه إلى الجبهـات، أمـا في زمـن الـذود عـن الحـرَم والمقدسـات فلـم يَـدعُ السـيد القائـد لذلـك ولا مـرة! وهـذه تباشـير قـرب الظهـور. ثالثًـا: يجـب أن تقفـوا بـكل قـوة في وجـه نُخـب المجتمـع والخـواص والساسـة الذيـن يقومـون مقـام «مِفَـك البراغـي» تجـاه قـدرة الـولي وقوتـه لإضعافهـا، ولا تدعـوا أحـدًا منهـم يجـرؤ عـلى الدنُـو قيـد شـعرة مـن مقـام الـولي وحريمـه وحرمتـه.

إن جانبًا من عظمة عاشوراء هو رهنُ روعة التولّي

لقـد بلـغ الأمـر ليلـة العـاشر مـن المحـرم أن قالـت العقيلـة زينـب(س) لأبي عبـد اللـه الحسـين(ع): هـل أنـت مطْمَـئِن مـن أصحابـك؟ «هَـل اسـتَعلَمتَ مِـن أَصحابِـكَ نِيّاتِهِـم؟» ما معنى هـذا السـؤال؟ أي: أأنتَ واثـق مـن أنهـم غـدًا لـن يخذلوك ويـذروك وحيدًا؛ «فَـإِنّي أَخـشَى أَن يُسْـلِمُوك عِنـدَ الوَثبَـة!» فزينب(س) تذكـر خيانـة أصحـاب أبيهـا أمـير المؤمنـين وأخيهـا الحسـن المجتبـى(ع) لهـما. يـا حبيبـي يـا حسـين! أخـشى أن يغـدر بـك أصحابُـك غـدا فتذهـب ملحمتُـك العظيمـة أدراج الريـاح! فإنهـم الخـواص الدنيئين الوضيعـين الذيـن كانـوا مع الإمام الحسـن(ع) وأرادوا أن يُسْـلِموه(ع) هكذا إلى عـدوه! أعادت زينب(س) السـؤال: أأنـت واثـق مـن أصحابـك؟ فقـال لهـا الحسـين(ع): أجـل يـا زينـب، اطمَئِنّـي، إنني واثـق منهم؛ «واللـه لقـد بَلوتُهُـم فَـمَا وَجَـدتُ فيهم إلّا الأَشـوَسَ الأَقعَـسَ يَستَأنِسـونَ بِالمَنِيَّـةِ دُوني استِئناسَ الطِّفلِ إِلَى مَحالِـبِ أُمِّـه» (مقتـل الحسـين للمُقَـرّم/ ص٢٢٦). إن جانبًـا مـن عظمـة عاشـوراء هـو رهـن روعـة التولّي والتمسـك بالولايـة هـذا، التـولّي عنـد الأصحـاب الذيـن كانـوا يتبـارَون للاستشـهاد في سـبيل مولاهـم!....

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة6)

الزمان: 05/محرم الحرام/1442 - 25/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

المجتمع الذي تُفتقد فيه المواساة يُوصِله الفكرُ الليبرالي إلى الحضيض/ لا يُبسط العدل في مجتمع أفراده أَشِحَّة/ يهبط البعض بالمواساة إلى مستوى الصدقة، ولكنها أعلى من ذلك

علينا أن نخصص جزءًا من وقتنا "لمواجهة مكر أنفسنا"

لا بـد أنكـم ملتفتـون إلى أن الإنسـان كائـن في غايـة التعقيـد، وبـارع في التسـويغ [لأفعالـه]، ولـه نفـس ماكـرة، وهـو يسـعى عـلى الـدوام لخـداع ذاتـه أو غـيره عـن وعـي أو غـير وعـي. وإن عـلى كل امـرئ أن يخصـص وقتًـا مـن حياتـه لمواجهـة مكـر نفسـه. فـلا أحـد في مأمـن مـن نفسـه الأمّـارة بالسـوء، فهنـاك مسـوغات جيـدة للكثـير مـن مسـاوئ النـاس وإنهـم ليُخفـون مسـاوئهم حتـى عـن أنفسـهم. وإن معرفـة النفـس هـي عـلى جانـب مـن التعقيـد والصعوبـة والقيمـة حتـى عُـدَّت مسـاوية لمعرفـة اللـه عـز وجـل: «مَـنْ عَـرَفَ نَفْسَـهُ فَقَـدْ عَـرَفَ رَبَّـه» (غـرر الحكـم/ ص٥٨٨).

"محاسبة النفس" و"الاستغفار والتضرع" سبيلان مهمتان لمعرفة النفس ومَكرها

علينـا أن نبالـغ في محاسـبة أنفسـنا. فـإن مـما رُوي عـن أهـل البيـت(ع) هـو قولهـم: «لَيْـسَ مِنَّـا مَـنْ لَـمْ يُحَاسِـبْ نَفْسَـهُ فِي كُلِّ يَـوْم» (الـكافي/ ج٢/ ص٤٥٣). وأضـأل قسـم مـن محاسـبة النفـس هـو سـؤالنا أنفسَـنا: «مـاذا فعلـتُ؟» لكـن القسـم الأهـم جـدًا منـه، والـذي لا يتسـنى للمـرء أن يجيـب عليـه بهـذه البسـاطة، هـو: «لمـاذا فعلـتُ مـا فعلـتُ؟» وإن محاسـبة النفـس هـي إحـدى السـبل لمعرفـة النفـس والوقـوف عـلى مكرهـا. والسـبيل الأخـرى لذلـك هـي الاسـتغفار والتـضرع المتواصلَـين. أقولهـا بـكل بسـاطة ومـن دون أدنى تكلـف: لقـد أوصونـا بـأن نقـف عـلى أعتـاب ربنـا في الأسـحار قائلـين ثلاثمائـة مـرة: إلهـي، لقـد ارتكبـت حماقـة؛ إلهـي، «العفـو...». ويتبـادر إلى أذهـان الكثيريـن الاسـتفهام القائـل: «ومـا الـذي صنعتُـه يـا تـرى [لأسـأل اللـه كل هـذا العفـو]؟» فلنفـرض أن جميـع أفعـالي كانـت بذيئـة، لكـن هـل ارتكبـتُ ثلاثمائـة خطيئـة [في اليـوم الواحـد] يـا تـرى لـكي أسـأل اللـه كل هـذا «العفـو»؟ عليـك أن تفتـش عـن أنـه: مـا السـبب الـذي جعلَهـم(ع) يوصوننـا بهـذا؟ رُوي عـن رسـول اللـه(ص) أنـه كان يسـتغفر اللـه تعـالى مائـة مـرة في اليـوم والليلـة عـلى الأقـل؛ «إِنَّـهُ لَيُغَـانُ عَـلَى قَلْبِـي حَتَّـى أَسْـتَغْفِرُ فِي الْيَـوْمِ مِائَـةَ مَـرَّةٍ» (جامـع الأخبـار/ ص٥٧).

علـى كل شـخص، وإن لم يعـثر في أعمالـه عـلى معصيـة، أن يخصـص في منهاجـه وقتًـا يتوجـه فيـه إلى ربـه بالاسـتغفار، فيخاطبـه: «إلهـي، لقـد ارتكبـتُ حماقـة!» فيتبـادر إلى ذهنـه تسـاؤل مـن أنـه: «ومـاذا صنعـتُ كي أعتـذر؟!» وهـذا التسـاؤل هـو بدايـة طريـق معرفـة النفـس واتّقـاء مكرهـا.

في وسع الإنسان أن يفعل الخير انطلاقًا من دوافعه وصفاته السيئة

بطبيعـة الحـال لا الديـن مُعقّـد ولا المعرفـة الدينيـة معقـدة. فمتـى مـا رأيـت الديـن قـد تعقَّـد وصـار بحاجـة إلى تبـادل الـكلام والحـوار فاعلـم أن االتعقيـد مـن الإنسـان نفسـه. ففـي وسـع البـشر أن يأتـوا بفعـال خـيّرة انطلاقًـا مـن دوافعهـم وصفاتهـم السـيئة؛ كأن يعطـوا الأولويـة لأفعـالِ خـيرٍ ليـس لهـا الأولويـة ويُعفـوا أنفُسَـهم مـن غيرهـا بالقـول: «لقـد قمـتُ بعمـل خـيّر!» في حـين أنهـم قـد تركـوا فعـل خـيرٍ لـه الأولويـة لصعوبتـه عليهـم. إن باسـتطاعة الإنسـان التلاعـب بـأي مفهـوم دينـي. فأكـثر مفاهيـم الديـن أهميـة هـو مفهـوم الولايـة والولائيـة، أو - عـلى رأي بعـض التوحيديـين المتطرفـين - مفهـوم التوحيـد؛ ألم يفصـل التكفيريـون والوهابيـون رؤوس الأبريـاء عـن أجسـادهم باسـم التوحيـد؟! ولنتنـاول الولايـة؛ أليـس ثمـة في آخـر الزمـان مـن الولائيـين ممـن سـيتخذ الولائيـة هـذه أداة بيـد أهوائـه فيقـف بوجـه الـولي؟ أوَلَـم يقـل الإمـام الرضـا(ع): «إِنَّ مِمَّـنْ يَنْتَحِـلُ مَوَدَّتَنَـا أَهْـلَ الْبَيْـتِ مَـنْ هُـوَ أَشَـدُّ فِتْنَـةً عَـلَى شِـيعَتِنَا مِـنَ الدَّجَّـال؟!» (وسـائل الشـيعة/ ج١٦/ ص١٧٩). ألا وإن الأخـلاق ليسـت بالـشيء السـيّئ، لكـن البعـض يتخذهـا مستمسَـكًا للخـروج عـلى الديـن. كـما يتمسـك غيرهـم بالعـدل فيحـارب التقـوى والولايـة ومفاهيـم أخـرى. وهـل تـلاوة القـرآن شيء سـيّئ؟ وأي شيء عندنـا أعـز مـن القـرآن الكريـم؟ لكنـه جـاء في الخـبر أنـه: «رُبَّ تَـالٍ لِلْقُـرْآنِ وَالْقُـرْآنُ يَلْعَنُـه» (وسـائل الشـيعة/ ج٤/ ص٢٤٩).

علينا أن نحدد تكليفنا في أنّ الوقتَ الحالي هو أوانُ إنجازِ أي عمل صالح؟

النفس الإنسانية ماكرة. وطالما بقي هذا التعقيد في روح الإنسان فلن تذر الامتحاناتُ الإلهية النـاسَ حتى تُمَحّصهم وتعرف صدقهم. فعلى المرء في أي عمل خيِّر يهُمُّ بفعله أو قولٍ صالح يريد قوله أن يرجع إلى نفسه، ويلقي نظرة، ويقلّب الأمرَ ظهرًا لبطن؛ من جهة الدافع من وراء هذا المفهوم الخيّر، وأسلوب ارتباطه به، ولوازمه؛ فينظر إن كان قد راعى لوازمه أم لم يراعها؟ كي لا يتحول هذا العمل الصالح إلى مصدر لتحقيق الربح لنفسه! الإنسان كائن معقد. وإن من دواعي مثل هذه الحوارات والنقاشات والتأملات وإقامة مثل هذه المجالس - التي هي مجالس فكر - هو الوقوف أمام خداع النفس ليعرف المرء الوقت المناسب للقيام بكل عمل خيّر، وهذا أمر في منتهى الأهمية. ذات مرة كان أحدهم متحيّرًا بين بضعة أمور ويقول: من أين لي أن أعرف ما هو تكليفي الآن؟ قلت له: إنك تطرح أكبر معضلة يواجهها كبار العرفاء، أوَتظن أنك ستحصل على الجواب بهذه السهولة! أتتصوّر أنك ستجيب على سؤالك هذا ببضع تحليلات وحسابات متداولة؟ ما الذي على المرء صنعه لمعرفة تكليفه في أنه: ما العمل الصالح الذي يتوجب عليه الآن القيام به من بين عدة أعمال صالحة؟

ليست الأمور كلها واضحة، ولذا نحن بحاجة في كل لحظة إلى هدى الله تعالى

أُنبّه الشباب والأحداث إلى أنه: لا تتخيلوا أبدًا أنه بمجرد أن أصبحتم صالحين ستتوضح لكم الأمور قاطبة؛ فلن يعمل العلماء، مثلاً، على تزويدك بلائحة ما يجب عليك القيام به من الصباح حتى المساء، ثم يعطونك علامة القبول في الامتحان! أهو درس رياضيات، أو جغرافيا، أو تاريخ في مدرسة ليكون كل شيء واضحًا؟! لو علّموك الكتاب (القرآن الكريم) كله فستكون للتَوّ بحاجة إلى شيء آخر هو «الحكمة»؛ وهي أن تعرف أنت ما عليك فعله! الحكمة لا تأتي من صفحات الكتاب.. إنك بحاجة إلى فرقان وبصيرة. الإنسان لم يخلقه الله عز وجل بحيث يزوّده أنبياءُ الله وأولياؤه بمنهاج فيعمل هو بموجبه. الطيارون مثلاً لديهم قائمة بالإجراءات التي عليهم مراجعتها وتنفيذها واحدًا واحدًا لدى إقلاع الطائرة وهبوطها، وواجبهم معلوم في كل الأحوال. أما التديّن فليس هو بأن يزوّدوك بقائمة من التعليمات والإجراءات لتنفّذها، بل عليك أنت لوحدك أن تحدد المصاديق للكثير من واجباتك. والأمر يعتمد على ابتكارك ونيّتك بأنه: كم على الله أن يوحي إليك ما تصنع؟

ولا أريد أن أُصَعِّب الأمر، فإن كان المرء سليم الطَوِيّة، وتحرّى الدقة، واستغفر ربه، وحاسب نفسه، وتوكل على الله، وتوسل به، ولم يُخفِ مرضًا من أمراض نفسه عمدًا، وكان نقيًّا فسيهديه الله تعالى سواء السبيل ويأخذ بيده. إنك تقول لربك في صلاتك في كل مرة: «اِهْدِنا الصِّراطَ المُستَقيم»؛ فليست القضية أن يكون الله تبارك وتعالى قد هداك مُسبقاً ثم تخاطبه أنت: «أنا سأقرأ القرآن بنفسي وأنفّذ تعاليمه، شكرًا جزيلًا! تفضل أنت ومارس مهامّك، فأنا لم أعد بحاجة إليك!» كلا، بل نحن محتاجون في كل لحظة إلى هداية الله سبحانه. فلنحذر أن نتلاعب بالصلاة، وبالقرآن، وبالأخلاق، وبالعدالة، وبالولاية. فإن النفس الإنسانية معقدة وماكرة. هذه هي المقدمة الأولى.

موضوع الساعة الذي نتناوله هو: ارتباط المؤمنين وتعاطيهم فيما بينهم

سنتحدث حول موضوع واحد من جهتين: الأولى هي أهمية الموضوع بذاته ومنزلته من الدين، والثانية هي تناسبه مع زماننا؛ وهو أنه: أوانُ ماذا الآن؟ وأيّ الأمور هو أهم؟ وعلى أي موضوع يجب أن نؤكد أكثر في الوقت الحاضر؟ «العالِم بِزَمَانِهِ لا تَهجُمُ عَلَيهِ اللوابِس» (الكافي/ ج١/ ص٢٧)؛ أي إن الذي لا يعرف زمانه يزداد وقوعه في الأخطاء. لكن ما الذي يحدد: أي زمنٍ نحن فيه؟ هنا ينبغي أن يكون لدينا أُسس؛ أسس دينية، وعقلية، وأسس ترتبط بعلم الإنسان، والاجتماع، والتاريخ وأنه في أي مرحلة من التاريخ نحن. إن خطةً استراتيجية صحيحة من شأنها أن تنقذ الفرد والمجتمع. فلو أنك قمت بأعمال الخير جميعًا لكن ليس في وقتها فلن ينفعك أي منها. فإنّ نفسَك اللعوب، الأمّارة بالسوء، الماكرة ذاتها تعمل على إفسادك من خلال أعمال الخير هذه بالذات. نحن نتناول موضوعًا هو الآن موضوع الساعة؛ وهو يتصل بارتباط المؤمنين فيما بينهم، وأسلوب تعاطيهم مع بعضهم البعض، وإيثار غيرهم من المؤمنين على أنفسهم؛ وهذا يتصل بموضوع عدم البُخل. ويشمل نطاق بحثنا مواضيع من قبيل: الإنفاق، والزكاة، والمواساة، والإيثار، والتعاون، والأخوّة، والأواصر بين المؤمنين.

لتحقق الولائية هناك امتحان عظيم هو الصلة بين الولائيين

ما مدى أولوية هذا الموضوع الآن؟ أهو الأهم الآن أم غيره؟ بصريح الروايات وبحسب الكثير من الآيات القرآنية فإن موضوع الولاية هو أهم المواضيع، لكن لو طلب إلَيّ اليوم أن أتحدث عن الولاية لقلتُ: الحمد لله إن هيبة الولاية وجدواها وحقيقتها باتت اليوم راسخة في نفوس أفراد مجتمعنا المؤمن على أقل تقدير، وإن أكثر ما نحن بحاجة إليه اليوم بخصوص الولاية هو علاقة الولائيين العرْضية فيما بينهم، لا علاقتنا الطولية مع إمام عصرنا(عج). فالولاية على نوعَين: ولاية طُولِية، وولاية عرْضية؛ فالولاية الطولية هي اتّباع الولائيين لإمامهم(ع)، أما الولاية العرضية فهي تحدد الصلة بين الولائيين. وهاهنا يكمن النقص الذي نعانيه في الوقت الحاضر، وهذا هو النقص الذي يتوجب علينا إصلاحه. يقول البعض: «إنْ يأمرني الولي بالأمر الفلاني فسأمتثل»، وهؤلاء هم حقًّا ولائيون، لكن سلوكهم مع باقي الولائيين ليس على ما يرام. كيف ينبغي أن تكون أواصر الولائيين فيما بينهم؟ ليس من المفترض أن تُصدَر الأوامر تلو الأخرى في هذا الصدد. فثمة امتحان عظيم لتحقق الولائية هو «الصلة بين الولائيين». لا أدري إن كنا نجحنا في هذا الامتحان العظيم أو لا؟ ما زالت هذه هي مشكلتنا. فإنْ كانت السيول والزلازل قد أقحمَتْنا في تحَدٍّ وكان الولائيون سباقين في هذا المضمار فإنما هو تمرين لهذا الميدان، والإجابة الصحيحة لهذا الامتحان بالذات، وهو «كيف تكون أواصر الولائيين فيما بينهم؟» في تصوري إن علاقة الولائيين فيما بينهم ينبغي أن تكون أمتَن، بل أمتن بكثير مما هي عليه الآن. فأهل البيت(ع)، انطلاقًا مما في أيدينا من الأحاديث، يتوقعون منا أكثر من هذا بكثير؛ فنحن إلى الآن لم نَرقَ إلى ما يتوقعه أهل البيت(ع) منا.

معرفة العدو مهمة، لكن أعداءنا اليوم قد فضحوا أنفسهم

معرفة الزمان هي أن نعرف: في أي زمان نحن اليوم؟ تجاه أي شيء علينا اليوم أن نكون أكثر حساسية؟ على سبيل المثال، جهاد الأعداء أمر مهم، ومعرفة العدو موضوع في غاية الأهمية. في مجالس محرم قبل خمسة عشر أو ستة عشر عامًا كان موضوع بحثي يدور كله حول معرفة العدو لأن الناس كانوا قد نسوا أن لنا عدوًّا. لكن عِداء أمريكا والصهيونية والاستكبار بات الآن مكشوفًا إلى درجة أن كل من يريد اليوم مناهضة الثورة الإسلامية بات يستجدي على أعتاب آل سعود. فهل يتوجب عليَّ، والحال هذه، أن أقنع الناس بأن أمريكا وآل سعود أعداء؟ أيُّ أحمق لا يدري أن أمريكا دنيئة؟

الحمد لله أن أعداءنا هم على جانب من الإجرام بحيث فضحوا هم أنفسَهم. بالطبع هذا لا يعني أنه ليس لنا الآن أعداء، بل إن لنا أعداءً ونحن في حرب معهم.

عهد المطالبة بالعدالة قائم دومًا، لكن "عهد الحديث عن المطالبة بالعدالة" قد وَلّى

طرحتُ في الليلة الماضية موضوعًا أساء البعضُ فهمَه. قال لي أحدهم: «ألا تريد الحديث حول المطالبة بالعدالة؟» فأجبته: «كلا، فزمان المطالبة بالعدالة قد وَلّى». بالطبع حين قلتُ إن «عهد المطالبة بالعدالة قد وَلّى» فهو من باب أني لا أريد أن أجعل موضوع محاضراتي المطالبة بالعدالة، وليس أن أدّعي أن عهد المطالبة بالعدالة قد وَلّى مطلقًا. لسنا الآن بحاجة إلى الترويج للمطالبة بالعدالة بين الناس، بل إنه أوان تطبيق العدالة؛ كما تقوم السلطة القضائية الآن بتطبيقها. حتى العام الماضي كنا نقول للسلطة القضائية: «إنكم تُلقون القبض على المجرم، لكن ماذا تصنعون بمن لا يؤدي واجبَه؟» وقد وجّهنا مناشدات في هذا الخصوص. فأجاب رئيس السلطة القضائية الموقر: «سنتصدى من الآن فصاعدًا لترك أداء الواجب أيضاً، أي سنحاكم كل من لا يعمل». على أن العدل لا يُبسَط عن طريق السلطة القضائية فحسب، بل إن على مجلس الشورى الإسلامي، وحكومة الجمهورية الإسلامية أيضاً أن يعملا على بسط العدل. إن عجلة المطالبة بالعدالة تدور، وإن اهتمام الجماهير بالعدالة عالٍ. فما الداعي إلى دفع شيء عجلتُه تدور؟ عهدُ المطالبة بالعدالة قائم دومًا، لكن عهد الحديث عن المطالبة بالعدالة قد وَلّى. لقد ذكرتُ قبل شهر في حوار مع الموقع الالكتروني لسماحة ولي أمر المسلمين الإمام الخامنئي (دام ظله): إخفاقاتنا السابقة في مجال العدالة تعود إلى أن مستوى المطالبة بالعدالة كان منخفضًا وكان لا بد أن يرتفع، ولقد ارتفع الآن ولله الحمد. فالمطالبة بالعدالة لا تعرف النهاية! هناك بضعة أنواع من التيارات المطالبة بالعدالة، كما هو الحال بالنسبة إلى التيارات الأخلاقية والمعنوية والولائية. الولائيون، على سبيل المثال، أنواع: فالولائيون الذين لا شأن لهم بالسياسة ومقارعة الاستكبار، والولائيون الذين يتعاطون السياسة ومقارعة الاستكبار. وكذا الأمر بالنسبة للمطالبين بالعدالة؛ فهناك المجرَّدون عن التقوى والولائية، وهناك المتقون الولائيون. فإن المطالبة بالعدالة بعيدًا عن التقوى أمر يسير؛ كمن يسحق كرامة الناس - التي هي أهم من الكعبة المشَرَّفة - بذريعة المطالبة بالعدالة.

ما ينبغي تدريب جنود صاحب الزمان(ع) عليه ليس العدالة، الأولوية اليوم للمواساة

الموضوع الذي أراه أشد ضرورة من الدعوة إلى المطالبة بالعدالة هو المواساة؛ إنه موضوع استعداد المرء لغض الطرف عن ممتلكاته. هذا ما علينا أن نُروّج له اليوم. وهل يقود طرح هذا الموضوع إلى ممارسة ضغط على المسؤولين أو لا؟ أجل يقود. إننا نعُد قائد الثورة الإمام الخامنئي (دام ظله) أعلى من أن يكون أسوة في بسط العدالة، إننا نراه أسوة في تطبيق المواساة؛ فإن امتناعه عن أكل معظم الفواكه الباهظة الثمن حتى قبل انتصار الثورة، حين لم تكن له مسؤولية، هو فوق العدالة، إنها المواساة. البعض يترجم المواساة بـ»الإعانة على خلفية الإيمان«، لكنها فوق ذلك. المواساة تعني أنه لا يحق لك أن تعيش أفضل من أخيك، حتى في خَلوَتك! فكم من مسؤولي الدولة يَحذُون حذو القائد (حفظه الله) والإمام(ره) في قضية المواساة؟! إن ما له الأولوية اليوم هو موضوع المواساة. إني أخاطبكم أنتم أيها المؤمنون، يا من تلطمون الصدور على أبي عبد الله الحسين(ع). أنتم تجتمعون الآن في خيمة أبي عبد الله الحسين(ع)، لقد جئتم إلى معسكر صاحب العصر والزمان أرواحنا له الفداء. وإن هذا الجيش، باعتقادنا، وحدة عسكرية تحت قيادة صاحب الزمان(ع). إن ما ينبغي تدريب جندي صاحب الزمان(ع) عليه ليس تطبيق العدالة، بل يجب أن يقال له: «لا يكُن طعامُك غير الخبز اليابس! أجاهزٌ أنت لهذا المشهد أم لا؟» إننا نتحدث الآن عن هذا الجانب من القضية، وهو: «ما هو واجبنا نحن أبناء الشعب؟» أننا لو اجتنَبنا «البُخل» لحدثَت في حياتنا تطوّرات مُذهلة، وإن البُخل حين يُنبَذ ويُدان في ثقافة المجتمع فلن يبقى للحيف والضيم موطئ قدَم على الإطلاق.

ليست "المواساة" تصدُّقًا، إنها نمط حياة/ امتحاناتنا تشير إلى ضرورة أن ننهج ثقافة المواساة

إذن أحد مواضيع مجلسنا هذا هو أنه: زمان أي شيء هو زماننا الحالي؟ اليوم يجب أن نخاطب المسؤول الذي يسعى لخدمة الضعفاء بالقول: «تعال أنت وانهج نهج المواساة في عيشك.. عِش حياةً أكثر زهدًا». أساسًا، الذي يتولّى مسؤولية لماذا يُمنَح راتبًا إذا كان هو متمكّنًا ماليًّا؟ ألَم يُخرِج أمير المؤمنين(ع) كيس مؤونته للناس مُخبرًا إياهم أن: هذا ليس من بيت المال، بل من مالي الخاص؟! إننا عندما نتّجه صوب المواساة في حدود تسلُّم الرواتب فإن أنواع السرقة ستنتهي هي الأخرى كتحصيل حاصل، وسيكون تطبيق العدالة «أي توفير الإمكانيات للجميع بالتساوي وبحسب القابليات» من المُسَلّمات. القضية في الوقت الحاضر هي قضية المواساة. وليست المواساة تصدُّقًا، إنها نمط حياة. ثقافة المواساة ستغير نمط حياة المسؤولين أكثر من باقي أفراد الشعب. لماذا يجب أن نتبنّى اليوم ثقافة المواساة؟ في المجتمع الذي تُفتقد فيه المواساة يحصد الفكرُ الليبرالي الأصوات في الانتخابات ويجُرّ البلد إلى الحضيض، أما إذا طغت عليه ثقافة المواساة فلن يكون لذوي المنحى الليبرالي موطئ قدم فيه، فما بالك بفوزهم في الانتخابات. إننا نطالب بثقافة المواساة هذه، ولا شك أنه سيكون لها أثر سياسي أيضًا. هذا بالإضافة إلى أن امتحاناتنا تشير إلى ضرورة أن ننهج ثقافة المواساة، وإن ألوان الأذى التي طالت الجماهير تؤكد ضرورة هذا الموضوع أيضًا.

الإصرار على مقارنة مفهوم بآخر هو لمواجهة مكر النفس

وبمعزل عن أن زماننا الحالي هو زمان أي شيء؟ لا بد من القول، في القسم الثاني من المحاضرة: المفاهيم، بحد ذاتها، يمكن مقارنة بعضها ببعض. يقول البعض: لماذا كل هذا الإصرار على مقارنة المفهوم بالمفهوم الآخر؟ الله عز وجل في كتابه العزيز يقارن أحيانًا بين عملَين صالحَين. كما تكرر في الأحاديث أيضًا قياس عمل صالح بآخر مرارًا. إن الإنسان ليخرُج بهذه المقارنات بنتائج مهمة، وإنه بهذه المقارنات تحديدًا نستطيع مواجهة مَكر النفس. الإمام الباقر(ع)، في ما روي عنه، يقيس الولاية بالمناسك العبادية الأخرى ويصرح بأنه ما من عمل يوازي الولاية: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالوَلَايَةِ، وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالوَلَايَةِ» (الكافي/ ج٢/ ص١٨). وسبب أفضلية الولاية هو أن الولي هو الذي يطبّق العدل والكثير من الأمور الأخرى.

الشُحّ، من زاويةٍ من الزوايا، هو أهم مشاكل الإنسان والمجتمع البشري

يروى أن أمير المؤمنين علي(ع) بعث إلى رجل بهدية فقال رجل لأمير المؤمنين(ع): «لماذا بعثت إليه بهذه الهدية؟» على أن الأخير صاغ كلامه بطريقة جميلة؛ فبيّن مثلًا أن الرجل لا يستحق منك كل هذه الهدية فلماذا تبعثر مالك هدرًا ...الخ. فاستنكر عليه الإمام(ع) ذلك بأنني أعطيه من مالي، فلماذا هذا البخل منك؟! «عن أبي عبد الله(ع) أنّ أمير المؤمنين(ع) بعثَ إلى رجل بخمسة أوساق من تَمْر البُغَيبِغَة [منطقة]... فقال رجلٌ لأمير المؤمنين(ع): والله ما سألَكَ فلان، ولقد كان يُجزِئُه من الخمسة الأوساق وسق واحد! فقال له أمير المؤمنين(ع): لا كَثَّرَ اللهُ في المؤمنين ضَرْبَك، أُعطي أنا وتبخلُ أنتَ!» (الكافي/ ج٤/ ص٢٢-٢٣). فمعزل عن أنه يمكن القول: «أي موضوع نتناول في زماننا هذا؟» قد يكون بالإمكان أيضًا أن نطرح السؤال هكذا: «أي الأشياء هو الأهم ذاتًا؟» إن أهم مشاكل الإنسان والمجتمع البشري، من زاوية من الزوايا، هو الشُحّ والبخل والإمساك والتحفظ. وأين تكمن أهميته؟ تكمن في أن استئصاله سيمنع ترسخ الثقافة المنحطة للحضارة الغربية الخاوية المتآكلة في مجتمعنا. ولقد استطاعت بعض مظاهر المواساة في أيام الكورونا هذه أن ترفع رأس شعبنا عاليًا.

الشح أسوأ حتى من الظلم

بمعزل عن موضوع الزمان، فلننظر ما هي منزلة الإمساك في الدين؟ لقد دارت بداية بحثنا حول أن نبي الله آدم(ع) كان قد سقط حين لم يرغب في التخلي عن ممتلكاته. وإني أرى أن المواساة، في عملية تربية الإنسان، لها الأولوية على العدالة، حتى إذا وضعنا مسألة الزمان الحاضر جانبًا. وسأتلو على مسامعكم في هذا الصدد حديثًا عن أمير المؤمنين(ع) يبيّن أن الشح شر من الظلم. يقول البعض: «لماذا تقارن بين المفاهيم؟» وأريد أن أنقل لكم هنا نموذجًا مما جاء في الروايات من المقارنات. رُوي عن الإمام الباقر(ع): «أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ(ع) سَمِعَ رَجُلًا يَقُول: إِنَّ الشَّحِيحَ أَعذَرُ مِنَ الظَّالِمِ» لأن الشحيح لا يُؤذي أحدًا أما الظالم فيؤذي الناس، ولهذا فهو أسوأ. والحقيقة أن هذا الشخص قد قارن بين الشحيح والظالم. وقد يتبادر إلى أذهاننا الشيء نفسه، لكن لننظر بماذا أجابه الإمام علي(ع)؟

«فَقَالَ لَهُ(ع): كَذَبْتَ» أنتَ مخطئ! «إِنَّ الظَّالِمَ قَدْ يَتُوبُ وَيَسْتَغْفِرُ وَيَرُدُّ الظُّلَامَةَ عَلَى أَهْلِهَا»؛ أي من الممكن أن يتوب الظالم من ظُلمه ويكُفَّ عنه، ثم قد يُصلِح ما فعلَه. فإن للظُّلم آثارًا قد تدفع المرء إلى الندم على فعله وإن قُبحَه ليس أشد من الشُحّ. ثم يقول(ع): «وَالشَّحِيحُ إِذَا شَحَّ مَنَعَ الزَّكَاةَ وَالصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ وَإِقْرَاءَ الضَّيْفِ وَالنَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَبْوَابَ الْبِرِّ وَحَرَامٌ عَلَى الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَهَا شَحِيحٌ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٦٣).

لا يُبسط العدل في مجتمع أفراده أَشِحَّة

قد نقول نحن: البخيل لا يفعل شيئًا ذا بال، كل ما هنالك أنه لا يبذل المال، وهذا ليس بالأمر السيّئ جدًا، أما من يمارس الظلم ففعله أشنع بكثير! لكن لا بد من الالتفات إلى أن أمير المؤمنين(ع) لا يقصد: «اتركوا الظالم!» بل القصد، في الواقع، هو أن من السهل في المجتمع الإيقاع بالظالم ومؤاخذته، ومن اليسير رفع الظُلم عن المجتمع، أما الشُحّ فهو «أم الفساد»! إن المجتمع الذي يكون جميع أفراده بخلاء سوف يعُمّ فيه ظلمٌ لا يستطيع أحدٌ منعَه، حتى علي بن أبي طالب(ع)! المجتمع الذي سُلِّم لأمير المؤمنين(ع) كان مجتمعًا طُبِّع أفرادُه على الشُحّ وجُعِلوا سُجناءه وأذِلّاءَه.. كان أمير المؤمنين(ع) في قمة العدالة لكن أفراد ذاك المجتمع لم ينصروه، بل تركوه وحيدًا حتى مات غمًّا من ظُلم رعِيّته! لماذا يرى أميرُ المؤمنين(ع) أن الشُحَّ أسوأ؟ قد لا تكون في أيدينا، أنا وأنت، حِيلة فلا نظلم، لكن هل نحن أَشِحّة أو لا؟ فإن كنا أشحة فلسنا جديرين ببسط العدل. لن تُبسط العدالة في مجتمع نحن أشحة فيه. الذين في مقدورهم بسط العدل في المجتمع هم أهل المواساة والإيثار. إذا أردتُ أن أربّي أولادي فسأُقيم تربيتهم على ركيزة «إزالة الشح» من أنفسهم، وحينئذ لن يمارسوا الظلم أيضًا. سأقيمها على الإيثار، لا على الإنصاف والعدالة. فإن أقمتُها على الإيثار، فسيلتزمون بالعدل والإنصاف أيضًا؛ إذ سيكون هذا تحصيل حاصل.

يَستخلص البعض من نهج البلاغة أن «العدل هو الأساس في الحكم» ولا يستطيع تبويب ما استخلصَه! والحال أننا هنا لا نمارس الحكم، بل نربّي النفوس. إننا نتجاذب مع بعضنا أطراف الحديث. إنّ أعدلَ نظام حُكم وأشدّها انتهاجًا للعدل لا ينجح وسطَ رعيّة تفشّت فيهم ثقافة الشُحّ! والنموذج هو حُكم علي بن أبي طالب(ع)؛ فقد كان ذروةَ العدالة، لكن بين أناس ابتُلوا بأنفُسٍ شُحّ! فلنقتلع هذا الشُح ليَظهر صاحبُ الزمان(عج) ويقيم دولته العادلة.

يا صاحب الزمان، كم ترى فينا من البخل فلا تقبلنا؟

ليلة عاشوراء هي ليلة قَدْرنا، الليلة التي يحدَّد فيها قدْرُنا، وإلى أي مدى نحن أنصار صاحب الزمان(ع) وحسينِ زماننا؟ يابن الحسن، يا صاحب الزمان، إننا مجتمعون في مخيّمك.. نتوسل إليك.. لم نأت لحضور مراسيم رسمية.. إننا مكروبون! فمتى إذن تختارنا لصُحبتك؟ لو كنتَ اخترتَنا لظهرتَ من غَيبتك. كم ترى فينا من البخل؟ كم تلمس فينا من الإمساك فلا تقبلنا؟ أي شيء نحن غير جاهزين للتضحية به في سبيلك ونحن أنفسنا لا ندري؟

يقوم بعض الخواص والساسة مقام "مِفَكّ البراغي!" لسلطة إمام الأمة

يقوم بعض نُخب المجتمع والخواص والساسة، مقام «مِفَك البراغي!» أي يقومون بدور المُضعِف لسلطة إمام الأمة. فانظروا كم «مِفَك براغٍ» لدينا الآن في زماننا؟ ولأذكر لكم مثالًا. أول شهيدِ الاغتيالات في الجمهورية الإسلامية كان «الشهيد المشير قَرَني» من الجيش؛ أي إن الجيش كان قد قدم أول شهداء الاغتيالات، وهذا فَخر أبدي للجيش وكل أفراده. لكن ما الذي جعل الشهيد المشير قَرَني على هذه الدرجة من الغُربة في أيامنا هذه بحيث إن أغلب شبابنا غير مُطّلع على هذا الموضوع؟ السبب هو إن الماكنة الإعلامية في هذا البلد، ولمدة أربعين عامًا، كانت في الغالب في قبضة المتغرّبين والليبراليين الكثيري الصخب والدعاوَى، وأمثال هؤلاء لا يُسَرّون أبدًا بأن ترفعوا من شأن الشهيد قَرَني. لقد أرغمَ التيارُ الليبرالي المتغرّب الشهيدَ قَرَني، الذي كان قائد أركان الجيش في حينها، على الاستقالة، وألزَمَه السيدُ بازركان منزلَه، خلافًا لتوجيهات الإمام الراحل(ره)، ثم تم اغتياله بعد استقالته! وكان، رحمَه الله، أول من اغتيل وسُقي كأس الشهادة على يد «المنافقين» (زمرة «مجاهدي خلق!»). كان السيد بازركان يقول في زمرة مجاهدي خلق: «إنهم أبنائي!» والإمام الراحل(ره) أيضًا قال: «هؤلاء الإرهابيون هم أبناء السيد بازركان». والآن نشاهد اسم الأب الروحي لقاتلي الشهيد العزيز قَرَني، أي المرحوم بازركان، يُكتَب على جدران العاصمة طهران! أي إن مجلس محافظة طهران قرّر أن يسمي أحد شوارع طهران باسم «بازركان». فلتدَعوا وصمة العار هذه تعلو جباه المتغرّبين إلى الأبد!

بازركان، أنموذج المُضْعِف لولاية الفقيه

لماذا أنا أضرب من حركة «نهضت آزادي» (نهضة الحرية) وبازركان مثلًا؟ لأني أريد أن أبيّن من خلال ذلك النمط الأنيق والمرتَّب جدًّا للعامل المُضْعِف للولاية والثورة. ولأن بازركان هو النموذج البارز للعامل المُضعِف لولاية الفقيه في زمان الإمام الراحل(ره)، واليوم أنتم تشاهدون بأُمّ أعينكم الذين يُقَوّون هذا العامل المُضعف للولاية. الإمام الخميني(ره) كان قد كتب إلى وزير الداخلية في حينه حول «نهضت آزادي» (أي حزب السيد بازركان) ما نصه: «هناك حول ما يسمى بـ»نهضت آزادي» مواضيع جمة تتطلب مناقشتها ساعات مطوّلة. لكن ما ينبغي قوله من باب الإجمال: إن ملف هذه الحركة وأداءها إبان الحكومة المؤقتة في أوائل عهد انتصار الثورة يُثبت أن هذه الحركة هي من الأنصار الأشدّاء لتبعية دولة إيران لأمريكا، وهي لم تَألُ جهدًا في هذا المجال... إن حركة «نهضت آزادي» ليست مؤهَّلة لأي دور تنفيذي، أو تشريعي، أو قضائي، وإن ضررها – على اعتبار تظاهرها بالإسلام، وأنها ستعمل عبر هذا السلاح على حَرْف شبابنا الأعزة، وما يمكن أن تتسبب به من فساد كبير من خلال تدخّلاتها السلبية في تفسير القرآن الكريم والسُنّة الشريفة وتقديم التأويلات التي تنم عن جهل – إن ضررها أفدح من ضرر الزُمَر الأخرى، بما في ذلك زمرة المنافقين، الأبناء المحبوبون للمهندس بازركان» («صحيفه امام» (صحيفة الإمام/ ج٢٠/ ص٤٨١). لاحظوا أن الإمام الراحل(ره) كان يأبى أن يقول: «نهضت آزادي» (نهضة الحرية)، بل يقول: «ما يسمى بنهضة الحرية»، لأنها – في واقع الأمر – كانت نهضة العبودية، لا الحرية!

لقد أودى مُضعِفو الولاية بالأمور إلى جعل الناس يقتلون الإمام الحسين(ع)/ نحن لا نريد أن نكون من مُضعفي الولاية

وليّ الأمة هو في قمة النجابة، ونجابته هذه هي أحد أسرار ظلامته. لقد أَودَى مُضْعِفو الولاية على مدى التاريخ بالأمور إلى جعل الناس يُقْدِمون هم على قتل الإمام الحسين(ع)! ونحن لا نريد أن نكون في عداد مُضعِفي الولاية. يقول الإمام الراحل(ره): «إن ضرر نهضة الحرية هو أشد من ضرر زمرة المنافقين الإرهابية»؛ أي أولئك الإرهابيون الذين قتلوا سبعة عشر ألفًا من أفراد الشعب. بعد اغتيال الشهيد المشير قَرَني (أعلى الله مقامه الشريف) أرادوا دفن جثمانه في مقبرة «بهشت زهرا» (جنة الزهراء (س))، فقال سماحة الإمام الراحل(ره): خذوه إلى مدينة قم وادفنوه عند مرقد السيدة فاطمة المعصومة(س) بجوار سماحة آية الله الحائري(ره)، مؤسس الحوزة العلمية بقم المقدسة. لقد كان عسكريًا عظيمًا. ينبغي لهؤلاء الشباب جميعًا أن يعرفوا المشير قَرَني. لماذا لا يُذكَر اسمه في المناهج الدراسية؟! كان الشهيد قَرَني الرجل العظيم الذي صانَ الثكنات العسكرية في أوائل أيام انتصار الثورة. وكان حبيس السجون لبضع سنين قبل انتصارها. وهناك أقوال بأن خطة اغتيال سماحة الإمام الخميني(ره) في النجف الأشرف - والتي تم رسمُها في أنظمة الجيش أيام الحكم الطاغوتي - كانت قد كُشِفَت وأُجهِضَت بمساعدته. وكان هو من حَشَد العسكريين وحثهم على الصمود بعد انتصار الثورة بوصفه إنسانًا وطنيًا. لماذا المشير قَرَني غير معروف إلا لنسبة ضئيلة من شبابنا؟ أيها الأصدقاء، يا من تثمّنون جهود الحاج قاسم سليماني كل هذا التثمين، لا تنسوا المشير قَرَني، فهو العزيز الغالي على قلوبنا.

فضح خيانة حكومة بازركان في كتاب استقالة الشهيد المشير قَرَني

كان الشهيد قَرَني قد كتب كتاب استقالة، إلا أن الإمام الراحل(ره) طلب إليه البقاء في منصبه. فدعاه السيد بازركان بعد بضعة أيام وقال له: «لقد تمت الموافقة على استقالتك». ومن بعد أن أصبح جليس الدار، قتلوه! جاء في كتاب استقالة الشهيد قرني: «على وتيرة يومية يُصدر نائب رئيس وزراء الثورة، الذي يرى نفسه المشرّع للقوانين والمالك للرقاب، ودونما التفات منه إلى مكانة الجيش وتجهيزاته، بل ومن دون مشاورتي أيضًا مع الأسف - يُصدر توجيهات تؤدي كل حين إلى ضربات مُوجِعة لمعنويات الضباط ووقوع كميات من السلاح والعتاد والأموال في أيدي الفاسدين والمرتبطين بالأجانب. إن وزير الدفاع يعمد - من دون التشاور معي وفي ما هو خارج عن نطاق صلاحياته - إلى التصريح بشكل غير مسؤول أمام الإذاعة والتلفزيون والصحافة من أن: الجنود في شهر فروردين [رأس السنة الشمسية] في إجازة! فتَترُك تلك القلة القليلة من الجند، التي عمل الجيش بشق الأنفس على الاحتفاظ بها في الثكنات العسكرية – تَترُك مواقعها في حراسة الثكنات عائدة إلى منازلها، وتتسلل تحت جنح الظلام عناصرُ من حزب «تُودَة»، المرتبطة بالسياسات الأجنبية، بشاحناتها إلى الثكنات فتشحن ما بقي فيها من الأسلحة والعتاد إلى خارج المدن. وهذا هو ما دعاني إلى الاستقالة». أي كانت الحكومة المؤقتة تعلن العطلة في الثكنات، ليتركها الجنود، فتأتي عناصر مرتبطة بحزب «تودة» لتشحن ما فيها من أسلحة وعتاد بالشاحنات وتأخذها إلى أماكن مجهولة! ويتابع الشهيد قرني في كتاب استقالته: «من دون استشارة قيادة الجيش وأعلى مرجع لتقييم الأوضاع في محافظة كردستان أرسلَت الحكومة وفدًا من المندوبين إلى المحافظة، حيث لدى وصولهم إليها وبعد أول إشاعات أطلقوها، دفعوا الأهالي إلى مداهمة ثكنة مهاباد العسكرية ونهبها، وإمطار قائد الثكنة بالرصاص أمام أنظار الوفد المذكور!» كان هذا الوفد المفاوض مرسَلًا من السيد بازركان للتفاوض مع الإرهابيين. فاشترط الأخيرون أن: «ليتم إخلاء الثكنة كي نتفاوض معكم». فطلب الوفد إلى آمر الثكنة إخلاءها. لكن الإرهابيين أَقدَموا بكل بساطة، بعد إخلاء الثكنة، على اختطاف آمِرها! ولدى وصول وفد الحكومة المؤقتة المفاوض قتلوا آمر الثكنة رميًا بالرصاص أمام الوفد! يقول الشهيد قرني: «هذه هي مواجعي...!» وإني لأطالب رئيس مجلس المحافظة أن يطالع تقارير والده وكتاباته حول خيانات بازركان.

الدور الرابع للإمام في خطاب الإنفاق هو تحديد مجالات الإنفاق وكونه صاحب السلطة على الأموال

وما هو الدور الآخر للإمام في موضوع الإنفاق؟ دوره الآخر هو أنه هو الذي يحدد مجال إنفاق الأموال وصرفها. بعد معركة حُنَين وحين أمر رسول الله(ص) بإعطاء أهل مكة الحظ الأوفر من الغنائم لأنهم جديدُو العهد بالإسلام، قال له حرقوص بن الزهير: «اِعدِلْ يا رسول الله»، فقد كان معارضًا لطريقة تقسيم الغنائم، وهذا أحد مواطن الامتحان. الامتحان الآخر هو أن الولي هو صاحب السلطة على أموال الناس، وأنه ينبغي أن يأخذ بعضَها لنفسه. لقد جاء الأمر إلى النبي الأعظم(ص) من الله عز وجل أن يهَبَ الأموال التي وقعت في يد المسلمين من دون قتال لفاطمة الزهراء(س)، فكان أن وهبها فَدَكًا. وأول ما حدث بعد رحيل رسول الله(ص) هو أنهم أخرجوا عُمّال السيدة الزهراء(س) من فدك واستولوا عليها. وعلى خلفية ذلك ضُرِبَت الزهراء(س) وحدث كل ما قد سمعتم به! وحين طالبت الزهراء(س) بفدك كان ردهم في بادئ الأمر أن: «النبي لا يُوَرِّث». وحين أثبتت(س) أن كلامهم لا أساس له من الصحة قالوا: «لقد جعلنا فدك من بيت المال لتُوزَّع على الناس، فما شأنُكِ ببيت المال؟! إنْ كنتِ تريدين بستانًا أعطيتكِ أنا واحدًا!» فتوجّهت الزهراء(س) إلى الناس مبيّنة لهم أنه يغصبُها حقَّها. لكن حق فاطمة الزهراء(س) كان قد قُسِّم وكان ينزل في بطون أولئك الناس جميعًا، فطأطؤوا رؤوسَهم. خاطبَتهم، سلام الله عليها، (بما مضمونه): أيها الناس، إني ابنة نبيكم، ولقد عاهدتموه أن تصونوا ابنتَه من بعده...! بهذه البساطة ترك الناسُ فاطمة الزهراء(س) وأمير المؤمنين(ع) غريبَين، بما وجدوا من ذريعة جيدة! وبعد عودتها إلى الدار قالت للإمام علي(ع): «لَيتَني مِتُّ» ولم أشاهد هذه المشاهد! أوَتكون فاطمة الزهراء(س) قد استُشهدَت لأمر تافه؟ أهو موضوع بسيط يا ترى؟ أتدرون من هي الصِدّيقة الكبرى(س)؟ لقد قالت(س) بخصوص هذا الأمر: «لَيتَني مِتُّ»...! ففدَك إذن موضوع مهم. ألا يرتبط موضوع فدك بالشُحّ والإنفاق؟ ألم يكن الناس يدركون لماذا ينبغي لهذه الأموال أن تكون مِلكًا لابنة رسول الله(ص)؟!

مباشرةً بعد رحيل رسول الله(ص) اختُبِر الناس ببُخلهم مع فاطمة(س)

ليت الأئمة والأنبياء لم يتدخلوا في الشؤون المالية! فالرَدّ صعب! إننا إلى الآن لا نستطيع ذِكْر مصيبة فدك براحة بال! إلهي، أي امتحان هذا الذي أخضَعتَ الناسَ له؟! أخالفوا علي بن أبي طالب(ع) بعد وفاة النبي(ص) مباشرةً؟ الأسباب لمخالفتهم لعلي بن أبي طالب(ع) متشعّبة! ظَلَّ الإمام علي(ع) جليس الدار.. انتهت قضية عليّ(ع).. فانتفضت فاطمة الزهراء(س) منادية: أعطوني فدك! فماذا كانت مشكلتهم مع فاطمة(س)؟ ما الذي صنعَتْه(س)؟ أكانت قضيتها مالية؟ القضية أعقد بكثير من هذا. مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم(ص) اختُبِرَ الناس ببخلهم مع الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء(س)! أتفقهون ما معنى هذا؟ يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى» (الأنفال/٤١). أنصحكم أن لا تترجموا هذه الآية مَرَّةً أمام أحد! فلقد ألّفَ بعضُ «المثقفين!!» كتبًا في هذا المجال!!...

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق؟/ لا بد للإمام من قدرة مالية

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق (بذل النفس، إنفاق المال)؟ دعوني أتلوا عليكم واحدة من بضع آيات قرآنية في هذا المجال: «مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثيرَةً» (البقرة/٢٤٥)؛ يُقرِضُه (أي ينفق) من الأموال التي أعطاه هو (الله) له. هكذا يقول الإمام الصادق(ع)، في ما روي عنه، في تفسيره لهذه الآية: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِخْرَاجِ الدَّرَاهِمِ إِلَى الإِمَامِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَجْعَلُ لَهُ الدِّرْهَمَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ» ثم قال «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً». قَالَ(ع): «هُوَ وَاللهِ فِي صِلَةِ الْإِمَامِ خَاصَّةً» (الكافي/ ج١/ ص٥٣٧)؛ أي إنه أقسم على أن هذه الآية نزلت خاصّةً في دفع الأموال للإمام. أين يقف الإمام من موضوع الإنفاق؟ يروى عن الإمام الصادق(ع) قوله: «دِرْهَمٌ يُوصَلُ بِهِ الْإِمَامُ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ يُنْفَقُ فِي غَيْرِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٧٣). فانظر حينئذ كم ستكون القدرة المالية للإمام؟

يقول تعالى في موضع آخر: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكينِ وَابْنِ السَّبيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُم» (الحشر/٧)؛ أي: إن ما يُعيدُه الله تعالى من أهل القرى إلى رسوله(ص) هو ملك لله ولرسوله ولأقرباء رسوله واليتامى والمساكين والمسافر المُنقطِع (الذي يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلّغ به) كي لا يتناقَل أغنياؤُكم هذه الأموال الضخمة فيما بينهم. فلا بد أن تكون للإمام قدرة مالية.

ماذا نصنع لننجح مع الولي الفقيه في امتحان الولاية فنتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص في ما يتصل بالإمامة؟

أتحبون أن يظهر صاحب الزمان(عج) ويحكم العدلُ الأرضَ؟ تعالوا إذن نجتاز بنجاح امتحان الولاية – الذي نعيش الآن مرحلة ولاية الفقيه منه – ونتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص وخلل في ما يخص الإمامة: أولًا: كم قد نفَذَتْ ولاية الفقيه في أعماقك، وتغلغلت في حياتك الشخصية وفي نمط حياتك اليومي؟ دع العالَم كله يقول ما يشاء، واجعل نمط حياتك التالي: قُل مثلًا: أنا أَتزوَّج لأن السيد القائد (الإمام الخامنئي) أوصى بذلك، أنا أُنجب أطفالًا أكثر لأن السيد القائد أوصى بذلك، أنا أمتنع عن شراء سلعة كذا الأجنبية لأن السيد القائد أوصى بذلك... ثانيًا أن نعمل على ترسيخ نفوذ الولي الفقيه في نفوس أفراد المجتمع. كيف؟ بأن نوضح وظيفة وأداء الولي الفقيه في الأمة. ذات يوم سأل طالب جامعي الإمام الخامنئي: ما البأس في أن يوجَّه إليك الانتقاد؟ فأجابه سماحة السيد القائد، بعد أن أوضح له أنه لا بأس في الانتقاد، وأن هناك الكثير ممن يتكلم وينتقد: «إذا كان الانتقاد بمعنى الانتقاص... أيُّ حُسْن ثمة في انتقاص القائد؟ أمن المصلحة أن يقف شخص أمام القائد ويتفوه ضده ببذيء الكلام، وهو الذي من المفترض - بحسب نظام الجمهورية الإسلامية - أن تكون إشارة واحدة من إصبعه كافية، في أحلك الظروف، لدفع الشعب إلى التضحية بالأنفس؟!» (في جلسة أسئلة وردود مع مسؤولي وأمناء المطبوعات الطلابية في ١٩٩٩/٢/٢٣). رد في منتهى البساطة والعقلانية والوضوح.

يـا أمـير المؤمنـين، لقـد كـسروا ظهـرك وجرحـوا قلبـك في قضيـة الغـارات في الشـام نفسـها فـصرتَ تنحنـي في البـئر مناديًـا! يـا أمـير المؤمنـين، لقـد أغـار الدواعـش في زماننـا هـذا، وفي الشـام نفسـها، فأُحبطـت غاراتهـم بإشـارة مـن الـولي الفقيـه عـلى يـد أمثـال الجـنرال سـليماني، والشـهداء حُجَجـي، وهمـداني، وخوشـنويس! أرأيـتَ سـيدي مـا سـطروا مـن بطـولات؟! هـذا ولم يأمـر السـيد القائـد حفظـه ولا مـرة بـأن: «توجّهـوا للقتـال!» ففـي زمـان الحـرب كان الإمـام الراحـل(ره) قـد دعـى بضـع مـرات إلى التوجـه إلى الجبهـات، أمـا في زمـن الـذود عـن الحـرَم والمقدسـات فلـم يَـدعُ السـيد القائـد لذلـك ولا مـرة! وهـذه تباشـير قـرب الظهـور. ثالثًـا: يجـب أن تقفـوا بـكل قـوة في وجـه نُخـب المجتمـع والخـواص والساسـة الذيـن يقومـون مقـام «مِفَـك البراغـي» تجـاه قـدرة الـولي وقوتـه لإضعافهـا، ولا تدعـوا أحـدًا منهـم يجـرؤ عـلى الدنُـو قيـد شـعرة مـن مقـام الـولي وحريمـه وحرمتـه.

إن جانبًا من عظمة عاشوراء هو رهنُ روعة التولّي

لقـد بلـغ الأمـر ليلـة العـاشر مـن المحـرم أن قالـت العقيلـة زينـب(س) لأبي عبـد اللـه الحسـين(ع): هـل أنـت مطْمَـئِن مـن أصحابـك؟ «هَـل اسـتَعلَمتَ مِـن أَصحابِـكَ نِيّاتِهِـم؟» ما معنى هـذا السـؤال؟ أي: أأنتَ واثـق مـن أنهـم غـدًا لـن يخذلوك ويـذروك وحيدًا؛ «فَـإِنّي أَخـشَى أَن يُسْـلِمُوك عِنـدَ الوَثبَـة!» فزينب(س) تذكـر خيانـة أصحـاب أبيهـا أمـير المؤمنـين وأخيهـا الحسـن المجتبـى(ع) لهـما. يـا حبيبـي يـا حسـين! أخـشى أن يغـدر بـك أصحابُـك غـدا فتذهـب ملحمتُـك العظيمـة أدراج الريـاح! فإنهـم الخـواص الدنيئين الوضيعـين الذيـن كانـوا مع الإمام الحسـن(ع) وأرادوا أن يُسْـلِموه(ع) هكذا إلى عـدوه! أعادت زينب(س) السـؤال: أأنـت واثـق مـن أصحابـك؟ فقـال لهـا الحسـين(ع): أجـل يـا زينـب، اطمَئِنّـي، إنني واثـق منهم؛ «واللـه لقـد بَلوتُهُـم فَـمَا وَجَـدتُ فيهم إلّا الأَشـوَسَ الأَقعَـسَ يَستَأنِسـونَ بِالمَنِيَّـةِ دُوني استِئناسَ الطِّفلِ إلَى مَحالِـبِ أُمِّـه» (مقتـل الحسـين للمُقَـرّم/ ص٢٢٦). إن جانبًـا مـن عظمـة عاشـوراء هـو رهـن روعـة التولّي والتمسـك بالولايـة هـذا، التـولّي عنـد الأصحـاب الذيـن كانـوا يتبـارَون للاستشـهاد في سـبيل مولاهـم!....

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة7)

الزمان: 06/محرم الحرام/1442 - 26/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

لا يمكن إقامة العدل بالقوالب المستوحاة من المجتمع الغربي/ الحضارة الليبرالية مبنية على الإمساك، والحضارة الإسلامية قائمة على الإنفاق

يتاجر الله معنا لنكتسب قابلية أَخْذ "كل شيء"

لقد خلَقَنا الله جميعًا وفينا صفة المطالبة بـ»كُل شيء». ولا شك أنه تعالى لا يقصد إيذاءنا، وليس هو بمُهمِل لنا ولم يكن كذلك؛ فلو كان مُهمِلًا لنا لما خلَقَنا أساسًا. ولقد كان مُحِبًّا لنا، نحن عبادَه، قبل أن يخلُقَنا، واستمر حبه لنا بعد خلقنا حتى أودع في كياننا كل هذه القابليات المتميزة وأسْلَمَ كل أوليائه هؤلاء إلى مصارعهم في سبيل هدايتنا والأخذ بأيدينا. فواقعة عاشوراء هي علامة على ذروة حب الله تعالى لنا. العلامة الثانية على قمة محبة الله سبحانه لنا هي طول غيبة صاحب العصر والزمان(عج)؛ وهو أن يتجرع(ع) كل هذه الآلام ليهدينا من وراء حجب الغَيبة ويوصلنا إلى المستوى المنشود. لقد خلَقَنا الله عز وجل نريد كلَّ شيء، وهو سيمنحنا كل ما نريد؛ فليس الله ببخيل، إنه وَهّاب مِعطاء، بل إنه ما أصبح إلٰهًا إلا لكي يُعطي ويهب. بل إنه إذا تاجر معنا لا ينفك يُهيل علينا الأرباح ويعطينا من طَرَف واحد. فالله تعالى ليس بتاجر، نحن هم التجار.. إنه نحن الذين يُفترَض أن نربح في تجارتنا مع الله تبارك وتعالى. الله مُحبّ، مُحبّ يريد أن يمنحنا أشياء، مُحِبّ يحاول أن يُمَتِّعنا بلذات عالم الوجود كلها. كل ما في الأمر أنه يترقب أن نكسب نحن قابلية التمتع بها. فهو عز وجل لم يوجِد هذه التجارة بدافع بُخله وعلى خلفية أنه لم يشأ إعطاءنا كل شيء بالمجان، بل إنها لكي تكتسب أنت، بواسطة هذه التجارة، قابلية الحصول على كل شيء. فالرضيع لا يستطيع تناول طعام الكبار، وإن الأم تراقب نُمُوَّ طفلها لحظة بلحظة؛ تقول فَرِحة: تمكّنتُ اليوم من أن أُطعِمَه بعض الطعام! أو، مثلًا: أصبحتُ أُطَرّي البسكويت بالحليب وأطعمه إياه. فإذا جلس الطفل على المائدة وتناول الملعقة بيده وصار يأكل بمفرده، تطير أمُّهُ فرحًا؛ فلقد قاست المشَقّات والمتاعب لكي يصل ولَدُها إلى هذه المرحلة.

باختيارنا نكتسب قابلية أن يعطينا الله كل شيء

إنما خلَقَنا الله تعالى لأنه يحبنا، ليس ثمة أي علة أخرى لخَلْقنا. وقد خلقَنا نريد كل شيء، لأنه يحبنا. ولقد هيأ لنا أسباب التجارة والامتحان والاختيار لكي نكتسب، عبر اجتيازنا الامتحان بنجاح، القابلية والاستعداد والقوة لأن يعطينا هو كل شيء، فنشرب، ونأكل، وننظر، ونلبس، و..الخ. إنه تعالى يريد أن يعطينا كل شيء، ويُصِرّ على ذلك كل إصرار. فلأنه يحبنا يود أن يمنحنا كل شيء. العاطفيون فقط هم الذين يستوعبون هذه الأمور، فإن القاسي - الذي لا يحب أحدًا قط - لا يمكنه أن يدرك أن الله تعالى يحبه! يقول: من أجل ماذا يحبني الله؟! ما الذي يحبه فيَّ؟! الله عز وجل يعشق البشر. يقول لنفسه حين يخلق الإنسان: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ» (المؤمنون/١٤). يخاطبه: «لقد خلقتك في قمة الجمال. انظر إلى الكائنات. إنك أفضلُ منها. إن عالم الوجود جانب صغير من وجودك، الجزء الأعظم من فَنِّي خصَّصْتُه لخِلقَتك». لكن لماذا أقحمَنا الله في هذا الضيق إن كان يحبنا؟! لأنه علينا نحن أن نكتسب القابلية لتلقي كل شيء. الملائكة والحيوانات ليس باستطاعتها تلقي كل شيء لأنها لا تختار.. لأنها ليست حرة وهي عاجزة عن الكد لاكتساب استحقاقها، أما نحن فباستطاعتنا ذلك. لقد هيّأ الله عز وجل لنا مجال الكَدّ والكَدْح، ومجال الكدح هو الامتحان نفسه، ومجال الامتحان هو الاختيار ذاته. وإن واحدة من هذه «الكل شيء» التي يريد الله مَنحَنا إيّاها هي أن نحب أن نكون مختارين، وغيرَ مُجبَرين.. أن نكون مُبدعين، وأن نكون المقربين. وحين تَقرَّرَ أن يكون الإنسان مختارًا تَوَجَّب عليه أن يختار بين شيئين يحبهما؛ أن يفرِّط بأحدهما ويحتفظ بالآخر ليتحقق الاختيار. فإن المرء لا يختار بين الكباب والحصى أيهما يأكل، فليس ثمة هنا خياران للأكل، بل هو خيار واحد لا غير. فإنما يكون للاختيار معنًى حين يكون بين الكباب الحرام والخبز اليابس الحلال. إنه لا يكون لاختيارك معنًى إلا إذا اقترن بترك شيء محبوب، وهذا يعني أن تُعاني. وإنما بأشكال الاختيار هذه تتولَّد عندنا الأهلية لكي يعطينا الله كل شيء. لا تنسَ أبدًا أن الله تعالى يحبنا، ولو نسيَ المرءُ هذا هلَك. لا تنسَ أبدًا أن الله عز وجل إنما هيأ لك أسباب الاختيار لأنه يحبك ويرغب في منحك الحد الأقصى من الأشياء. لا تنسَ على الإطلاق أنك تستحق كل شيء، لا أفضل الأشياء فقط. لا تنسَ أبدًا أن الاختيار مقرون بالمعاناة، ولا تخشَ المعاناة! هذه هي المقدمة الأولى لبحثنا.

الذي يجعل الإنسان يسقط هو "الشُحُّ والإمساك"

المقدمة الثانية هي: ما الذي يحصل فيسقط الإنسان؟ اجتَز اختباراتك بنجاح وامضِ قُدُمًا. ألم تلعب إلى الآن ألعاب الحاسوب؟ إنك تنتقل، هكذا، من مرحلة إلى أخرى حتى تبلغ مستوًى أعلى، ثم تختار مرحلة أصعب. المراحل السهلة غير ممتعة لك. وإنما صُمِّمتْ ألعابُ الحاسوب لتحاكي حياتَنا. حذارِ من أن تخسر في لعبة الحياة! ما الذي يحصل للإنسان فيخسر؟ هذا الإنسان نفسُه الذي يريد كل شيء، والذي لا يعتريه أي عيب أو سوء؛ «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا» (الشمس/٧)، الإنسان الذي خُلق في قمة الجمال، ما هو الشيء الذي لا يُتقنه؟ لماذا يسقط؟ هذا الإنسان نفسُه الذي يريد الحصول على كل شيء يغفل عن قضية «الاختيار»، و»معاناة الاختيار»، و»ضرورة التنازل عن بعض محبوباته لينال محبوبات أكثر»، يود لو يحتفظ بالأشياء التي سبق أن امتلكها، يريد أن يكتنز، ولذا تراه لا يُقبِل على الاتّجارِ مع الله تعالى. اِتَّجِرْ يا هذا! فالله يقول: «أنا نفسي سأشتري منك، تاجِرْ معي». فيجيب الإنسان: «كلا، لن أُنفق!» وهذا هو سبب سقوطه؛ إنه «الشُحُّ والإمساك». علينا أن نتمرَّسَ على الإنفاق منذ أيام المدرسة، وعلى المدارس التي ترغب في تربية المراهقين تربية صالحة أن تعلِّمهم الإنفاق والبذل. بل هناك توصية للوالدين إذا رغبا في التصدُّق أن يضعا الصدقة بيد طفلهما فيدفعها هو إلى الفقير، ليتعلّم البذل. من الجميل أن تتصدّق يوميًا مرّةً في الصباح ومرّةً في المساء. فإن كنتَ تتصدَّقُ في الشهر ألف تومان مثلًا، فلا حاجة لأن تعطي ألف تومان، بل تصدّق بتومان واحد صباحًا وتومان واحد مساءً. كم سيكون المجموع؟ سيكون ستين تومانًا. هذا أفضل! فلربما ترك عددُ مرّات الإنفاق أثرًا عليك لكي يَسهُل عليك البذل والعطاء. فإن مأساة الإنسان تكمن في جَمْعِه المال.

إن كنا موطِّئين للظهور فلا بد أن ننظر إلى المواساة نظرة حضارية

لقد تخيَّل البعضُ أنني أخوض في بحث أخلاقي، بل ذهب البعض الآخر إلى أنني أُفرِغُ الدينَ من السياسية! لكنني سبق أن أكّدتُ أنكم لو شاهدتم درسًا في الأخلاق أو في العقائد لم يأخذ الجانب السياسي بنظر الاعتبار فلا تحضروه أصلًا لئّلا تنحرفوا. فلماذا أتكلّم الآن على البذل والعطاء؟ إننا نسعى إلى إرساء حضارة، حضارة مبنية على البذل. الحضارةُ الغربيةُ الآيِلَةُ للسقوط قائمة على جمع الأموال، وإن غاية قوانين هذه الحضارة قاطبة هي تسهيل عملية الجمع هذه. فما الذي نسعى إليه نحن؟ إن أغلب القوانين المُشَرَّعة في بلدنا أيضًا - وهو البلد الإسلامي - هي لتسهيل جمع الأموال. وهذه هي آثار الحضارة الغربية في هَيكَلِيّاتِنا. إننا لو نظرنا نظرة متفحصة لرأينا أن المواساةَ تُؤَسِّسُ لحضارة. وكأنّ المطلوب منا على أعتاب الظهور هو المواساة، وإلا لن نستطيع اجتياز هذه المرحلة بسلام. لماذا؟ لأن الحضارة المهدوية لا تقوم على الشُحّ، والبُخل، وعلى جمع الأموال، والاحتفاظ بالممتلكات. فإن هذه الأمور هي التي أورثت البشريّةَ التعاسَةَ والشقاء! وقد قرأنا معًا الحديث القائل: «حَرامٌ عَلَى الجَنَّةِ أنْ يَدخُلَها شَحيح» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٦٤). وعلى المنوال ذاته فإنه حرام على الجنة المهدوية أن يدخُلَها الشخص أو المجتمع البخيل أو الثقافة التي تدعو إلى البخل. إنْ كُنّا مُوَطِّئين للظهور فلا بد أن ننظر إلى المواساة نظرة حضارية، وذلك في مقابل الحضارة الغربية المتهرِّئة المتعَفِّنة الآيِلة إلى الاضمحلال. فلقد جاءت الحضارة الغربية لتُقِرّ جمع المال قائلة: فلنشرّع القوانين التي تَحُول دون نزاع الناس أثناء جمع المال. الحضارة الشرقية التي انهارت قدّمَتْ حلًّا لجمع المال، وقدَّمَت الحضارة الغربية أيضًا حلًّا آخر. فما هو الحل الذي قدّمَتْه الحضارة الإسلامية العُظمى؟ الجزء الأول من الحل هو: أُبسُطْ يدَك ولا تقع في حبائل التحفظ وإلا شقيتَ وسقطت.

حين يحتفظ المرء بما يحب يتحول تدريجيًّا إلى ظالم أو عبد للظلَمة

الأمة التي لا ترى جمع المال والاحتفاظ بالممتلكات وعدم البذل قبيحًا ستفنى. تساءلوا أنتم، في أي المَواطِن أقرَّ مجتمعُنا، بكل وقاحة، هذه الأنماط من جمع المال وعدم البذل؟ ما الذي يحصل فيسقط الناس؟ ما الذي يؤدي إلى فناء المجتمع البشري؟ إنه حين يواجهون ما واجهه سيدنا آدم(ع) أبو البشر من امتحان وهو أن يحتفظ لنفسه بما يملك. ولماذا امتحن الله تعالى آدم(ع)؟ لأن إحدى مطالبات آدم الجميلة هي أنه أراد أن يكون مختارًا. فمَن يا ترى لا يريد أن يكون مختارًا، ويريد أن يحيا كالخِراف؟! إنك حين صرتَ مختارًا تحتَّمَ عليك أن تختار بين شيئين تحبهما، أي أن تفرّط بأحدهما. وتكمن المشكلة في أن الإنسان عادةً ما لا يبذل، لا يعطي ما في يده. فماذا يحصل حين يحتفظ بمحبوباته؟ يحصل أنه إما أن يصبح - تدريجيًّا - ظالِمًا ويحاول سلب الآخرين ما يملكون أيضًا، أو يكون عبدًا للظلَمة. فليس الظَلَمةُ وحدُهم سيئين، بل إن عبيدَهم أسوأُ منهم؛ فإنهم الممهّدون للظُلم، والذين لا يسمحون ببسط العدالة. إذن فإننا نتحدث عن صفة أخلاقية إنسانية. بل يمكنك القول: إننا نخوض في رسالة دينية رصينة لها طابع استراتيجي لمجتمعنا. بل إن الموضوع أهم من هذا كله، إذ يُعَد هذا الكلام اليوم، سواءٌ بالنسبة إلى مجتمعنا أو المجتمع البشري عمومًا، كلامًا استراتيجيًّا لتجاوز الحضارة الغربية الآيِلة هي إلى السقوط؛ يقول تعالى: «إِنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقًا» (الإسراء/٨١). فلماذا نرى أراذل القوم وسِفلتهم هم مَن يحكم الولايات المتحدة دائمًا؟ انظروا إلى الدعاية التي كان قد أطلقها الرئيس الأمريكي الحالي (ترامب) نفسه! لقد أصبح هو الآن رئيس الولايات المتحدة، أي وَجْهَها أمام العالم. لماذا رؤساء الولايات المتحدة هم أعتَى المجرمين، لكن بلباس أنيق؟ لأنهم قد أقروا في مجتمعهم الاحتفاظ بالأموال والممتلكات ولم يروه قبيحًا. وحين تؤول الأمور إلى هذا المآل سيمتطيك كل صاحب ثروة أكبر.

من المتعذر إقامة العدل بالقوالب المستوحاة من المجتمع الغربي/ لن تكون ثمة عدالة دونما تقوى وإنفاق

القانون في الحضارة الغربية إنما يشرَّع لبسط النظام في مجتمع متوحش يتنازع أفراده من أجل البقاء، وإن من المستحيل بسط العدل في مجتمع كهذا. فالعدالة هي مؤشّر، وتعني أن يستقر كل شيء في موضعه. فماذا عسانا نفعل لكي يستقر كل شيء في موضعه؟ العدالة نفسها لا تستطيع الإجابة على هذا السؤال. الذي يجيب على هذا السؤال هو التقوى والإنفاق؛ فمن دون التقوى والإنفاق لن يكون ثمة عدل أيضًا. ما الشيء الذي يحُول دون بسط العدالة؟ إنه الإمساك والبخل. وإن مَن يتحدث عن العدالة ولا يتكلم في سبُل تحققها فقد يكون إنسانًا مخادعًا، أو ساذجًا على الأقل. حينما يموت أصلُ قضية المطالبة بالعدالة في المجتمع يتعيّن على المرء المناداة بالعدالة عاليًا، لكن عندما يكون الناس مقتنعين بموضوع العدل يكون على الجميع التوجّه صوبَ «سبُل بسط العدل». كيف يمكن أن تتحرك جميع بُنى نظام الحكم باتجاه العدالة؟ أَوَيتسنّى بسط العدالة من خلال هذه البُنى والقوالب المستوحاة من المجتمع الغربي الطافح بأشكال الظلم؟ ما الأشياء التي علينا تغييرها؟ حين نقول «بُنَى» فإننا لا نقصد القوالب الاجتماعية التي يغلب عليها الطابع الثقافي والرُؤيَوي، بل نقصد البُنى التي تسود المجتمع؛ كالنظام الاقتصادي، والنظام المالي والمصرفي، ونظام حقوق الأسرة. أيُّ هذه الأنظمة يقودُنا نحو الشُحّ والبخل؟ أيُّ واحد منها يُقِرّ صفة البخل؟ وأي بُنية تنأى بنا عن البخل وتحارب الشُحّ؟ أيُّ هذه البُنى يأخذ بأيدينا لنكون من أهل الإنفاق والعطاء؟

البخل جامع لكل سوء

في موضوع الأخلاق الأُسرية، وحين يقع النزاع بين المرأة وزوجها، يسوق الله تعالى في سورة النساء الجملة التالية: «وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ» (النساء/١٢٨)؛ أي إن البُخل حاضر دائمًا في نفس الإنسان. مرادُه عز وجل أنه: لماذا تتشاجران أيها الزوجان؟ تصالَحا! فلا هذه تُغضي على حقّها، ولا هذا يتنازل عن حقه، هذه تخشى على ما في حوزتها من الضياع، وهذا يخاف أن يفقد ما يملك. يقول تعالى: إن تتصالَحا فهو أفضل. لكن الله تعالى يتأسف هنا على الإنسان بقوله: «إنّ بخل المرء حاضر دائمًا، فالبشر يتنازعون فيما بينهم بسبب البخل، فلا استعداد لهم للإنفاق والبذل، ولا وجود للتنازل في قاموسهم!» روى أحدهم أنه رأى أبا عبد الله الصادق(ع) يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: «اللهُمَّ قِني شُحَّ نَفسي»؛ (أي خلّصني من البخل؛ على أنّ بين الشح والبخل فرقًا سنذكره إن شاء الله) «فقلتُ: جُعلتُ فداك، ما سمعتُك تدعو بغير هذا الدعاء! فقال(ع): وَأَيُّ شَيءٍ أَشَدُّ مِن شُحِّ النَفس، إنَّ اللهَ يقولُ: وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ المُفلِحون (الحشر/٩)» (البرهان في تفسير القرآن/ ج٥، ص٤٠٠). وسأقرأ عليكم بضع أحاديث في شُحّ النفس. روي عن الإمام الصادق(ع) قوله: «مَا رَأيتُ شَيئًا هُوَ أَضَرُّ لِدينِ المُسلِمِ مِنَ الشُّحّ» (بحار الأنوار/ ج٦٧/ ص٤٠٠). ونُقل عن أمير المؤمنين(ع) أنه قال: «إذا لَم يَكُنْ للهِ في عَبدٍ حَاجَةٌ ابتَلاهُ بِالبُخل» (الكافي/ ج٤/ ص٤٤). أو بعبارة أخرى: متى ما أراد الله أن ينبُذ عبدًا بعيدًا تركَه وحيدًا مع بُخله ولم يُعِنْه على التخلص منه. وعن أمير المؤمنين(ع) أيضًا فيما يتصل بالبخل أنه قال: «البُخلُ جامِعٌ لِمَساوِئ العُيوبِ وَهوَ زِمامٌ يُقادُ بِهِ إلى كُلِّ سُوء» (نهج البلاغة/ الحكمة٣٧٨).

سنستعمل للشُحّ والبخل لفظة "الإمساك" ونجعل لكل ألوان البذل والعطاء لفظة "الإنفاق"

إنني سأجعل للشُحّ والبخل وكل كلمة من هذا القبيل لفظة مشتركة، موجودة في القرآن الكريم أيضًا، وهي «الإمساك». وماذا هنالك في مقابل الشح؟ هنالك الزكاة. ولقد سبق أن أشرتُ إلى أنه، استنادًا إلى العديد من الروايات الواردة في باب الزكاة، يتوجب عليك أن تعطي زكاة كل ما تملك؛ أي أن تنفق شيئًا إزاء كل ما يعطيك الله عز وجل. فإنّ لكل لحظة من لحظات عمرك زكاة، وإن لكل شَعرَة من شعرات بدنك زكاة، بل إن لكل تفصيل في حياتك زكاة. وسأستعمل للمصطلحات من قبيل الزكاة، والصدقة، والقرض الحَسَن، والمواساة، وما إليها لفظة «الإنفاق»، وهي الأخرى مذكورة في القرآن الكريم، وهي تستعمل حتى لبذل النفس في سبيل الله. إذن سنجعل كلمة واحدة للتعبير عن منع البذل والعطاء هي الإمساك، وكلمة واحدة للتعبير عن كل أشكال البذل والعطاء هي الإنفاق. ولقد ساق القرآن الكريم تعابير شتى لبيان مظاهر الشُحّ في الإنسان؛ مثلًا يقول تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا» (المعارج/١٩)، وهذا مَظهَر من مظاهر الشح. ثم يقول: «إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا» (المعارج/٢٠)؛ فإنَّ جزَع الإنسان وفزعه عند البلاء هو مظهر آخر من مظاهر الشح. ثم يقول: «وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» (المعارج/٢١)، وهنا تشير كلمة «منوعًا» بصراحة أكبر إلى الشح والبخل. ويقول عز وجل أيضًا: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُورًا» (الإسراء/١٠٠)؛ أي لو كنتم تملكون هذه الخزائن لأمسكتم أيضًا عن الإنفاق، لما تتصفون به من البخل، وذلك خشية أن يتسبب الإنفاق بفقركم وعوزكم، وإن الإنسان لبخيل. وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع الكبرى وما أُولِي من اهتمام كبير من القرآن الكريم والسُنّة الشريفة فإنه لا يحظى بهذا الاهتمام في المجتمع ومناهج التعليم الديني والمدارس. لِمَ عدم الاهتمام هذا؟ ومَن ينبغي أن يهتم به؟ كل من يتعين عليه الاهتمام به تراه هو أيضًا يشكو بعض البخل. فليس الأمر كدرس العقائد إذ يقال لك: «آمِنْ بالله»، فتقول: «حسنٌ، أنا مؤمن بالله»، إذ ليس ثمة من متضرِّر هنا. فما الشيء الذي يعارضه الإيمانُ بالله في الإنسان؟ لا شيء! ولذا تراهم يُثبتون وجودَ الله لك في المدرسة والجامعة مئات المرات! إننا نطالب بمدارس تعلّم الأولاد محاربَة الشح في نفس الإنسان. إننا بحاجة إلى عمل تربوي. وليس هناك أيما فرق بين العمل التربوي وبين تلك البُنى والهيكليات السياسية والحضارية القائمة في المجتمع؛ كلاهما واحد.

الحضارة الماركسية والليبرالية قائمة على الإمساك، والحضارة الإسلامية مبنية على الإنفاق

إننا نسير باتجاه الحضارة الإسلامية، وإن الحضارة الإسلامية الأصيلة هي تلك التي لا تُبنى قوانينُها على أُسُس من الحرص والمنع والبخل والشح. ما الذي يجعل الحضارة الغربية توشك على الانهيار؟ ولماذا تكاد هذه الحضارة تَفنَى وهي التي بدت في بادئ الأمر في منتهى الروعة؟ وما الذي جعل الحضارة الماركسية الشرقية تنهار؟ نعم، ما تزال أطلالُها في الصين الآن، لكننا نرفض حتى هذه الأطلال؛ أي إننا لسنا على استعداد للتشبُّه بالصين لمجرد أن نتقدم اقتصاديًّا، بل إن هذا خطأ أيضًا. لا الحضارة الماركسية نجحت ولا الحضارة الغربية. لكن ما الذي في جُعبتنا نحن؟ وعلى أي أساس نريد نبني قولنا؟ حضارة أولئك قائمة على الإمساك، هذا وإن حاولوا معالجة الأخير عبر وضع حَلَّين خاطئين، أما حضارتنا فمبنية على الإنفاق. السؤال هو، أولًا: كيف بَنَوا هم حضارتَهم على الإمساك حتى آلَتْ الآن للسقوط؟ وثانيًا: كيف لنا أن نشَيّد حضارة على أُسس من الإنفاق لتبقى شامخة ومن ثم تتصل بحضارة الإمام المهدي(عج)، ويرانا(ع) أهلًا لرفقته؟ إن على كل فرد، أينما كان وبمقدار وِسعِه، أن يتمرس على هذا الأمر في حياته الشخصية، وإن على مسؤولي البلد أيضًا أن يتحركوا في هذا الاتجاه فيما يتصل بهيكلَة بُنى المجتمع الحقوقية وتدوين قوانين إدارة الدولة.

يا ليت مستوى الشُح عند الأشخاص قابل للقياس!

إن لديّ مطالبة، على أنني لا أدري إن كان بالإمكان تنفيذها أو لا؟ على سبيل المثال، مجلس صيانة الدستور لا يصادق على أهلية اللص والقاتل [عند الترشيح للانتخابات] لكنه يوافق على التغريبي الشغوف بالحضارة الغربية والذي يحمل هذا الفكر المتآكل، في حين أن الأخير إذا تولّى المسؤولية يَشلّ البلد شَلًّا. أوليس في التغريب وقاحة؟ ماذا تنتظرون من أشخاص كهؤلاء؟ إنهم لا يحسنون سوى التوسل بـ«عُمدة القرية» (أي أمريكا)! أَوَتنتظرون من أمثال هؤلاء بسط العدالة ورعاية المُعدَمين وما إلى ذلك؟! فلو كان الغرب قادرًا على ذلك لحَسَّن أوضاعَه هو! ليت مجلس صيانة الدستور أو المسؤولين يقدرون على قياس مستوى شُحّ المرء إذا أرادوا تَولِيتَه منصبًا. فالمرءُ، وإن كان فاضلًا، سيُلَطِّخ فضائله جميعًا إذا كان بخيلًا. وفي وُسعنا أن نَلحَظ في التاريخ أشخاصًا فاضلين قد لطَّخوا فضائلهم بسبب صفة الشح عندهم. كما كان البعض، مثلًا، يستنكر على النبي الأعظم(ص) كثرة بذله وعطائه!

إن الله لا يأخذ من الأم البخيلة طفلها ذا الستة أشهر..

كان الإمام أمير المؤمنين(ع) يعرف الذين ليس في أنفسهم شُحٌّ حق المعرفة، فقد كانوا أزهارًا في أجوافها جواهر. يُروى أن شيخًا أتى المدينة في أيام الخليفة الثاني يريد أن يدخل الإسلام، وكان الإمام علي(ع) يجلس في زاوية من المسجد غريبًا. فاستفسر الرجل عن كيفية دخول الإسلام، فقيل له أن ينطق الشهادتين، فنطقهما وأسلَم. فسأل عما يجب أن يفعل الآن، فعلّموه تكاليف دينه. وحين هَمّ بالرحيل أشارَ الإمام علي(ع) إلى ولديه الحسنين(ع) بالنهوض للذهاب. كان الإمام(ع) قد لمسَ جوهرة وجود هذا الرجل. فكأنّ أمير المؤمنين(ع) قد دنا من الرجل وسأله إن كان يعرفه فأجاب الرجل بالنفي، إذ إنه ليس من أهل هذه الديار وقد دخل الإسلام للتوّ. فقال له الإمام علي(ع) له: «أنا علي بن أبي طالب بن عم النبي(ص) وهذان ابناي من ابنته، وقد رغبنا في صهرك فأنكِحْنا». فكانت البنتُ التي خطبها من الرجل للحسين(ع) هي «الرباب» أُمّ عبد الله الرضيع! «قال: ...وأنكحتُكَ يا حسين الرباب بنت امرئ القيس» (الإصابة لابن حجر العسقلاني/ ج١/ ص٣٥٥). لقد ربّى هذا الرجل في بيته بنتًا ليس في وجودها مثقال ذَرّة من بُخل! البنت التي كان من المفترض أن تبذل أعزَّ ما عندها في سبيل الحسين(ع) في أشد لحظات عاشوراء حساسية! فالله عز وجل لا يأخذ من أم بخيلة طفلَها ذا الستة أشهر. انظر من كانت الرباب؟ وما الذي قالته في ذات نفسها؟ إن القرابين لا تُؤخذ من أي أحد...

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المجتمع (المحاضرة8)

الزمان: 07/محرم الحرام/1442 - 27/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

من الممكن أن نتخذ من الإنفاق والمواساة أنموذجًا لإدارة المجتمع والتأسيس لحضارة/ فلننظر إلى الإنفاق والمواساة نظرة أعمق من التصدُّق!

من الممكن أن نتخذ من الإنفاق والمواساة أنموذجًا لإدارة المجتمع والتأسيس لحضارة

سنتناول الليلة، إلى حد ما، الأبعاد الفردية لموضوع «الإنفاق»، في مقابل «الإمساك»، وهو الذي يُعَدّ اختبارًا مهمًّا للإنسان في الحياة الدنيا، أما في الليالي القادمة فسنتطرق - إن شاء الله - إلى أبعاده الاجتماعية والحضارية. إن لبعض مفاهيم ديننا دلالاتٍ اجتماعية جَمَّة، في حين يظن البعض أنْ ليس لها سوى الجانب الفردي. فالتقوى مثلًا ليست سلوكًا فرديًا محضًا، فإننا لو اتّخذنا من التقوى أنموذجًا فإننا سنحصل على ضربٍ من الإدارة على مستوى المجتمع. وكذا هو الإنفاق، الذي هو نقيض الإمساك؛ فلو أننا جعلنا من الإنفاق الوجه المشترك لجميع المفاهيم الدالة على البذل والعطاء (مثل الزكاة، والتصدُّق، والمواساة، ...إلخ) فمن الممكن أن نتخذ منه أنموذجًا لإدارة البلد، والمجتمع، والتأسيس لحضارة؛ الحضارة نفسها التي سيقيمها الإمام صاحب الزمان(عج)، والتي ستكون العدالة إحدى صفاتها البارزة. فإنه لا بد، من أجل تصميم الحضارة الإسلامية وتعريفها، من التركيز على مصطلح «الإنفاق» المفتاحي. لا بد أن نطبّق هذه المفردات والمفاهيم بمعانيها الفردية وسنجد - بطبيعة الحال - أن آثارها الاجتماعية ستتحقق أيضًا. فقد رُوي عن نبينا الكريم(ص) قوله: «كَما تَكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيكُمْ» (النهاية في غريب الحديث والأثر/ ج١/ ص١١٦)؛ أي كيفما تكونوا يكون الحاكم الذي يحكمكم. فحين يسود بين الناس «الإنفاقُ» لا «الإمساك» فلن يمسك مقاليد أمورهم مسؤولون سيّئون، وهذه أول الآثار الاجتماعية السياسية لمثل هذه المفاهيم.

يصرّح الله عز وجل: "أريد أن أختبركم بما أعطيتُكم"

يقول الله عز وجل في مُحكم كتابه العزيز: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (الأنعام/١٦٥). وإن الحد الأقصى لمعنى قوله: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» هو أنّ في وسع الإنسان أن يكون خليفة الله في الأرض، وهو مقام للإنسان في قمة السُموّ. أما الحد الأدنى من معناه فهو أن الإنسان يرث أسلافَه وأنّ ما كان لديهم من إمكانيات هي الآن تحت تصرفه. «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ»؛ أي هناك فوارق بين بعضكم البعض، وأنا مَن أَوجَدَ هذه الفوارق؛ فترى البعض أقوى بامتلاك أشياء معيَّنة، وترى البعض الآخر يمتلك أشياء أخرى أكثر وهو أقوى بها. يستهل الله تعالى كلامه بوصف عامٍّ لحياة الإنسان ثم يقول: «لقد جعلتكم خلفاء لي في الأرض وأوجَدتُ بينكم فوارق أيضًا. ثم يقول: «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم»؛ أي لأختبركم بالأمور التي أعطيتكم إياها. إذن الله عز وجل يقولها بكل وضوح: «أريد أن أمتحنكم بالأشياء التي تملكون». وإذا بالإنسان مشغول بتملُّك المزيد! وإنكم لتعلمون أن الحد الأدنى من اجتياز الاختبار في الممتلكات بنجاح هو الشُكر، وإن التوقع الطبيعي لله تعالى منا فيما يتصل بما نملكه هو أن «نُنفِق» ونَبذُل منه. يقول القرآن الكريم في موضع آخر: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجًا وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرات» (المائدة/٤٨)؛ أي جعلنا لكُلِّ واحدٍ منكم شريعة وطريقًا واضحة... لكن الله عز وجل يريد أن يمتحنكم بالأشياء التي أعطاكم إياها (ويُنَمّي مواهبكم المختلفة)، إذن فسابِقوا بعضَكم بعضًا بالخيرات والحسنات. يقول تعالى: «لقد خلقتُكم وبينَكم فوارق لأختبركم بما تملكون». إذن على الإنسان أن يعي أن كل ما يملك هو عُرضَةً للامتحان، وأن الله إنما أعطاه إياه ليمتحنه به، وأنه سيفقد كل واحد من هذه الممتلكات بطريقةٍ ما. كلام الله تعالى هذا هو في منتهى الصراحة، ولا بد أن نُوليه اهتمامًا لكي ترسخَ، بإذن الله، في المجتمع - شيئًا فشيئًا - فكرةُ أنه «ليس من المُفتَرَضِ أن نحتفظ بشيءٍ»، وذلك من باب كون هذه الفكرة ضربًا من التأهُّب الروحي أو قيمةً من القيم.

إن لم ينفق الإنسان في سبيل ولي الله، فسينفق من أجل عدو الله!

إن من العقلانية بمكان أن نتنازل طواعِيَّةً - لكن في سياق أوامر الله تعالى بالطبع - عما نملك (كأن نُنفِقَ وَنُزَكّي، ..إلخ)، وإلا فإننا سنُسلَبُ هذه الممتلكات بأفظع الطرق! وإن من أسوأ الطرق التي يَستَرِدُّ اللهُ بها من الإنسان ما يملك هي أن الأخير إذا لم يتحرك من أجل ولي الله ولم ينفق في سبيله فسينفق في سبيل عدو الله؛ أي إنه سيرى نفسه في أوضاع تضطره إلى أن ينفق من أجل عدو الله، ويبذل له من كرامته، وهذه قمة القباحة؛ «مَنْ لَمْ يُنْفِقْ فِي طَاعَةِ اللهِ ابْتُلِيَ بِأَنْ يُنْفِقَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ، وَمَنْ لَمْ يَمْشِ فِي حَاجَةِ وَلِيِّ اللهِ ابْتُلِيَ بِأَنْ يَمْشِيَ فِي حَاجَةِ عَدُوِّ اللهِ عَزَّ وَجَل» (من لا يحضره الفقيه/ ج٤/ ص٤١٢). ولا تقتصر القدرات والممتلكات على الأموال، فإن الله تعالى سيمتحننا بكل ما أعطانا. ويا ليت الأمرَ يقف عند إفناء الله لممتلكاتِنا هذه إذا ما أخفقنا في الاختبار؛ كأنْ يسرقها سارق، أو شيئًا من هذا القبيل، إلا أن بعض أنماط العقوبات التي يُنزِلها الله سبحانه بعباده، على الخصوص في ما يتصل بقضية ولي الله، هي أشد من هذا بكثير. إن لموضوع الإنفاق أبعادًا سياسية اجتماعية واسعة النطاق جدًّا، يرتبط جزء منها بولي الله. على سبيل المثال، إن لم ينفق امرؤٌ كرامتَه وسُمعتَه في سبيل ولي الله فسيبتليه الله عز وجل بأن ينفقهما من أجل عدو الله. وهذا الصنف من الأفراد في مجتمعنا نحن لم يكونوا قلة؛ أحدهم كان بمستوى مرجع تقليد، وإذ إنه لم ينفق سمعته وماء وجهه في سبيل الإمام الراحل(ره)، تسرّبَ عنه شريطُ تسجيل فيما بعد يبذل فيه ماءَ وجهه من أجل رئيس الولايات المتحدة!

إن لم تكن على أُهبَةٍ روحيةٍ للعطاء فلن يتقبل الله منك أكثر تضحياتك

هـذا الإنفـاق والعطـاء (في مختلـف أبعـاده) اختبـار مهـم، وعلينـا أن نسـتعد لمثلـه. ولا بـد أن يكـون تأهّبُنـا لـه عـلى مسـتوى مـن العُلُـوّ مـا يجعلُنـا نخاطـب اللـه جـل شـأنه كلـما اسـتيقظنا صباحًـا قائلـين: «إلهـي، مـا الـذي عـليَّ إنفاقُـه الآن؟» عـلى أننـا، مـن خـلال هـذا الامتحـان، سـنحصل عـلى الكثـير أيضًـا، فـإن اللـه تعـالى لا يعطّـل حياتَنـا. وإن للدفـع والعطـاء قواعـد؛ فـلا ينبغـي إنفـاق كل شيء متـى مـا كان وأينـما كان، لكـن لا بـد أن نكـون عـلى اسـتعداد روحـي لهـذا عـلى أيـة حـال. فـإن لم تكـن مسـتعدًا روحيًـا للعطـاء فـإن اللـه لـن يقبـل أكـثر قرابينـك، بـل لـن يمنحـك الاسـتحقاق لتقديـم أكـثر التضحيـات. كان الشـهداء يضحّـون ضجيجًـا مـن أجـل الشـهادة. ينقـل قائـد الثـورة الإمـام الخامنئـي (حفظـه اللـه) في ذكـرًى عـن أحـد الشـهداء أنـه شـاهد في المنـام، قبـل استشـهاده، شـهيدًا آخـرَ فسـأله: «مـا الـذي عـليَّ صنعُـه لأستشـهد؟» فأجابـه: «عليـك بـذرف الدمـوع.. الدمـوع!» أي إن الأمـر لا يُحَـلّ بطلـب بسـيط. وإن لموضـوع العطـاء وإنفـاق مـا في اليـد دائـرةً في منتهـى السـعة، أحـد مظاهرهـا الشـهادة. يجـب أن تكـون جهوزيتـك بحيـث لا تقـول: «إن لـزم الأمـر، فـلا منـاص مـن ذلـك، يجـب أن أُنفـق!» فـإن قلـتَ ذلـك فـإن اللـه تعـالى سـيتوقف عـن القبـول منـك بعـد حَـدٍّ معـيَّن.

فلننظر إلى الإنفاق والمواساة نظرة أعمق من التصدُّق!

إذا أردتـم أن يتنظّـفَ مجتمـعٌ ما من أنواع السرقة، ولا يأكل مسـؤولوه الريع، ولا تسـتشري فيه سـلوكيات تتناسـب مـع النظـام الرأسـمالي الظـالم الجائـر، ولا يتـولى المناصب فيـه مسـؤولون متغرّبون، ...إلـخ فبَرِّزوا فيـه «الإنفـاق» عـلى نحـو موصول. لا ينظـرَنَّ البعـضُ إلى موضوع الإنفاق والمواسـاة نظرة سـطحية فيظن أن المواسـاة هـي التصدُّق عينُـه! فـإن التصـدّق والمسـاعدات بدافع الإيمان ليسـت هي إلا مسـتوًى ضئيلًا مـن المواسـاة، إذ إن للأخـيرة حـدودًا في قمـة العلُـوّ لا يمكننـا تطبيـق بعضهـا إلا في زمـن مـا بعـد الظهـور.

علينـا أن ننظـر إلى الإنفـاق نظـرةً أعمـق بكثـير، لا في حـدود التصـدّق! فدفـع الصدقـات موجـود في الـدول الغربيـة أيضًـا؛ إذ حتـى الكارتـلات والتراسـتات تقيـم المؤسسـات الخيريـة، وتتصـدق عـلى الفقـراء ببعـض المـال، وتَظهَـر بمظهـر المُحسـن، وقـد تكـون بعـض هـذه السـلوكيات صادقـة أيضًـا. فهـؤلاء الذيـن يتسـببون بأفـدح حـالات الفقـر والحرمـان في العـالم يدفعـون إلى بعـض الفقـراء بعـض الفلـوس. مـا أقصِدُه مـن الإنفـاق والعطـاء ليـس هـذه الأمـور.

كل مسؤول متغرّب هو مولّد للفقر في المجتمع

إن كل متغـرّب وكل مسـؤول متغـرّب فكريًّـا هـو مولِّـد للفقـر في المجتمـع. ومـن أجـل أن لا يكـون لدينـا مسـؤول متغـرّب فـلا بـد أن تُـبَرِّزوا موضـوع الإنفـاق والمواسـاة كل تبريـز وتمنحـوه أهميـة كـبرى وتؤكّـدوا عليـه بشـدة. خـلال العـام أو العامَـين الماضيَـين، وفي أحلـك الظـروف الاقتصاديـة التـي يمُـرّ بهـا البلـد، شُـيِّد في إحـدى مـدن البـلاد عـدد كبـير مـن الفِلَـل، بعضهـا لمسـؤولين. وحتـى لـو لم تكـن هـذه الفِلَـل مـن أمـوالٍ مسروقـة وشُـيِّدت بشـكل قانـوني - عـلى أنّ أكثرهـا لم يحصـل عـلى تصاريـح قانونيـة - فيجـب أن نتسـاءل: «مـن أيـن لكـم هـذه الأمـوال؟!» لسـنا بُخـلاء، لكـنّ بنـاءَ هـذا العـدد مـن القصـور في غضـون عامـين بعيـدٌ كل البعـد عـن المواسـاة، هـذا وهنـاك بـين أصحابهـا مسـؤولون أيضًـا! هـذا الوضـع تفصلـه عـن ثقافـة المواسـاة مسـافةٌ شاسـعة. وإنـه ليتحتّـم علينـا في مثـل هـذه المَواطـن أن نأخـذ بتلابيـب أمثـال هـؤلاء قائلـين لهـم: «أيـن عيـشُ المواسـاة خاصَّتُـك؟!»

لكي تنفق في سبيل الله لا بد أوّلاً أن تُكثِر التوسل إلى الله ليوافق

لـكي ننجـوا مـن السـقوط والهـلاك (سـواء سـقوط الفـرد أو هـلاك المجتمـع) علينـا أن نبلـغ حـد التوسّـل إلى اللـه عـز وجـل ليعِينَنـا عـلى البـذل والعطـاء. ومـن النـماذج عـلى هـذا الأمـر هـو قـول الشـيعة ومُحِبّـي أهـل البيـت(ع) علَنًـا إذا جـاؤوا أئمـة الهـدى(ع): «جُعِلـتُ فِـداك!» ولم تكـن هـذه مبالغـة، كـما لم يكـن الإمـام(ع) يمنعهـم مـن هـذا قائـلًا: «لا داعـي لـكل هـذه الأحاسـيس!» كلا، بـل إن واجبهـم كان يحتِّـم عليهـم ذلـك. اسـتعدّوا للبـذل والإنفـاق. نبـي اللـه آدم(ع) فكّـر لحظـة في أنـه: «أتريـد الاحتفـاظ بـكل هـذا إلى الأبـد؟» فانتهـى الأمـر! لقـد سـقط.. أي تركـه اللـه، فسـقط أرضًـا.

بعض مراتب العطاء سهلة، بل واجبة

يجب أن نكون على استعداد للعطاء في سبيل الله، وأن نعلم أنه عز وجل لا يقبل منا بسهولة! فمن أجل الشهادة مثلًا عليك أن تذرف الدمع.. أن تنتحب، فإن الله لا يقبل قربان كل امرئ بكل بساطة. الله تبارك وتعالى لم يقبل من إبراهيم الخليل(ع)! بالطبع لا أقصد أن إبراهيم(ع) قصَّرَ في تقديم قربانه، بل قصدي هو أن الأمر ليس بهذه البساطة. إن بعض مراتب الإنفاق سهلةٌ، بل وواجبةٌ أيضًا، وإنّ على الدولة الإسلامية أن تتعامل معها بجدية؛ مثل قضية الزكاة. بالطبع نحن نعاني اليوم من بعض المشاكل في هذا المجال؛ كموضوع الضرائب، وكل ما شابهها. إذن في ما يتصل بالبذل والإنفاق فإن على الدولة الإسلامية أن تنهض بجانب منه، وفي جانب آخر منه فإن من الواجب عليك أنت أن تدفع، وفي جانب ثالث لا بد أن تبذل قصارى جهدك، وتخاطب ربك: «إلهي، أين عليَّ أن أنفق نفسي، ومواهبي، وقدراتي؟» في أي مجال نريد أن ننفق قدراتِنا في سبيل الله؟ إنْ كنا نرغب في العمل، فماذا علينا أن نصنع؟ علينا – بادئ ذي بِدْء – أن نتوسل كل توسل، ونستجدي من الله المِنّة، قائلين: «يا إلهي، أريد أن أخصص وقتًا (للبذل)، أتوسّل إليك... أُقسِمُ عليك بأوليائك...». فيقول الله تعالى: «كم تريد أن تخصّص من الوقت لذلك؟». فنقول: «يا رب، أُخصِّصُ ساعتَين في اليوم». ولربّما يقول لك الله: «أَقبَلُ منك دقيقتَين فقط!» هذا إذا قَبِل، وأعطاك فرصة العمل من أجله. ثم بعد العمل يأتي الدَورُ لمسألة أنّه: هل سيقبل عملك أو لا؟! إن موضوع البذل والإنفاق ليجنِّن الإنسان. العقيلة زينب(س) جاءت إلى المصرع (يوم الطف) تتوسّل إلى ربها أن يَقبَلَ منها أخاها الحسين(ع)! «إِلهِي، تَقَبَّلْ مِنّا هذا القُربان» (عوالم العلوم والمعارف والأحوال/ ج١١/ ص٩٥٨).

لربما يكون بذل النفس أهون من بذل السمعة، وبذل السمعة أهون من تخصيص الوقت!

لا بد أنكم سمعتم أن «بعض الناس يحملون أرواحهم على أكفهم»؛ وهذا يعني أنهم حاضرون للتنازل عن أرواحهم وبذلها. والآن يوجد آخرون قد حملوا ليس الأرواح فقط، بل باقي ما يملكون أيضًا على أكفهم ليقدّموها لربهم. على أن بذل النفس أحيانًا يكون أهون من بذل السمعة، وإن بذل السمعة أحيانًا يكون أهون من تخصيص الوقت لأمر ما! فالبعض لا يخصّص وقتًا حتى للإعجاب ببضعة منشورات على شبكات التواصل، أو حتى لمتابعة بضع صفحات اجتماعية رصينة، ليُعلن: «أنا من أنصاركم». بل لا رغبة له أساسًا في نشر منشور، أو تأسيس صفحة، أو التواصل مع بضعة أشخاص، أو المجاهدة قليلًا (في مجال تنوير الآخرين)... في الخبر إن الله تعالى إذا كره عبدًا من عبيده شغل قلبه شغلًا لا يتفرغ معه لتخصيص بعض الوقت لربه، وإذا به يقول: «للأسف، ما عندي وقت!» لا تخطئ يا هذا، بل للأسف هو الذي لا يفسح لك المجال؛ «...وَإِنْ لَا تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ قَلْبَكَ شُغُلًا بِالدُّنْيَا، ثُمَ لَا أَسُدَّ فَاقَتَكَ، وَأَكِلْكَ إِلَى طَلَبِكَ» (الكافي/ ج٢/ ص٨٣). إن على الذين يخصصون وقتًا للموكب الحسيني، ويُوَفَّقون لفعل شيء للحسين(ع) أن يُكثِروا من السجود شكرًا لله تعالى. وإن عليك إذا قرأت زيارة عاشوراء أن تسجد لله شكرًا؛ وكأنك تخاطب ربك: «إلهي، أنا مُمتَنّ لك أن سمحتَ لي أن أخصّص وقتًا لهذا».

لا يقبل الله القرابين من كل أحد/ إنْ تردّدتَ قليلاً ساعة البذل فـ...

المشكلة هي أن الله تعالى لا يقبل بهذه البساطة من كل أحد. فعندما جاء الإمام الحسين(ع) إلى عُبيد الله بن الحر الجعفي ودعاه إلى نصرته، قال عبيد الله: «وَاللهِ مَا خَرَجتُ مِنَ الكوفَةِ إلّا مَخافَةَ أَنْ تَدخُلَها، وَلا أُقاتِلَ مَعَكَ، وَلَو قَاتَلتُ لَكُنتُ أَوَّلَ مَقتول»؛ أي: إني أعلم أنك لن تنتصر. فتركه الحسين(ع). ثم قال عبيد الله: «وَلٰكِنْ هٰذا سَيفي وَفَرَسي فَخُذهُما!» وكان أهل البيت(ع) يقبلون الهدايا، لكن الإمام الحسين(ع) هنا أعرض عنه بوجهه وقال: «إذا بَخِلتَ عَلَينا بِنَفسِكَ فَلا حَاجَةَ لَنا في مَالِك» (تفسير نور الثقلين/ ج٣/ ص٢٦٨-٢٦٩). أَوَهَل يقبلون من الآخرين بهذه البساطة؟!

في ما يخص موضوع الإنفاق عليك أن تجتث أصول الإمساك من قلبك بالكلية. فما إن تتردد (بالإنفاق) قليلًا حتى يقول الله: «يا ملائكتي، لا تمتحنوه امتحانَ إنفاقٍ من الطراز الأول أبدًا». ليس الله بغائب عن أعماق قلب الإنسان إذا امتلك هذا شيئًا وتعلّق به ولم يحب تركه، فهو تعالى ينظر إلى أعماق قلبه. ففي الخبر إن الله ينظر إلى ما يُسِرّه الإنسان في أعماق نفسه فيُخرجه (إن كان خيرًا أو شرًّا) ويُلبسه إياه كالرداء: «مَن أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ» (الكافي/ ج٢/ ص٢٩٦). والسِرّ هو ما خفي من مكنون القلب، وإن الله تعالى يرتّب مقدَّرات الإنسان على أساسٍ من سِرّه. إن الله تعالى لا يتقبل القرابين من كل أحد، فانظر إذن مَن كانت «الرباب» حتى يتقبل الله عز وجل منها هذا القربان العظيم؟ تفحّص ما كان يجول في أعماق سِرّها؟ أَوَتُقبَل القرابين بهذه البساطة؟! انظر أي عظمة كانت لسيدتنا الزهراء(س) وما كان يجول في قلبها حتى تقدّم كل هذه التضحيات الجسام؟!

إن لم تُطِق بذل بعض ما تملك فتوسّل بربك

على المرء أن يُنَقّي قلبَه ويهيئَه. حتى وإن لم تُطِق بذل بعض ما تملك فلا بأس عليك، توجّه إلى ربك مناجيًا متوسّلًا به؛ قل له، على سبيل المثال: «يا رب، لستُ أستطيع... إن لي بيتًا، لكني عاجز عن التبرع بنصفه في سبيلك. اللهم ارحمني فإني ضعيف، بَيدَ أني أحب أن أبذل في سبيلك كل وجودي، أوَدّ لو أمنح صاحب الزمان(عج) كل وجودي...». ناجِ الله بخصوص هذه المسائل عَلَّهُ يدبّر لك أمرًا. إن لم يحصل الفتى الذي يشارك في مجالس أبي عبد الله الحسين(ع) على توقيع على صك شهادته من الإمام الحسين(ع) فما الذي حصلَ عليه يا ترى؟! أسأل الله أن يطيل في عمرك ويديم عزك ويجعل حياتك وَقفًا لأبي عبد الله الحسين(ع)، لكن هل سيقبلون منك؟! هل سيأخذون منك شيئًا؟ عَلَّهم يأخذون منك ذاتَ يوم مالًا أو سُمعة. في النهاية أُبذُل شيئًا ما...

يقال إنه حينَ لم يأخذ الله تعالى من إبراهيم الخليل(ع) ولَدَه أخذَ بالبكاء، وحين استفسر الله منه عن سبب بكائه وانقباض قلبه تعلل نبي الله(ع) بأنه: أوَيمكن أن لا يقدم العبد بين يدي ربه أضحية؟ حذار من أن نكتشف ساعة الاحتضار أننا لم نقدم في سبيل الله تضحية تُذكر. يقال إن كل من ليس في بدنه يوم القيامة جُرحٌ من حرب سيحس نقصًا كبيرًا لا يمكن سَدُّه! حذار من أن يكون أمرنا بحيث لا نصاب ولو بجرح واحد في سبيل الله تعالى! والقرآن الكريم صريح جدًّا في هذا المجال؛ فمنطِقُه أنه: أَوَيُمكن أن يتساوى الذين لم يتضرروا في سبيل الله أدنى ضرر (أو بالأحرى لم يقدّموا أي تضحية) مع ذوي الدرجات العالية عند الله؟! «لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدينَ دَرَجَة» (النساء/٩٥). فكيف نستأصل هذه الأمور من قلوبنا؟ نستأصلها بالدعاء، والمناجاة، والتوسل...

من شأن الوصول إلى "حقيقة العبودية" أن يجتث أصول الإمساك من النفس

ولأتلُ عليكم حديثًا عرفانيًّا، يهتم به العرفاء غاية الاهتمام. بالطبع جميع الأحاديث عرفانية بشكل من الأشكال، لكن أرباب المعرفة يُولُون بعضَها اهتمامًا أكبر. يقول المرحوم السيد القاضي: «اكتبوا هذا الحديث، واحملوه وواظبوا على قراءته». العمَلان اللذان كان سماحته يوصي بهما أكثر من غيرهما هما قراءة زيارة عاشوراء وقراءة هذا الحديث، وهو «حديث عنوان البصري» (مشكاة الأنوار في غرر الأخبار/ ص٣٢٧). كان عنوان البصري يُصرّ على رؤية أبي عبد الله الصادق(ع) وقد قصده مرارًا لكن الإمام كان يرفض لقاءه متذرّعًا بأن لا وقت لديه. ولم يكن عنوان البصري معتقدًا بإمامة الإمام الصادق(ع)، لكنه في الوقت ذاته لم يكن مسلمًا سيّئًا، فقد كان يُوَقّر أهل البيت(ع). كان يعتقد بغزارة علم الإمام الصادق(ع) ويود لقاءه ليتعلّم منه شيئًا. يقول عنوان:

«فَدَخَلْتُ مَسْجِدَ الرَّسُولِ(ص) وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الرَّوْضَةِ وَصَلَّيْتُ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ وَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا اللهُ أَنْ تَعْطِفَ عَلَيَّ قَلْبَ جَعْفَرٍ وَتَرْزُقَنِي مِنْ عِلْمِه». فأذِنَ لي بعد ذلك لما قصَدْتُه. «فَجَلَسْتُ، فَأَطْرَقَ مَلِيّاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَبُو مَنْ؟ قُلْتُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ. قَالَ: ثَبَّتَ اللهُ كُنْيَتَكَ وَوَفَّقَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ». يقول عنوان: «فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ زِيَارَتِهِ وَالتَّسْلِيمِ غَيْرُ هَذَا الدُّعَاءِ لَكَانَ كَثِيرًا». فقال الإمام(ع): «مَا مَسْأَلَتُكَ؟ فَقُلْتُ: سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَعْطِفَ قَلْبَكَ عَلَيَّ وَيَرْزُقَنِي مِنْ عِلْمِكَ... فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَيْسَ الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ» أي يقع في قلب عبدِه الحقيقي. فكل من كان عبدَ الله حقًّا علَّمه الله من علمه؛ «فَإِنْ أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ... قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ؟ قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ» ويعدّد الإمام(ع) ثلاثة أشياء، الثاني والثالث منها متصلَين في واقع الأمر بالأول. ونستطيع القول إن الإمام(ع) قد طرح حقيقة يمكن من خلالها اقتلاع جذور الإمساك من نفس الإنسان.

حقيقة العبودية هي "عدم إحساس المِلكية" وهو ما يسَهِّل الإنفاق على المرء

يقول(ع): حقيقة العبودية ثلاثة أشياء: الأول أن لا يرى العبدُ أنه يملك شيئًا: «أَن لا يَرَى العَبدُ لِنَفسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللهُ مِلكًا». فإن رأى العبدُ نفسَه مالكًا فلن يتمكن بعد ذلك من ضبط نفسه. لَقِّن نفسك أنْ: «أنا لستُ مالك شيء! الأشياء التي في حوزتي أعاروها لي مؤقّتًا». فلنعتقد بهذا الشيء، فإن إحساس المِلكية يُهلك الإنسان؛ «لِأَنَّ العَبِيدَ لا يَكُونُ لَهُمْ مِلْكٌ» أي إن الرقيق لا يملك شيئًا خاصًّا به. بالطبع شباب عصرنا لا يفهمون معنى «الرقيق» لأنهم لم يرَوا رقيقًا في حياتهم. في ذلك الزمن، حيث كان للناس عبيدٌ وأرقاء وكانوا يدركون معنى العبد، كانت هذه العبارة مفهومة تمامًا، أما الآن فاستيعابها صعب بعض الشيء بالنسبة إلينا. لكن فلتحاولوا تصور الموضوع على أية حال؛ العبدُ أو الرقيق لا يشبه العامل أو الخادم في البيت، إنه شيء أفظع من هذا بكثير.

وبعـد أن قـال الإمـام(ع): «لِأَنَّ العَبِيـدَ لا يَكُـونُ لَهُـمْ مِلْـكٌ» يضيـف(ع) أنهـم لا يحسـون أنهـم يملكـون شـيئًا، والـذي لا يحـس بأنـه يملـك شـيئًا سـينفق مـا أمـره اللـه بـه بـكل سـهولة: «يَـرَوْنَ المَـالَ مَـالَ اللـهِ يَضَعُونَـهُ حَيـثُ أَمَرَهُـمُ اللـهُ بِـهِ». فحقيقـة العبوديـة هـي عـدم إحسـاس المِلكيـة وهـو مـا يُسَـهِّل الإنفـاق عـلى الإنسـان كثـيرًا، وهـذا هـو سر المعرفـة. حقيقـة العبوديـة هـي سر المعرفـة؛ أي إن باسـتطاعتك أن تفهـم العالَـم مـن خـلال هـذا الموضـوع.

حين لا ترى نفسَك مالِكًا لشيء فلن تدبّر شؤون نفسك ولن تحتَجَّ على تقدير الله

ثـم يقـول(ع): «وَلا يُدَبِّـرُ العَبـدُ لِنَفسِـهِ تَدبِـيرًا»؛ فحـين لا تـرى نفسـك مالـكًا فإنـك لـن تدبّـر شـؤون نفسـك؛ أي إنـك لـن تَحتَـجَّ عـلى تقديـرات اللـه عـز وجـل. والعبـارة الثانيـة هـذه هـي مـن أجـل حقيقة العبوديـة. والثالـث: «وَجُملَـةُ اشـتِغَالِهِ فِيـمَا أَمَـرَهُ تَعَـالَى بِـهِ وَنَهَـاهُ عَنـهُ»؛ أي ليـس في حياتـه كلهـا مـن شُـغل يشـغَله سـوى امتثـال أوامـر اللـه تعـالى والانتهـاء عـن نواهيـه؛ فهـو غـير مشـغول بجمـع المـال، ولا بالاكتنـاز، ولا بالتباهـي، ولا بالتحسُّر، ولا بالحسـد. يقـول في ذات نفسـه: «مـا لي وهـذه الأمـور؟!» افـرض أن صاحـب عمـلٍ ناولـك مسـحاةً وسـألك: «أتعمـل عنـدي ليـوم واحـد إزاء أجـر يومـي؟» فأجبته: بـلى. فـإذا بالمسـحاة التـي ناولـك إياهـا مثلومـة مـن طرفها، فرُحـتَ أنـت تتمتم مسـتنكرًا: لماذا المسحاة مكسـورة؟ يـا هـذا، ومـا شـأنك أنـت؟! أنجـز أنـت عملَـك بهـذه المسـحاة بالـذات. نحـن حسَـبْنا لـك أجـرًا يوميًّا، فاعمـل بهـذه المسـحاة المكسـورة المقـدارَ الـذي تقـدِر عليـه. فالمسـحاة مسـحاتنا، والحديقة حديقتنـا، وأنـت تقبـض أجـرك، إذن باقـي الأمـور لا تخصـك أنـت... ألا وإن حياتَنـا كلَّهـا إزاء مالكنا (وهو اللـه جـل وعـلا) هـي هكـذا! تقـول: «إلهـي، هـذا الجـزء مـن منـزلي معيـوب». يقـول لـك: «لكنـه ليـس منزلَـك، أنـا الـذي أعطيتك إيـاه». تقول: «لكن أعصابي سـتتحطم بهذه الطريقة!». يجيبـك: «ولماذا تتحطم أعصابـك؟!». «لأني لا أسـتطيع أن أعمـل جيّـدًا». «فليكُـن! لا أريـدك أن تعمـل لي أكـثر من هـذا المقدار».

ثـم يضيـف: «لا تَحسَـبْ نفسَـك مالـكًا أصلًا، إن لم تَحسَـبْ نفسَـك مالـكًا فلـن تعـترض». «ومـاذا أصنـع حينئـذ؟! بمـاذا أشـغَل نفـسي؟». «اِشـغَلها بامتثـال أوامـر اللـه». «إذن فوجّـه أنـتَ لي الأوامـر، ولا شـأن لي بباقـي الأمـور». إن مسـتوى هـذه الروايـة عـالٍ جـدًّا.

حين لا يرى العبدُ نفسَه مالكًا يَسهُل عليه الإنفاق

يتابـع الإمـام(ع): «فَـإذا لَـم يَـرَ العَبـدُ لِنَفسِـهِ فِيـما خَوَّلَـهُ اللـهُ تَعـالَى مِلـكًا هـانَ عَلَيـهِ الإِنفـاق»! عـلى سـبيل المثـال حـين أمـر الإمـام الصـادق(ع) أحـد أصحابه بأن يدخـل إلى التنـور امتثل هـو في الحال ودخل التنـور! قـد تقـول لـه أنـت: «احـترس مـن الاحـتراق...». فيجيبـك: «جسـدي ليـس مِلـكي، الواجـب عـليَّ هـو امتثـال الأوامـر!» حينـذاك يرتقـي فَهْـمُ أمثـال هـؤلاء رُقِيًّـا حتـى تُـزاح مـن أمـام بصائرهـم كل أنواع الحُجُـب والجهـل. يقـول(ع) في الحديـث: «هـانَ عَلَيـهِ الإِنفـاقُ فيـما أَمَـرَهُ اللـهُ تَعـالَى أَن يُنفِـقَ فيـه».

عندما تُسَلِّم لقضاء الله وقَدَره تهون عليك مصائبُ الدنيا

يتابـع(ع): «وَإِذا فَـوَّضَ العَبـدُ تَدبـيرَ نَفسِـهِ عَـلَى مُدَبِّـرِهِ هـانَ عَلَيـهِ مَصائِـبُ الدُّنيـا». جـاء في الخـبر أن رجـلًا شـكى لأبي عبـد اللـه الصـادق(ع) مـا يقـاسي مـن الأوجـاع فقـال(ع) بحسـب الروايـة: «يـا عبـدَ اللهِ لَـو يَعلَـمُ المُؤمِـنُ مَـا لَـهُ مِـنَ الأَجـرِ فِي المَصائِـبِ لَتَمَنَّـى أَنَّـهُ قُـرِضَ بِالمَقاريـض» (الـكافي/ ج٢/ ص٢٥٥). وعـن أبي جعفـر(ع) قـال: «إِنَّ اللـهَ تَبَـارَكَ وَتَعـالى إِذا أَحَـبَّ عَبْـدًا غَتَّهُ [خنقـه] بِالبَـلاءِ غَتًّا وَثَجَّهُ [أَسـالَه] بِالبَـلاءِ ثَجًّا فَـإِذا دَعـاهُ قَـالَ: لَبَّيـكَ عَبـدِي لَـئِن عَجَّلـتُ لَـكَ مَـا سَـأَلتَ إِنِّي عَـلَى ذَلِـكَ لَقَـادِرٌ وَلَـئِنِ ادَّخَرتُ لَـكَ فَـمَا ادَّخَـرتُ لَـكَ فَهُـوَ خَـيرٌ لَـك» (الـكافي/ ج٢/ ص٢٥٣). انظـر أي عالَـم يرسـمه الإمـام(ع) لنـا!

أول درجات التقوى هي أن لا نشعر بالمِلكية/ شعورنا بالمِلكية يعني أننا لم نبلغ أول درجات التقوى

ويضيـف الإمـام(ع): «وَإِذا اشـتَغَلَ العَبـدُ بِمـا أَمَـرَهُ اللـهُ تَعـالَى وَنَهاهُ لا يَتَفَـرَّغُ مِنهُـما إِلَى المِـراءِ وَالمُباهاةِ مَـعَ النّـاس»؛ أي حـين يشـتغل المـرء بامتثـال أوامـر اللـه سـبحانه ونواهيـه لا يجـد وقتًـا للأمـور الأخـرى، مـن مثـل المباهـاة مـع النـاس وقيـاس نفسـه بهـم، وأمثـال هـذه المـآسي.

ثـم يقـول(ع): «فَـإذا أَكـرَمَ اللـهُ العَبـدَ بِهٰـذِهِ الثّلاثَـةِ هـانَ عَلَيـهِ الدُّنيـا وَإِبليـسُ وَالخَلـقُ»؛ أي سـيرى الدنيـا حقـيرة، ويصبـح إبليـس عنـده عبـدًا طريـدًا، بل لـن يهمه النـاس ومـا يقولونـه. «وَلا يَطلُـبُ الدُّنيا تَكاثُـرًا وَتَفاخُـرًا، وَلا يَطلُـبُ عِنـدَ النّـاسِ عِـزًّا وَعُلُـوًّا»؛ ولا يجمـع أمـوال الدنيـا، ولا يتفاخـر أمـام الآخرين، ولا يفتـش عـن العـزة عنـد النـاس فيشـقَى، لا يريـد أن يُمتطَـى ولا أن يَعلُو. ثم يقـول(ع): «وَلا يَـدَعُ أَيّامَهُ باطِـلًا»، وهـذه العبـارة تهـم الشـباب. فحـين نتحـدث عـن الإنفـاق والتكاثـر ومـا إلى ذلك سـينبري الفتى الـذي هـو في سـن الثانويـة قائـلًا: «ومـا الـذي أملك أنـا كي أعطي للآخريـن؟!» لكـن الإمام(ع) يقـول هنا: «لا يَـدَعُ أَيّامَـهُ باطِـلًا»؛ أي لا يُمـضي عمـرَه في الأباطيـل، ولا يُتلـف وقتـه بالعبـث. فالـذي ينبـذ الشـعور بالمِلكيـة جانبًـا لا يُتلـف وقتَـه بالأمـور العبثيـة. ثـم يقـول(ع) في آخـر الحديـث: «فَهٰـذا أَوَّلُ دَرَجَـةِ المُتَّقـينَ»! فتأمّـل مـاذا سـتكون درجـات التقـوى الأعـلى منهـا؟! فـأول درجـات التقـوى إذن هـي أن لا نشـعر بالمِلكيـة. لكننـا نشـعر بالمِلكيـة، فمـن الواضـح إذن أننـا لم نبلـغ حتـى الدرجـة الأولى مـن التقوى.

أفضل تمرين على عدم التعلق بالدنيا هو شَغْل الذهن بالشهادة وبسيد الشهداء(ع)

كيـف كان الإحسـاس بالمِلكيـة يتبـدد عنـد المجاهديـن في جبهـات القتـال؟ طالعـوا وصاياهـم. كتـب أحدهـم في وصيتـه: «أبي، أمـي، الدنيـا لا قيمـة لهـا! لا تتعلّقـا بهـا!» هـذا ونحـن لا نملـك دنيًـا. فالدنيـا لا تسـتحق أن يتعلـق المـرء بهـا حتـى لأولئـك الذيـن يملكونهـا. فـما بالنـا نحـن الذيـن لا نملكهـا! لمـاذا نحن متعلقـون بهـا؟! البعـض لا دنيـا لـه، لكـن تـراه متشـبّث بهـا أيمـا تشـبث، وأمثـال هـؤلاء مخلوقـات مخيفـة جـدًّا. والبعـض الآخـر أقبلَـتْ عليـه الدنيـا وهـو ذائـب فيهـا تمامًـا. أمثـال هـؤلاء أيضًـا تُعَسـاء مـع الأسـف. فـإنْ أراد المـرء اجتثـاث الدنيـا مـن قلبـه فيجـب عليـه أن يشـاهد عـن كثـب أولئـك الذيـن اجتثّوهـا مـن قلوبهـم، ونبَـذوا الشـعور بالمِلكيـة بعيـدًا، ولا يجمعـون المـال، وهـم مـن أعـماق قلوبهـم لا يسـعَون للاحتفـاظ بمـا يملكـون. ليـس إنهـم لا يملكـون شـيئًا، فنحـن لا نعـارض الـثروة؛ فقـد يكـون الرجـل مـوسِرًا وصالحًـا في الوقـت ذاتـه، ليـس متعلّقًـا بالدنيـا قيـدَ شَـعرة، ويُنجـز بأموالـه أعـمالًا جَمّـة.

علينا أن نتمرس على عدم التعلق بالدنيا، وأفضل تمرين في هذا الميدان هو أن تشغل ذهنك بالشهادة، وتتردّد كثيرًا على سيد الشهداء(ع)، وتُكثِر من قراءة المراثي له. فقراءة المراثي هذه أمر عجيب للغاية! لقد تشرّدت العقيلة زينب(س) بعد استشهاد أخيها أبي عبد الله الحسين(ع) من خَرِبة إلى خربة. إلهي، ألا تدَعْها - في أسوأ ساعاتٍ يمكن أن تمُرّ على بشر؛ أي بعد استشهاد كل أحبّائها - تنزوي في ركن قَصِيّ فتنتحب! يا رب، وكأنك لا تريد إنهاء الأمر! لقد ضحَّت بكل أحبّتها، أَوَيتحتّم عليها فوق ذلك أن تبذل كل ما تملك، بشتى الصور، في سبيل الله؟! هذه المراثي والمآتم هي أروع دروس لنا في البذل والعطاء. كم نادى ذوو الشهداء عند جثامين أحبتهم: «فداء لرأس السيدة زينب!» يا زينب، لقد تمسكنا بك... اِرمِ بطَرفِك إلى سيد الشهداء(ع)، هذا هو الدرس الذي علينا استقاؤه من محرم والمآتم. لا بد أن يحصل في مجالس عزاء أبي عبد الله الحسين(ع) أعظم أشكال الإنفاق والمواساة. لا بد لأسوأ أنواع الكروب والمآسي التي يعيشها المؤمنون المحرومون أن تُفَرَّج في شهر مُحرّم. فهذا الشهر هو شهر البذل والعطاء.

حين يريد الحسين(ع) قطعَ تعلّق امرئٍ بالدنيا فإنه يحدّثه عن نبي قطيع الرأس!

ما الإحساس الذي يجب أن يجتاحك حين تجد نفسك في العشرة الأولى من المحرم في أجواء أبي عبد الله الحسين(ع)؟ إنه إحساس أنّ علينا أن نستلهم من الشهادة هذا الدرس، وهو: « أنّ علينا قطع تعلّقنا بالدنيا»، وهو الأسلوب الذي انتهجه أبو عبد الله(ع) نفسُه. بحسب ما ينقله مقتل أبي مِخنَف فإنه لما عزم أبو عبد الله الحسين(ع) على الرحيل جاءه عبد الله بن عمر وحذره من الذهاب، فوعظه الإمام الحسين(ع) من أنه لا قيمة لهذه الدنيا؛ فهي الدنيا ذاتها التي كان بنو إسرائيل فيها يذبحون أنبياءهم صباحًا ثم ينشغلون بأعمالهم وممارسة حياتهم العادية نهارًا، ودعاه هو أيضًا إلى نصرته؛ «...ثُمَّ جاءَ عَبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فَأَشارَ عَلَيهِ بِصُلحِ أَهلِ الضَّلالِ وَحَذَّرَهُ مِنَ القَتلِ وَالقِتالِ.

فَقالَ(ع): يا أَبا عَبدِ الرَّحمٰنِ، أَمَا عَلِمتَ أَنَّ مِن هَوانِ الدُّنيا عَلَى اللهِ تَعالى أَنَّ رَأْسَ يَحيَى بْنِ زَكَرِيَّا أُهدِيَ إِلَى بَغِيٍّ مِن بَغايا بَني إِسرائيلَ؟! أَما تَعلَمُ أَنَّ بَني إِسرائيلَ كانُوا يَقتُلُونَ مَا بَينَ طُلُوعِ الفَجرِ إِلى طُلُوعِ الشَّمسِ سَبعينَ نَبِيًّا ثُمَّ يَجلِسونَ في أَسواقِهِم يَبيعونَ وَيَشتَرونَ كَأَنْ لَم يَصنَعوا شَيئًا... اتَّقِ اللهَ يا أَبا عَبدِ الرَّحمٰنِ وَلا تَدَعْ نُصرَتي» (بحار الأنوار/ ج٤٤/ ص٣٦٥). فحين يود الحسين(ع) أن ينتزع حب الدنيا من قلب امرئ يحدّثه عن نبي قطيع الرأس! ما الذي ينبغي للشهادة أن تصنع بقلوبنا؟!

بوسع عزاء سيد الشهداء(ع) أن يقطع تعلقاتنا بالدنيا

حين بلغ الإمامَ الحسين(ع) خبرُ مقتل مسلم بن عقيل ظل الجميع يترقب ما سيقوله(ع)، وهل سيواصل المسير أو يعود؟ لاحظ عبارة الإمام الحسين(ع) هنا: «لا خَيرَ في العَيشِ بَعدَ هٰؤُلاء» (الإرشاد للشيخ المفيد/ ج٢/ ص٧٥)؛ أي: إنني، الحسين، قد قطعتُ تعلقي بالدينا بعد سماع خبر شهادة مسلم بن عقيل! على أن الإمام(ع) دائمًا مقطوع التعلق بالدنيا ولم يتشبّث بها يومًا، لكنه يعلّمنا أن: متى ما سمعتم خبر استشهاد شخص كونوا هكذا. ماذا قال الإمام الحسين(ع) بعد شهادة ولَده علي الأكبر؟ قال: «عَلَى الدُّنيا بَعدَكَ العَفا» (مناقب آل أبي طالب(ع)/ ج٤/ ص١٠٩). بل إن المرء ليكره البقاء في مثل هذه اللحظات. هذا هو أثر الشهادة. أتصلُح الدنيا التي يُمطَر فيها علي الأكبر بالنبال للإقامة؟! شهادة أبي عبد الله الحسين(ع) والمراثي التي تُتلى علينا بهذه المناسبة لا تحتاج معها إلى دروس أخلاق، فالعزاء وحده كافٍ، ويتعين أن ينتزع قلوبَنا من الدنيا، الدنيا التي لم تحتفظ بأعز ما يملك الحسين(ع)، وهو ولده علي الأكبر(س)، لحظة واحدة. ساعةَ توجَّه علي الأكبر إلى ميدان القتال وحين استأذن أباه في القتال أَذِنَ له الحسين(ع) دون أي تردد: «اِمضِ عزيز قلبي!» كي لا يُفهَم أنه: «من الصعب عليَّ بعض الشيء أن أضحي بأعزِّ ما أملك، كلا، أبدًا....».

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاك المجتمع (المحاضرة9)

الزمان: 08/محرم الحرام/1442 - 28/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

تترك ثقافة المواساة على المجتمع ثلاث بصمات مهمة/ في الأمة التي تتفشّى فيها المواساة لا يُفرَض أمثالُ أبي موسى الأشعري على علي بن أبي طالب(ع)

إعانة الناس هي درجة من المواساة، وإن للأخيرة درجات أعلى من هذه بكثير

عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «مـا حُفِظَـتِ الأُخُـوَّةُ بِمِثـلِ المُواسـاة» (غـرر الحكـم/ ص٦٩٠). بالطبع إن إعانة المتضررين هي درجة من درجات المواساة، وإن للأخيرة درجات أعلى من هذه بكثير. يروى أن الإمام الباقر(ع) سأل الحجاج بن أرطاة: «يَـا حَجَّـاجُ، كَيْـفَ تَوَاسِـيكُمْ؟» قال: «صَالِـحٌ يَـا أَبَـا جَعْفَـر» ولعله أضاف أننا نُعنى بفقرائنا وذكَر بعض السلوكيات الأخلاقية الخيّرة المتعارَفة. وكأنّ الإمام(ع) لم يرَ هذه السلوكيات كافية، بل كان يتوقع أن يُدخل الفرد منهم يده في كيس أخيه بكل سهولة وأنه ليس ثمة عندهم حدود بين المِلكيات الفردية؛ «قَالَ: يُدخِلُ أَحَدُكُم يَدَهُ في كيسِ أَخيهِ فَيَأخُذُ حاجَتَهُ إذا احتاجَ إِلَيه؟» قال الحجاج: «أَمّا هذا فَلا. فَقالَ(ع): أَما لَو فَعَلتُم ما احتَجتُم» (كشف الغمة/ ج٢/ ص١٢١). وروي عن الإمام الباقر(ع) قوله لشيعته عن الأُخوّة: «لَم تَتَواخَوا عَلى هذا الأَمرِ وَإِنَّما تَعارَفتُم عَلَيه» (الكافي/ ج٢/ ص١٦٨)؛ أي إنكم لم تتآخوا على أمر الولاية وإنما تعرفون بعضَكم بعضًا، وهذه ليست أُخوّة! فالأُخوّة إذن مفهوم في منتهى العمق. كما يُروى أن أحدهم سأل الإمام الصادق(ع) عن حق المؤمن على أخيه المؤمن فأجابه الإمام(ع) أنْ دَعكَ من هذا، إني أخشى أن لا تكون لك طاقة به! وبعد الإلحاح اكتفى(ع) بذكر بعضها ولم يذكرها كلها؛ «قُلتُ لِأَبِي عَبدِ اللهِ(ع): ما حَقُّ المُؤمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ؟ قَالَ: سَبْعَةُ حُقُوقٍ وَاجِبَاتٍ... قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ حَدِّثْنِي مَا هِيَ. قَالَ(ع): وَيْحَكَ يَا مُعَلَّى، إِنِّي شَفِيقٌ عَلَيْكَ أَخْشَى أَنْ تُضَيِّعَ وَلَا تَحْفَظَ وَتَعْلَمَ وَلَا تَعمَلَ! قُلْتُ: لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. قَالَ(ع): أَيْسَرُ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهَ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ. وَالْحَقُّ الثَّانِي»...إلخ (الخصال/ ج٢/ ص٣٥٠-٣٥١). آمل أن أكون مخطئًا في احتمالي من أن أمامنا امتحانًا بالمواساة والأخوّة، فإن كان هذا صحيحًا فالأمر في غاية الصعوبة! ففي خبر آخر يشكو فيه أمير المؤمنين(ع) من عدم تآخي المؤمنين فيما بينهم فيقول: «إِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ وَسُوءُ الضَّمَائِرِ، فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّون» (نهج البلاغة/ الخطبة١١٣)؛ فلا يساعد بعضُكم بعضًا عند المعضلات، ولا يشفق بعضكم على بعض، ولا يبذل الواحد منكم ويعطي في سبيل أخيه، ولا يود بعضكم بعضًا.

مفهوم المواساة يفوق مفوم التصدّق، ولا يمكن أن يكون علمانيًا

نريد الليلة أن نتحدث عن الأبعاد الاجتماعية للأخوّة، والمواساة، بل وما فوقهما؛ أي الإنفاق، الذي يشمل ألوان البذل والتضحيات. إني لأَعجبُ من أنني حين أتكلم على المواساة تتصور بعض الجماعات، التي تبدو عليها الثورية والثقافة، أن المواساة خصلة أخلاقية في مستوى التصدّق ومساعدات المؤسسات الخيرية، ولذا يقولون: «هذا يمارَس في الغرب أيضًا! إنك قد هبطتَ بنا من المطالَبة بالعدالة إلى مستوى التصدّق وفعل الخير!» يقولون: «المواساة هي التصدق!» ما هذا التفسير الذي يحمله البعض؟! إن مفهومًا مثل المواساة يختلف عن التصدق اختلافًا جذريًا، ويَسمُو عليه جدًا، ولا يمكن أن يكون علمانيًا. بالطبع منهج تعليم الدين في مدارسنا ومعظم أساليب تبليغ الدين هي – من حيث لا نشعر – علمانية إلى حد ما.

تصوَّرَ البعض أن ليس في جعبة الدين شيء لإدارة المجتمع، فمال إلى الأفكار الغربية

لماذا نظرتنا إلى الدين نظرة علمانية أساسًا؟! في أوائل أيام انتصار الثورة كان البعض ثوريًا إلى النخاع لكنّ نظرته إلى الدين نظرة علمانية. هؤلاء أنفسهم قد غدو الآن من المعارضين للثورة وممن يعلّق الصهاينةُ عليهم كل آمالهم. لكن لماذا بلغوا هذه المرحلة؟ لِمَ باتوا تغريبيّين إلى النخاع؟ باتوا كذلك لأنهم كانوا يظنّون أن ليس في جعبة الدين ما يقوله حول إدارة المجتمع فمالوا، من أجل ذلك، إلى الأفكار الغربية. وما زال البعض في أيامنا هذه يحمل هذه القراءة الخاطئة ويظن أن المواساة لا يمكن أن تكون حلًا لعلاج مشاكل المجتمع الاقتصادية أو مشروعًا لنظام اقتصادي يقود إلى بسط العدل ويشكّل محورًا لحضارة. أي المفاهيم الدينية هو غير ثوري؟ على سبيل المثال، هل إن مجالس دعاء كميل، أو البكاء على أبي عبد الله الحسين(ع)، أو صلوات الجماعة هي مسائل فردية غير ثورية؟ طالب العلوم الدينية الذي يعتقد أن المواساة تصدُّق لا بد أن يظن أن صلاة الجماعة عمل عبادي محض عارٍ عن السياسة! إن ظن أحدُهم أن البعد السياسي لصلاة الجماعة أضعف من بعدها المعنوي فقد أخطأ في فَهْم دين الله. أوَيُعقل أن يدعو الدينُ الناسَ إلى التجمع في المسجد ثلاث مرات في اليوم ولا يكون له من وراء ذلك غرضٌ سياسي؟!

أي حكم فردي للدين لا يحمل بُعدًا سياسيًّا؟!

أساسًا، أيّ حكم فردي للدين لا يحمل بُعدًا سياسيًّا حتى تكون المواساة ثانيَهُ؟ كان الإمام الراحل(ره) ينظر إلى البكاء، بل الدمعة الواحدة على الإمام الحسين(ع) من زاوية سياسية اجتماعية فيقول: «ما تذكُره الروايات للقطرة الواحدة (على الحسين(ع)) من كل هذا الثواب يشير إلى أن أهل البيت(ع) كانوا، منذ البداية، يحملون مشروعًا. إنّ تخصيص كل هذا الثواب ليس من أجل عاطفتك التي هي ذات طابع فردي، بل من أجل تظاهرات حب الحسين(ع) التي لها أثر سياسي، أي إنها تمنح الأمة القوة». «لِمَ يجعل الله تبارك وتعالى كل هذا الثواب الجزيل للبكاء، بل للدمعة الواحدة، بل للتباكي [على الحسين(ع)]؟... المهم في الأمر هو هذا البُعد السياسي الذي أرسى أئمتُنا(ع)في صدر الإسلام مشروعَه ليظل إلى النهاية؛ وهو هذا التجمع تحت بيرق واحد، وحول فكرة واحدة. وليس لأي فعالية أن تترك من الأثر ما يتركه عزاء سيد الشهداء(ع)» (صحيفة الإمام/ ج١٦/ ص٣٤٤).

مفهوم المواساة أشد سياسيةً من العدالة بكثير

ويذكُر سماحة الإمام الخميني(ره) هنا، وهو الفقيه، السبب من وراء ذلك قائلًا: «من أجل ذلك فإنك تجني الثواب ذاتَه حتى وإن لم تبكِ، بل اتخذتَ حالةَ البكاء (التباكي) وحسب؛ ذلك أنك تظاهرتَ بحب الحسين(ع) وإن لهذا أثرًا سياسيًّا». ويَذكُر سماحته(ره) أن أهل البيت(ع) كانت لديهم، منذ البداية، خطة من أجل الآثار السياسية للعزاء الحسيني والبكاء فيه. إن البعض يسمي نفسه «ثوريًّا» لكنك لا تشم فيه ذرة من رائحة مدرسة الإمام الراحل(ره)! الإمام الذي كان يقول: «والله إنّ الإسلام كله سياسة» (صحيفة الإمام/ ج١/ ص٢٧٠). المواساة أشد سياسية من العدالة بكثير. وشأن سائر المفاهيم في ديننا، فإن للمواساة أبعادًا اجتماعية وأبعادًا سياسية معًا. بل إن لها، إلى ذلك، من الأبعاد ما يمكن أن يقود إلى تصميم أنظمة اجتماعية؛ أي أنظمةٌ حقوقية، ونظامٌ اقتصادي. إني لأستغرب كيف لا ينظر البعض إلى المواساة على أنها نظام اقتصادي! كيف يتصور البعض أن المواساة هي التصدق لا غير؟!

أول آثار الإنفاق والمواساة تقوية الوشائج الاجتماعية بين أفراد المجتمع

إن أول آثار البعد الاجتماعي للإنفاق هو تقوية الوشائج الاجتماعية. فحين يرسخ الجانب الفردي للإنفاق، والمواساة، والزكاة، والخمس، وبذل النفس في سبيل الله؛ وبعبارة أدق: «الإنفاق والمواساة بالمعنى الأعم للكلمة» - حين يرسخ هذا الجانب في نفس كل فرد من أفراد مجتمعٍ ما ويتحوّل إلى قيمة فيه تزداد الأُلفة بين أفراده ويختفي القسم الأكبر من الأزمات. يظن البعض أن المواساة هي أن يتصدّق الغني على الفقير! لكنها أعمق من هذا. نعم، قد يكون التصدق هو أحد معاني المواساة، بل إن الأمر أحيانًا هو هكذا. لكن المواساة هي أن تقول لأخيك في الدين: «لا يجوز لي أن أملك أكثر منك. خذ أنت هذا المقدار من ممتلكاتي». فإن تعزيز الأواصر الاجتماعية هو أهم آثار الإنفاق والمواساة.

حين تزداد الأُلفة في المجتمع نلمس بوادر "الأخوّة الإسلامية"

حين تزداد الألفة الاجتماعية فإننا - على حد قول أمير المؤمنين(ع) - سنلمس بوادر «الأخوّة الإسلامية». وقد أكد الإمام الباقر(ع) لصاحبه أنه لو كان أحدُكم يدخل يده في كيس أخيه لما أصابكم العَوَز والفاقة قط؛ «فَقَالَ(ع): أَما لَو فَعَلتُم ما احتَجتُم» (كشف الغمة/ ج٢/ ص١٢١). وإن الله تعالى موجود، وهو ذو أثر، ولا تأخذه سِنَة. فحين يراكم تتعاملون فيما بينكم بهذه الطريقة يغيّر مقدّرات العالَم لكم، أما إذا رآكم تأنفون من ذلك فسيبيدكم، أو يأخذكم بالشدائد على أقل تقدير. فلو فعل كل واحد منا ذلك لقَوِيَت أواصرُنا الاجتماعية. ولكم أن تستفسروا عن أنه: «أيّ كنز عظيم هذه الأواصر الاجتماعية!» فالله عز وجل يقول لنبيه الكريم(ص): إن الذين معك هم «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم» (الفتح/٢٩)، وإنك: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم» (الأنفال/٦٣). الألفة بين أفراد المجتمع هي على هذا الجانب من الأهمية. فلو خرج الإنفاق والمواساة عن مجرد نسج الخيال وطرح الأفكار، وطُبِّق على أرض الواقع، وتحوّل إلى ثقافة وقيمة في المجتمع فسينبري حينئذ ولَدي - حتى لو بقيتُ أنا مُمسِكًا - ليقول لي: «لماذا تريد كل شيء لأنفسنا؟ لماذا تُودِع أموالَك في المصرِف؟ لماذا أنت أناني إلى هذه الدرجة؟ ...إلخ» ولذا فإني سأُرغم، شيئًا فشيئًا، على التراجع عن ثقافة الإمساك هذه.

ثاني بصمات ثقافة المواساة هي عدمُ فَرضِ أمثالِ أبي موسى الأشعري على علِيّ(ع)

ما هي البصمة الثانية التي تتركها ثقافة المواساة على المجتمع؟ البصمة الثانية لهذه الثقافة هي أن ذوي الفكر الليبرالي، وأصحاب المنحى الليبرالي في الاقتصاد، والشغوفين أو المنبهرين بالليبراليين في مجتمع كهذا لن يحصدوا الأصوات. وهذا أول أثر سياسي للمواساة. أما إذا غابت هذه الثقافة من المجتمع فمن الطبيعي أن يجني أصواتَ الشعب في الانتخابات مَن هم ليسوا من أصحاب المواساة، بل ومِن آكلي الرَيع أيضًا. إن على من يتوقع العدل من نظام الحكم أن يلتفت إلى أنه: «هل ثمة في التاريخ حُكم أعدلَ من حُكم علي بن أبي طالب(ع)؟!» لكنه في ذلك المجتمع بالذات، وتحت ظل ذلك الحكم العادل لعلي(ع) نفسه فَرضَ حفاةُ الأمة أبا موسى الأشعري على علي(ع)؛ أي الرجل الذي اختلس بالريع من بيت المال أفواجًا من الإبِل! وليس في يد أمير المؤمنين(ع) فعل شيء في مجتمع كهذا. إذن الأثر الثاني لتفشي ثقافة المواساة في الأمة هو عدم فرض أمثال أبي موسى الأشعري على أمير المؤمنين(ع). فلقد شاهد الناس أن عليًّا(ع) رجل زاهد، وعلموا أن أموال أبي موسى الأشعري بلغت حتى رأسَه وهو يسكن قصرًا فخمًا جدًّا ...إلخ، ومع ذلك يفرضون أبا موسى الأشعري على علي(ع)! فإذا بأبي موسى الأشعري لا يُبدي تجاه معاوية أي حساسية. إن لدينا الآن ساسةً لا يُبدون تجاه أمريكا أي تحفّظ. أَوَتظنّ أن الشخص الليبرالي المنحى في ميدان السياسة والذي منطقه هو: «لا بد أن نذوب في المجتمع الدولي» لديه الجرأة والقدرة على التفكير في وضع مشروع للبلد غير الذي يمليه النظام السلطوي على العالم؟! وليس هذا المنطق بالغريب والجديد، فلقد كان الإمام الراحل(ره) يقول: «المسؤول الذي لم يَعَضَّه وجعُ الحرمان ليس بمقدوره العمل للجماهير». كما قال قائد الثورة (حفظه الله): «لا تُؤسِّسوا لعيش الأشراف». فإن تولّيتَ منصبًا فأرجوك أن لا تهيّئ لولَدِك الريع حتى إذا كان يحمل استحقاقًا ما أو كان مؤهَّلًا لذلك «بالوراثة!».

آمل أن يعمل برلماننا على تغيير نظامنا الاقتصادي والمصرِفي

أمثال أبي موسى الأشعري لن يعملوا يومًا على دفع هيكليات المجتمع الاقتصادية باتجاه العدالة. وإني لأرجو أن لا يخيّب مجلسُ الشورى الإسلامي [البرلمان] آمالَنا وأن يعمل على تغيير نظامنا المالي والاقتصادي والمصرفي. فنظامنا المصرفي ليبرالي، ولو تقرَّرَ أن يوجَد في برلماننا أيضًا ثوريون ينظرون إلى مفهوم المواساة نظرة علمانية وفردية فلا محالة أن أشخاصًا كهؤلاء سيفتشون عن القوالب الغربية من أجل أنموذجٍ للعدالة الاقتصادية. يحتاج الكثير من أصدقائنا الثوريين إلى اجتياز دورات تدريبية. فالثورية ليست أن توجِّه مواقفك السياسية فحسب، بل هناك مشاكل عليك أن تعالجها. فإن لم تمتلك شجاعة التغيير فاعتذرْ من قائد الثورة الإمام الخامنئي واستَقِلْ من مجلس الشورى وخاطب الشعب: «طالبتمونا هذا العام بالتغيير لكننا لا نمتلك الشجاعة لذلك». قائد الثورة يعلّق آماله بكم، وهذا يزيد ثقل المسؤولية على كواهلكم. لنرى إن كنتم قادرين على خلق التغيير أو لا؟

الأثر الثالث لثقافة المواساة هو "الاقتصاد الجماعي"/ أدعوكم لمطالعة آراء سماحة آية الله الشاه آبادي(ره) الاستراتيجية

الأثر الثالث لثقافة المواساة في المجتمع هو تبلور ثقافة «الاقتصاد الجماعي». فالمواساة هي أن نعمل ونكسب المال سوية. وإن «العمل وكسب المال سوية» يعني أن نتعاون ونطلق مشاريع اقتصادية بشكل جماعي، وهذا هو الأنموذج الأساسي الذي يقترحه آية الله الشاه آبادي(ره) لاقتصاد المجتمع الإسلامي. أدعوكم بإلحاح لقراءة المقال الذي كتبه حجة الإسلام والمسلمين يوسفي في هذا المضمار. وهناك أيضًا كتاب «جنگ سرد ايران و آمريكا» (الحرب الباردة بين إيران والولايات المتحدة) من تأليف السيدَين رنجبر وترابي، أؤكد على مطالعته حيث قد كُرِّس فصل من فصوله لبحث آراء آية الله الشاه آبادي(ره) الاستراتيجية، وهو الذي تنبّأ قبل ثمانين عامًا بصراع الحضارتين. كان الشاه آبادي(ره)، الذي كان عبقريَّ زمانه، قد قَدِم إلى طهران تأسيسًا على نظرية استراتيجية لبناء الحضارة الإسلامية العظمى في مواجهة الحضارة الغربية.

ولـدى قدومـه إليهـا عمـل عـلى نـشر «صناديق القـرض الحسَـن» في المسـاجد ما اسـتطاع إلى ذلك سـبيلًا، وروّج في العاصمـة أيضًـا لتجمّعـات تـلاوة دعـاء الندبـة ودعـاء كميـل. لقـد كان رجـلًا سياسـيًّا بامتيـاز، وقـد قـادت نشـاطاته فيـما بعـد إلى تشـكيل «هيئـات المؤتلفـة الإسـلامية»، التـي كانـت ثمـار نشـاطاتها إعانـة الإمـام الخمينـي(ره) عـلى الثـورة. وعليـه فـلا شـك أن آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره) شـخصيًّا كان يُعَـد أحـد المؤسسـين لانطـلاق الثـورة الإسـلامية. وأنـا أدعوكـم لمطالعـة آراء سـماحة آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره) الاسـتراتيجية. يقـول الإمـام الخامنئـي (حفظـه اللـه): «كان الإمـام الراحـل(ره) تلميـذ آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره)، ومريـدَه، وعاشـقَه في آن معًـا». وهنـا دعـوني أتلـو عليكـم جانبًـا مـن مقـال قُدِّم في مؤتمـر تكريـم آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره)، أسـتاذ الإمـام الخمينـي(ره) في العرفـان، عُقِـد قبـل حـوالي عـشرة أعـوام في «مركـز دراسـات ثقافـة الإمـام الخمينـي(ره) وآرائـه». كان الشـاه آبـادي(ره) مفكـرًا عملاقًـا في العـالم الإسـلامي، وكان أحـد تلاميـذه الإمـام الخمينـي الراحـل(ره)، الـذي كان يقـول كلـما ذَكَـر اسـمَه: «روحـي لـه الفـداء». يقـول الإمـام الراحـل(ره) في حـق آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره): «لـو كان درسُـه في قـم قـد دام سـبعين عامًـا لما فَـوَّتُّ درسًـا واحـدًا منهـا، فلقـد كان لـه في كل مـرةٍ جديـدٌ».

الشاه آبادي(ره): عِلّة عِلَل المفاسد جميعًا جهل المسلمين بمسائل الإسلام الاجتماعية والاقتصادية

والآن لاحظـوا كيـف ينظـر الشـاه آبـادي(ره) إلى المواسـاة. وسـأقرأ عليكـم بعضًـا مـن مقال حجة الإسـلام والمسـلمين أحمـد عـلي يوسـفي نصًّـا، مـن فصليّـة «اقتصـاد اسـلامى» (الاقتصـاد الإسـلامي) العلميـة البحثيـة، السـنة الخامسـة عـشرة، العـدد ٥٧، ربيـع ٢٠١٥: «إن عِلّـة عِلَـل المفاسـد جميعًـا هـي جهـل المسـلمين بمسـائل الإسـلام الاجتماعيـة والاقتصاديـة». وأنـا أقـول لسـماحة آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره): مـا زال بعـض ثوريّينـا، بعـد أربعـين عامًـا عـلى انتصـار الثـورة، يقبعـون في هـذا الجهـل! يقـول سـماحته: «لـو عـرف المسـلمون الإسـلامَ جيـدًا وعملـوا بـه لمـا ابتُلِيَـت الأمـة الإسـلامية بـكل هـذا الفسـاد».

النسخة الأصلية لكتاب «شذرات المعارف»، التي تضم معظم آراء الشاه الآبادي في الاجتماع والسياسة، كانت في حوزة الإمام الخميني(ره) فصادرها «السافاك»، وبقيت الآن أجزاء منها. يقول المرحوم في موضع آخر من الكتاب نفسه: «لقد قدّموا لنا الإسلام دينًا فرديًّا» وما زالت آثار هذا الفكر قائمة. والآن دعوني أقرأ لكم من نص المقال: «إنه في مؤلفاته يُلغي تمامًا الأساسَ العلماني والرؤية الطبيعانية للنماذج الاقتصادية الغربية والشرقية».

"اقتصاد الأخُوّة"؛ مشروع الشاه آبادي في مقابل الاقتصاد الليبرالي الغربي

ويقول في مذمة الاقتصاد الليبرالي الغربي: «من الناحية العملية يخضع الاقتصاد الغربي الحر لقانون «الحُكمُ لِمَن غَلَب»، وهو معيار الوحوش». وكان، قبل ثمانين عامًا، قد طرح فكرة: «أن الاقتصاد الغربي الحر يعني السبُعِيّة والتوحش». وهنا يشرح دور الدولة الإسلامية، التي يجب أن تكون تحت إشراف الولي الفقيه، في هذا الصدد؛ وهو أن لا تطلق العنان للمُنافَسة الحرة؛ إذ ما من أحد يسبق الآخرين في هذا التنافس إلا ويفشل الآخرون في اللحاق به، ويرتفع «مُعامِل جيني» [تزداد الطبقية]. إن نقده للنظام الاقتصادي الغربي مُذهل. ويطرح آية الله الشاه آبادي(ره) في مقابل اقتصاد الغاب الغربي مشروعًا استقاه من القرآن الكريم. فلنتعلم من الشاه آبادي(ره) كيف يرى في مفاهيمَ معَيَّنة أنها مفاهيمُ تبني أنظمة وتصنع حضارة فيما يراها الكثيرون غيرُه مجرد مفاهيم أخلاقية، فردية، أو اجتماعية كحد أقصى. يقول سماحته: «استنادًا إلى قوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا» (آل عمران/١٠٣)، وانطلاقًا من لفظة «إخوانًا» فإننا نطالب بـ»اقتصاد الأخُوّة»؛ وهو الملاك الأصلي، أو القسم الأكثر أصالة من الاقتصاد. مع العلم أن سماحته لا يلغي أقسام الاقتصاد الأخرى. لقد ذكرتُ قبل عامين، في مجلس هذا الموكب تحديدًا، أن على شباب المساجد والمواكب الحسينية جمع رساميلهم إلى بعضها البعض لإطلاق مشاريع اقتصادية... في حينها انتقدني البعض من أنه: «لماذا تحثّهم على جمع المال؟ هذا اقتصاد ليبرالي!» لكن الفرق بين الاثنين هو أن الاقتصاد الليبرالي هو دعوة فردية لكسب المال، لا دعوة جماعية!

لماذا يأتي بلدنا ضمن البلدان المتأخرة من حيث سهولة إطلاق المشاريع التجارية؟

نحن نقول: فلتخفض الحكومة تدخّلاتها في الاقتصاد، ولا تتدخل في غير محله. لماذا أوصَلوا بلدنا إلى هذا المستوى فبات من البلدان المتأخرة في تسهيل إطلاق المشاريع التجارية أو الصناعية؟ فليهب مجلس الشورى الإسلامي لنجدة هذه المشاريع، ولتعاقِب السلطة القضائية مَن يعرقل المِهَن والمشاريع. على البرلمان والسطة القضائية أن يتحقّقا ممن يعيق في الحكومة والأجهزة التنفيذية سهولة إطلاق المشاريع التجارية ويخلق العراقيل أمام المنتجين وروّاد الأعمال؟ الإمساك بالسُرّاق ليس تغييرًا، بل هو تحرّك يندرج ضمن المهام العادية. أنا أطالب السلطة القضائية بكل جدية بأن تلقي القبض على الذين يقفون أمام إطلاق المشاريع والأعمال. ومن اللافت أحيانًا أن الحكومات أيضًا تتغير، أما هؤلاء فباقون في مواقعهم!

لماذا خاطب قائد الثورة ببيانه "الخطوة الثانية للثورة" الشبابَ ولم يخاطب الحكومة؟

كان آية الله الشاه آبادي(ره) فقيهًا عبقريًّا يتمتع بنبوغ علمي، وقد بلغ درجة الاجتهاد في أوائل سِنِيّ شبابه. «يرى آية الله الشاه آبادي(ره) أن سعادة المجتمع الإسلامي في الدنيا والآخرة هي رهن وحدته وأخُوّته الإسلاميّتَين». ولأقرأ العبارات من المقال نفسه: «إن أهم السياسات الرامية إلى بلوغ الأهداف الإسلامية العليا على جميع الصعد، ومنها الصعيد الاقتصادي، سياستان: سياسة تهيئة العِدَّة، وسياسة تجهيز العُدَّة. فأما سياسة تهيئة العِدَّة فهي تهيئة الكوادر البشرية المتّحدة المنسجمة فكريًّا. وأما سياسة تجهيز العُدَّة فهي تأمين الإمكانيات الاقتصادية والمالية والتنظيمية». لكن لماذا نحن نخوض في هذا الموضوع أصلًا؟ إننا نطرح هذه المسائل «لتهيئة العِدّة وتوفير الكوادر المتّحدة فكريًّا» من أجل أن نتحرك ونطلق «اقتصاد الأخُوّة» هذا. أتظنون أنه لا ينشأ من الأخُوّة الإسلامية نظام؟ ألم يقل سماحة الشاه آبادي(ره): إننا بحاجة أولًا إلى الإنسان؟ يقول سماحته: «إن سياسة تهيئة العِدّة مقدَّمة على سياسة تجهيز العُدّة». تحليلي الشخصي هو أنه من هذا المنطلق وجّه قائد الثورة الإمام الخامنئي (دام ظله) بيان «الخطوة الثانية للثورة» إلى الشريحة الشابة، لا إلى الحكومة؛ فهو يريد القول: إننا بحاجة إلى العِدّة؛ العِدّة التي تشعر بالمسؤولية، وتتآزر، وتعالج أغلب القضايا بنفسها، وحينذاك سيتقلص حجم الحكومة وتنسحب عن المواضع التي احتلّتْها من دون جدوى.

الأخُوّة كخيط المسبحة تربط بين جميع السلوكيات والعلاقات الاقتصادية

ويضيف: لا يمكن إعداد العِدّة إلا من خلال الأخُوّة في الإسلام. ولذا يتحتم على المسلمين أن يتعاونوا لسد احتياجاتهم. والأخُوّة، في واقع الأمر، هي كخيط المسبحة، تربط بين جميع السلوكيات والعلاقات الاقتصادية، ولهذا فإنه يصنفها في عداد الأحكام السياسية الإلهية. ومن هذا المنطلق فإننا لا نتوقع من الثوريين أن يحسَبوا الأخُوّة والمواساة تصدّقًا. فإن قال أحدهم: «نحن نُحسن التصرّف؛ يعمل كل واحد منا على تأسيس مصنع لنفسه، فيُثري، فإن كان ثمة مُعوِز، يدفع له ضرائب من أرباحه...»، نرُدّ عليه: «لكن هذه الطريقة معمول بها في الغرب أيضًا! إن كنتم صادقين فاذهبوا واعملوا سوية». قبل حوالي أربعة أعوام قلتُ لجماعة من منتجي الأفلام في مهرجان «عمار» السينمائي: «هل أنتم ميّالون إلى العمل الفني بشكل جماعي؟ وهو أن يجتمع عدد من الأشخاص ويعملوا سوية على كتابة السيناريو وإخراج الفلم، ...إلخ». من الصعب جدًّا أن يُنجز بضعة أشخاص عملًا فنيًّا واحدًا. لقد أخذ مؤخرا بعض نشطاء «الشعر الطقسي الديني» يجتمعون ويَنْظمون الأشعار معًا. وليس مُهِمًّا عندهم «أنّ الشعرَ شِعرُ مَن منهم؟» فهم لا يسعون إلى اجتذاب الأنظار إلى أنفسهم. ويمكن لهذا العمل أن يشكّل أنموذجًا للعمل الاقتصادي أيضًا؛ فحين يكون بالإمكان لبضعة أشخاص أن يَنْظموا الشعر بشكل مشترك ألا يكون بإمكان بضعة أشخاص إنشاء مصنع؟ رأي آية الله الشاه آبادي(ره) هو: «الأخُوّة، في واقع الأمر، هي كخيط المسبحة، تربط بين جميع السلوكيات والعلاقات الاقتصادية».

السبيل الوحيدة لانتعاش المجتمع الإسلامي اقتصاديًا هو تعاون المسلمين وتعاضدهم

هذه الجمل هي بقلم كاتب المقال المحترم، وهو - لحُسن الحظ - مسؤول الدراسات الاستراتيجية في الحوزة في مجال الاقتصاد المقاوِم ومن باحثي الاقتصاد الإسلامي الأفذاذ في موضوع التعاون. وأنا أؤكد على مطالعة مؤلفاته. «لا يرى آية الله الشاه آبادي(ره) أن للأخلاق الإسلامية وظيفة فردية، بل يذهب إلى أن القرآن الكريم، الذي هو المصدر الأساسي للمعارف الإسلامية، لا يتناسب مع الإسلام الانفرادي. وهو يعارض بشدة المؤسسات الاقتصادية القائمة على أصالة الفرد (مثل المصارف)، ويعُدّها مصدرًا لخيانة الشعب وتضييع حقوقه». والمباحث التالية تستدعي اهتمام مجلس الشورى الإسلامي: «يدّعي آية الله الشاه آبادي(ره) تأسيس مؤسسات اقتصادية جديدة قائمة على الأسس الإسلامية. ويرى أن السبيل الوحيدة لانتعاش المجتمع الإسلامي في الميادين الاقتصادية وتلبية احتياجاته المالية هي تعاون المسلمين وتعاضدهم». ويقول في مقاله متابعًا: «لا وجود للمبدأ السلوكي المسمَّى بالمنافسة في الأنموذج الاقتصادي لآية الله الشاه آبادي». إن أحد معاني مبدأ المنافسة هو شفافية المعلومات، وليس ثمة إشكال في أن يصل الجميع إلى المعلومات. لكنه يرى أن السلوك التنافسي، وهو أن يُثري أكثر كلُّ مَن هو أشد وحشية وأقوى عضلات، سلوكٌ غير سليم. «وبناءً على الأسس الإسلامية في معرفة الوجود يقدّم سماحته المبدأ السلوكي المسمَّى بالتعاون، سواء داخل الأنموذج والمنافسة أو خارجهما، بوصفه المبدأ السلوكي الإسلامي الوحيد». وكذا: «إن من الأمور المهمة والكارثية هنا هي عدم إيلاء المجتمع العلمي الإسلامي ما يلزم من الاهتمام بآرائه (الشاه آبادي) الاقتصادية. ولربما وَسِعَنا الزعم بأن حجم المباحث الاقتصادية التي طرحها الشاه آبادي لأول مرة على أساس من توحيد الله عز وجل في الخالِقيّة والربوبية يفوق حجم المباحث الاقتصادية التي طرحها أمثال آدم سميث». إلا أن عددًا كبيرًا من مفكري العالم قد عملوا علميًّا لبضعة قرون على آراء أمثال آدم سميث الاقتصادية وأكملوها وقدّموها كأنموذج لاستهلاك الجميع، ومنهم بعض مسؤولي بلدنا، هذا وقد صرّح بعض هؤلاء المسؤولين بأنه: «ما لم يكن في الاقتصاد تنافس وما لم يُفلس البعض لا يُعَد هذا الاقتصاد اقتصادًا!»

ولا أقـول: لا ينبغـي أن يُفلـس أحـد قـط في مضـمار التنافـس الاقتصـادي لكـن لا بـد مـن القـول، انطلاقًا مـن آراء آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره)، المبنيـة عـلى المواسـاة: «يـا أهـالي المدينـة، أيهـا النشـطاء الاقتصاديـون في المدينـة، أوَكنتـم مـوتى كي لا تأخـذوا بأيـدي هـؤلاء الشـباب لئـلا يفشـلوا في مجـال أعمالهـم التجاريـة؟ مـاذا كنتـم تصنعـون؟ ومـاذا كان مسـؤولوكم يفعلـون؟!»

ما دور أئمة الجمعة في إطلاق المشاريع التجارية والصناعية؟

سـألتُ ذات مـرة أمـين أئمـة الجمعـة المحـترم: «عـلى وجـه الدقـة مـا هـو دور أئمـة الجمعـة في إطـلاق المشـاريع التجاريـة والصناعيـة في المدينـة أو المحافظـة؟» فأجـاب: «بعضهـم ناشـط في هـذا المجـال، لكـن لا توجـد هنـاك تعليـمات خاصـة بالموضـوع». أقـول: إن لم يلجـأ الشـباب، الراغبـون في إنشـاء ورشـة، إلى إمـام جمعـة مدينتهـم فـإلى مـن يلجـؤون إذن؟ فـما هـي مهمـة إمـام الجمعـة؟ إن أي شـخص باسـتطاعته أن يَـؤُم الجمعـة! في الخبر سـأل رسـول اللـه(ص) رجـلًا عـن علـة عـدم مجيئـه إليـه مـدة مـن الزمـن فقـال الرجـل: لم يكـن لـدي لبـاس أخـرج بـه؛ «أَبطَـأَ عَـلَى رَسُـولِ اللـهِ(ص) رَجُـلٌ فَقـالَ(ص): مـا أَبطَـأَ بِـكَ؟ فَقـال: العُـرْيُ يـا رَسـولَ اللـه؟ فَقـالَ(ص): أَمـا كانَ لَـكَ جَـارٌ لَـهُ ثَوبـانِ فَيُعـيرُكَ أَحَدَهُـما؟ فَقـال: بَـلَى يـا رَسـولَ اللـهِ. فَقـالَ(ص): مـا هَـذا لَـكَ بِـأَخ» (مصادقـة الإخـوان/ ص٣٦). وفي روايـة أخـرى أن رجـلًا شـكى إلى رسـول اللـه(ص) عَـوَزَه فقـال لـه النبـي(ص): مـا الـذي تملكـه في دارك؟ فقـال بسـاط وقـدح. فقـال(ص): هاتهـما. فسـاعده رسـول اللـه(ص) عـلى بيعهـما وطلـب إليـه أن يعمـل بهـذا المـال؛ «أَصـابَ أَنصارِيًّـا حاجَـةٌ فَأَخـبَرَ بِهـا رَسـولَ اللـهِ(ص) فَقـالَ(ص): ايتِنـي بِمـا في مَنزِلـِكَ... فَأَتـاهُ بِحِلْـسٍ وَقَـدَحٍ. فَقـالَ رَسـولُ اللـهِ(ص): مَـن يَشـتَرِيهِما؟ فَقـالَ رَجُـلٌ: هُـما عَـلَيَّ بِدِرهَـمٍ. فَقَـالَ(ص): مَـن يَزِيـدُ؟ فَقـالَ رَجُـلٌ: هُـما عَـلَيَّ بِدِرهَمَـينِ؟ فَقـالَ: هُـما لَـكَ. فَقَـالَ(ص): اِبْتَـعْ بِأَحَدِهِـما طَعامًـا لِأَهلِـكَ وَابْتَـعْ بِالآخَـرِ فَأْسًـا. فَأَتـاهُ بِفَـأْسٍ. فَقَـالَ(ص): مَـن عِنـدَهُ نِصـابٌ لِهٰـذِهِ الفَـأْسِ؟ فَقـالَ أَحَدُهُـما: عِنـدِي. فَأَخَـذَهُ رَسـولُ اللـهِ(ص) فَأَثْبَتَـهُ بِيَـدِهِ وَقـال: اِذهَـبْ فَاحْتَطِـبْ...» (بحـار الأنـوار/ ج١٠٠/ ص١٠). وفي الخـبر: «إِنَّ العُلَـماءَ وَرَثَـةُ الأَنبِيـاءِ» (الـكافي/ ج١/ ص٣٢)، فهكـذا يكـون إمـام الجمعـة!

كيف واسَى العباس(س) أخاه الحسين(ع)؟

نقرأ في زيارة أبي الفضل العباس(س): «أَشهَدُ لَقَد نَصَحتَ لِلهِ وَلِرَسولِهِ وَلِأَخيكَ فَنِعمَ الأَخُ المُواسِي» (المزار للشيخ المفيد/ ص١٢٤)؛ أي: لقد واسَيتَ أخاك الحسين(ع) نِعمَ المواساة. أوَهل معنى المواساة هنا أنك تصدّقتَ على الحسين(ع)؟! كلا، بل المراد أنك فديتَ الحسين(ع) بنفسك. كأني بأبي عبد الله الحسين(ع) قال لأخيه العباس: «يا حبيبي يا عباس، أتسمع صرخات الأطفال: العطش؟» فقال: «سمعًا وطاعة، الأمر ما تقوله، أنا فداء لأطفالك...». لاحظوا، أن الله ينظر إلى بواطن الناس، ويكتب عاقبتَهم اعتمادًا على هذا الباطن. إني لأتصور أن لسان حال أبي الفضل(س) كان هذا: «يا حسين! أين أنا منك يا مولاي؟ روحي فداء لأطفالك...»، فكان - في آخر المطاف - أن فدى شفاهَ أطفالِ الحسين(ع) بنفسه! إن الزيارات المأثورة لتنطوي على تعابير عرفانية؛ مثل: «الأَخُ المُواسي»؛ أي لقد واسيتَ نِعْمَ المواساة... وكيف واسى العباسُ(س) أخاه الحسين(ع) يا ترى؟ هاكم مظهرًا من مظاهر مواساته: أقبلَ يوم عاشوراء، ولعله مع باقي إخوته، إلى أبي عبد الله الحسين(ع) قائلًا: «هَل مِن رُخصَة؟». ودعونا من أنه أيَّ دموعٍ استدَرّ الحسينُ من أعينهم، قال(ع) له: «يبدو أنك يئستَ من الحسين فتريد تركَه وحيدًا!» فبكوا. «ما الذي ستصنع أختُك زينب بعدك؟!» فكأنه(ع) رثى إخوتَه الغيارى، والإخوة ينتحبون. ثم أذن الحسين(ع) لإخوته بالقتال. وكأن العباس(س) قد جمع إخوته وقال لهم: «اسبقوني إلى الميدان.. أريد أن يلامسَ مصابُ الأخ روحي فلا يكون الحسين هو الوحيد الذي يحسّ مصابَ أخيه، أريد أن أُصابَ بإخوتي قبله. وحين استُشهدوا كان يساعد الباقين ليأتوا بهم واحدًا واحدًا إلى المُخَيَّم. لستُ أدري كم هو عظيم مصابُ الأخ، وأن يرفع الأخ جسد أخيه من الأرض... أيُّ معرفة حظي بها العباس(س) آنذاك! وإذا به، حين أراد الحسين(ع) حَمْلَه إلى المخيم، يقول له: أرجوك يا أخي أن لا تحملني، ودعني في مكاني هذا...

بسم الله الرحمن الرحيم

أهـم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهـلاک المـجتمع (المحاضرة10)

الزمان: 09/محرم الحرام/1442 - 29/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

أحد أسرار ظلامة الولي/ الولي مَهَمّته بث خطاب الإنفاق ومحاربة البخل/ أول أدوار الولي ضمن خطاب المواساة هو غرس الدافع في الأشخاص

لماذا كل هذا التنكر للولاية ومحاربتها على مَر التاريخ؟

تعلمون أنه أهم مفاهيم ديننا هو الولاية؛ ففي الخبر: «وَلَم يُنادَ بِشَيءٍ كَما نُودِيَ بِالوَلايَة» (الكافي/ ج٢/ ص١٨). ولربما تعلمون أيضًا أن لماذا الولاية هي أهم شيء في ديننا؟ فعلى الرغم من إحساسنا بأن الإسلام الأصيل لا يُعلَّم ولا يُبَلَّغ للناس جيدًا لكننا – على أية حال - نتوقع من معظم مؤمني المجتمع أن يكونوا عارفين بمنزلة هذا المفهوم من الدين وفضله على جميع أحكامه. قد يكون تبادر إلى أذهانكم تساؤل وهو أنه لماذا حصل كل هذا التنكر للولاية على مَر التاريخ، بل وقاد إلى محاربتها أيضًا؟ ليلة عاشوراء كانت ذروة حرب «الناس» للولاية، فلقد أقدم «الناس» على قتل الحسين(ع)! كانت محاربة الولاية على مدى حوالي نصف قرن على يد خواص النفاق ونُخَبِه في الأمة قد أدَّتْ بحالة التنكر للولاية إلى حيث أَنزَلَتِ عامة الناس إلى الساحة ليقتلوا الإمام الحسين(ع)، ومن ثم عملتْ في جميع المدن أيضًا على جَرّ «الناس» إلى الشوارع، في طريق قافلة أهل البيت(ع)، ليهزَؤوا بأُسارى الطف، وينثروا الرماد على رؤوسهم، ويهينوهم!

لماذا يظل وليّ الله (الإمام) غريبًا؟ أَوَهَل هو سيئ الخلق ومتشدد؟

لماذا ظل أمير المؤمنين(ع) وحيدًا إلى درجة أنهم قتلوا حسينَه(ع) في النهاية؟! أوَكان أمير المؤمنين(ع) قليلَ عِلم؟! أوَكان ضعيفَ شجاعة؟! أوَكان شحيحَ عطفٍ ورأفة؟! أوَكان قليلَ تواضع؟! أوَلم يُسمّوه بـ»أبي تراب»؟! أوَكان قليلَ الزهد؟! أوَكان ضعيف الجذب؟! ...إلخ. ولو قيل لكم، أيها الشباب، إنهم «الناس الذين كانوا سيئين» فقولوا: ما معنى: الناس سيئون؟ ما السوء الذي كان فيهم؟ لِمَ لَمْ يكن ذلك المجتمع وأولئك الناس يرغبون في علي(ع)، حتى آثَروا عليه معاوية؟ أَوَكان ولي الله (الإمام) سيِّئَ الخُلُق؟ أوَكان متشدّدًا؟ إني لأرجوكم، وأخص الشباب بالذكر، أن تقرؤوا التاريخ جيدًا؟ أوَلَم يكن علي بن أبي طالب(ع) مظهرًا للعدل؟ أوَلَم يكن العدل في مصلحة الفقراء؟ أناس ذلك الزمان كان أغلبهم فقراء. إذن لماذا مات علي(ع) كمَدًا بسببهم؟!

لماذا ترك الناس عليًّا(ع) وحده؟/بعض الأسباب التي تتبادر إلى الذهن، لكن غير الدقيقة:

لا تقولوا: «لأن أمير المؤمنين(ع) كان يجر الناس إلى الحروب!» فمعاوية أيضًا كان يجر الناس إلى الحروب! فلقد أبلَى بعضُ هؤلاء الناس أنفسِهم مع معاوية أحسن بلاء! فحين اقتاد معاوية الناس إلى حرب صفين قدّموا سبعين ألف قتيل، لكن حين حارب علي بن أبي طالب(ع) بهم في صفين قدّموا ثلاثين ألف شهيد فقط! لا تقولوا: «كانت دعاية معاوية أقوى!» فمن ذا الذي يبلغ معشار معشار سطوةَ عليّ(ع) الإعلامية؟! ففي ذلك الزمن لم تكن سينما، وما كان ثمة وسائل إعلام وإنترنيت وصحف، بل كانت هناك سلطة الخطابة. وقدرة علي بن أبي طالب(ع) في الدعوة والخطابة والكلام واضحة. لا تقولوا: «كان الناس عديمي الوعي!» فكلهم كان يعرف عليًّا والحسنَ والحسين(ع). وكلهم كان يعرف معاوية. كانوا مُطّلعين على كل شيء. فبالنسبة إلى قولهم: «كان الناس يجهلون عليًّا(ع) إلى درجة أنهم تساءلوا حين قُتل في المحراب: أكان عَلِيّ يُصَلّي؟!» فإن هذا الوضع لم يكن وضع أهل الكوفة والبصرة والمدينة.. أهلُ الشام فقط كانوا هكذا، بل وقسم منهم فقط لأسباب معيَّنة. لا تقولوا: «كان أمير المؤمنين(ع) قَتّالَ العرب، قتلَ الكثير من رؤوسهم فكان الحقد عليه يشحن قلوبهم!» فعليّ(ع)، في واقع الأمر، لم يقتل غير رؤوس قريش في مكة. إنه ما قتل من أهل المدينة أحدًا قط! فلماذا ترك الأخيرون عليًّا(ع) وحيدًا، وشاركوا في جرّه بالحبل في زقاق بني هاشم؟ لماذا خان بعضُ اليمنيّين، مثل الأشعث؟ وما بال أهل البصرة؟ طلحة والزبير لماذا غَدَروا؟ الخوارج لماذا خانوا؟ لِمَ يجتمع كل هؤلاء الخوَنة من حول أمير المؤمنين(ع)؟ أفَهَل قَتلَ أمير المؤمنين(ع) آباءهم؟ كلا، لم يقتل(ع) أبًا واحدًا لهؤلاء!

أَوَيكره الناس العدل؟

لا تقولوا: «إن سبب غُربة الإمام علي(ع) هو أنه كان خشنًا!» نعم، إن رسول الله(ص) قد قال في حقه(ع)، في ما رُوي عنه: «...فَإِنَّهُ خَشِنٌ في ذاتِ اللهِ» (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد/ ج١/ ص١٧٣)، لكن إنْ كان الإمام علي(ع) خشنًا فلقد كان خشنًا في أمور الدين، وفي بَسط العدل. على سبيل المثال كان المسلمون، يومًا ما، قد أخذوا من غنائم اليمن بعض الأشياء، لكن أمير المؤمنين(ع) انتزعها منهم من أجل أن يدفعها إلى النبي(ص) ليوزّعها هو بنفسه؛ «... فَلَقِيَهُم عَن قُربٍ فَوَجَدَهُم قَد لَبِسُوا الحُلَلَ الَّتي كانَتْ مَعَهُمْ. فَأَنكَرَ(ع) ذَلِكَ عَلَيهِم وَقالَ لِلَّذي كانَ استَخلَفَهُ فيهِم: وَيلَكَ ما دَعاكَ إلى أَن تُعطِيَهُمُ الحُلَلَ مِن قَبلِ أَنْ نَدفَعَهَا إلى النَّبِيِّ(ص) وَلَم أَكُن أَذِنتُ لَكَ في ذلِك» (المصدر نفسه). أوَكان الناس آنذاك يمقُتون العدل؟ وعلى فرض المحال، لو كان أمير المؤمنين(ع) خشنًا في حُكمه، فلماذا تركوه بعد رسول الله(ص)؟ ولِمَ لم ينصروه ولم يطيعوه؟ فلم يكن في يده آنذاك حُكْم! ليست القصة بهذه البساطة. لا تقولوا: «السبب هو الحسد الذي كان في نفوسهم!» فكم كان حُسّادُ عليّ(ع) يا ترى؟ أوَكان الجميع أندادًا لأمير المؤمنين(ع) كي يحسدوه؟! إن الذي يحسُد هو الذي يشعر أنه منافس، فما وجه الحسد عند عامة الناس؟! وحتى لو افترضنا أن: «عامة الناس كانوا يحسدون أمير المؤمنين(ع)» ففي أي الأرضيات يمكن أن يتجلى هذا الحسد؟ فإنه لا مجال لظهور الحسد إذا انعدمت أرضيّته.

غَدْر أهل الكوفة يعني "غَدْر خواص الأمة الإسلامية للوليّ"

إن المرء ليسفحُ الدمعَ لهفةً على غربة أولياء الله حين يشاهد بعض الأعمال المسرحية أو الأفلام والمسلسلات التي تحكي قصصهم! كأن تُظهِر أن مسلم بن عقيل قَدِمَ الكوفة، وبين ليلةٍ وضُحاها تفرّقَ عنه أهلها وتركوه وحيدًا، وقتلوه! أهذا كل شيء؟! يتصوّر الكثيرون أن أهل الكوفة يحملون في خلاياهم جِينًا هو «جِين الغَدْر» وقد اصطدم أبو عبد الله الحسين(ع) بهذا الجين من باب المصادفة! حين يقال: «الكوفيّون لا وفاء لهم» فهذا - في الواقع - يعني أن خواص الأمة الإسلامية ونُخَبَها لا وفاء لهم لولي الله. فالكوفة أساسًا لم تكن مدينة عريقة، والكوفيّون لم يكونوا - شأن أهالي سائر المدن - يقطنونها منذ القِدَم جيلًا بعد جيل، بل لقد تجمّعوا فيها من مناطق شتى؛ قَدِمَ أكثرهم من المدينة،

وكان غلمانهم من جنسيات مختلفة. كانت الكوفة - في الحقيقة - مدينة عسكرية تأسست أيام الهجوم على بلاد فارس. وكان نُخَب الكوفة في الواقع نُخَب المدينة المنورة، وفَدُوا على الكوفة وجعلوا منها مقرًّا للانطلاق والسيطرة على المنطقة.

لا عنصر القَبَليَّة كان حاضرًا ولا عنصر طلب الدنيا!

يقول البعض تفسيرًا لتفرّق الناس عن الإمام عليّ(ع): «كان سلوكهم سلوكًا قَبَلِيًّا»، والحال أن أمير المؤمنين(ع) قال: إن أرادوا القَبَلِيَّة فأنا قريب رسول الله(ص)، وهؤلاء أولاده... فتمسَّكوا بالقَبَلِيّة على الأقل! لقد وَقَّرتُم رسول الله(ص)، فوَقِّروا أهل بيته وقبيلته أيضًا. لقد أنكرتْ قريشُ على أنصار المدينة بأننا أقرب إلى رسول الله(ص)، فنحن قرابَتُه، فسكتَ الأنصارُ وسَلَّموا الحُكم لقريش! فقال أمير المؤمنين(ع): «إذا كانت القضية قضية عائلة وأسرة، فأنا أقرب إلى رسول الله(ص) منكم! «فَإِنْ كانوا صَدَقوا وَاحتَجُّوا بِحَقٍّ أَنَّهُم أَولَى مِنَ الأَنصارِ لِأَنَّهُم مِن قُرَيشٍ وَرَسولُ اللهِ(ص) مِن قُرَيشٍ فَمَن كانَ أَولَى بِرَسولِ اللهِ(ص) كَانَ أَولَى بِالأَمرِ...» (كتاب سليم بن قيس الهلالي/ ج٢/ ص٧٠٢). ويقول البعض الآخر: «لأن مصالحهم كانت مُهَدَّدة، وكانوا طالبي دنيا...». أَوَهل كان الخوارج أيضًا طالبي دنيا؟ إنّ آخرَ ضربة وُجِّهَت لحُكم أمير المؤمنين(ع)، والتي أدت إلى انهيار ولايته العادلة، كانت على يد الخوارج، الخوارج الذين لا يحملون أي حب للدنيا! فماذا تقول في هذا؟ هؤلاء ما الذي دهاهم؟ من أين جاؤوا؟ أجل، طلحة والزبير كانا طالبَي دنيا، لكنّ ضربة الخوارج كانت أشد من ضربة طلحة والزبير. البعض أيضًا يدّعي أن: «التقاليد العربية الجاهلية كانت هي السبب!» لكن تقاليد عرب الجاهلية تقول: «إن كنتَ مَدينًا لأحد فأدِّ حقَّه لولَده»، لكنّ القوم لم يعملوا بتقليدهم هذا مع أولاد رسول الله(ص)! ولقد أشارت سيدتنا فاطمة الزهراء(س) إلى ذلك، وذكرَه الإمامُ الحسين(ع) أيضًا.

إذن فما الذي دَهَى القوم؟ يقول أمير المؤمنين(ع): بحسب التقاليد العربية لو رفع رجلٌ يده على فتاة أو امرأة فضربَها تظل ذريّتُه لأجيال تُعَيَّر بفعلته هذه: بأنك ابن ذاك الجد الذي ضرب امرأة! «وَإِن كانَ الرَّجُلُ لَيَتَناوَلُ المَرْأَةَ في الجاهِلِيَّةِ بِالفِهْرِ [الحَجَر] أَوِ الهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِها وَعَقِبُهُ مِن بَعدِه» (نهج البلاغة/ الكتاب١٤). فلو أرادوا التمسك بتقاليد عرب الجاهلية فلماذا ضربوا أطفال الحسين(ع) بالسياط؟! لِمَ أصبحوا بكل هذه الوحشية في هذا الزمان (أي زمان الإمام الحسين(ع) وعاشوراء) حيث مَضَت حقبة الجاهلية؟! أيُّ أعداءَ وخصومَ تخلُق الولاية؟ القوم لم يكونوا هكذا قبل ذلك. ففي ليلة المبيت حين عزموا على قتل النبي(ص) قالوا: الوقت ليل، والأطفال والنساء نيام، فلِمَ نؤذيهم؟ فلنصبر حتى مُنبَلَج الصبح ثم نقتحم الدار. فكَمَنوا خارج الدار حتى الصباح؛ «فَلَمّا أَمسَى رَسولُ اللهِ(ص) جاءَتْ قُرَيشٌ لِيَدخُلوا عَلَيهِ، فَقالَ أَبُو لَهَبٍ: لا أَدَعُكُم أَن تَدخُلُوا عَلَيهِ بِاللَّيلِ فَإِنَّ فِي الدّارِ صِبياناً وَنِساءَ وَلا نَأْمَنُ أَن تَقَعَ بِهِم يَدٌ خاطِئَةٌ. فَنَحرُسُهُ اللَّيْلَةَ، فَإِذا أَصبَحنا دَخَلْنَا عَلَيهِ. فَناموا حَولَ حُجرَةِ رَسولِ اللهِ(ص)» (تفسير القمي/ ج١/ ص٢٧٥). لكنهم، بعد رسول الله(ص)، هجموا على بيت ابنته، ولم يتفوَّه أحدٌ منهم بكلمة! فلا نكن سُذَّجًا. هذه التساؤلات حول تاريخ الإسلام وتحليل ظلامة الوَلي هي في غاية الأهمية وتستحق التأمل.

دور الولي في بث خطاب الإنفاق والمواساة

إحدى أسرار ظلامة الولي/ الولاية تَيسير للإنفاق وتبديد للبخل

نريد في هذه المحاضرة دراسة علاقة الولي بالإنفاق، والمواساة، وخطاب البذل، ونبذ الشُحّ، وترك البخل، وخطاب الإنفاق (بالمعنى الأعم للكلمة)، حيث سيتم إلقاء الضوء على إحدى زوايا الموضوع من جهة، وعلى أحد الردود على التساؤل المطروح من أنه: «لماذا تُرك الوَلِيّ وحيدًا؟» إن أحد أسرار ظلامة الولي هو تحديدًا موضوع المواساة، والإنفاق، والزكاة، والخمس هذا. فالعطاء والبذل وحرمان النفس من الشيء صعب على الإنسان، والولي مأمور بالقَبْض من الناس.. مأمور بتدبير خطاب الإنفاق.. مأمور بالمعارضة العلنية للشُح والبخل. فالبخلاء يدخلون في صفقات فيما بينهم.. يتفاهمون، أما الولي فإن له منزلة ترفعه عن الدخول في هذه التفاهمات.

فإن من أهم القضايا التي تحرّض الناس على الوقوف في وجه الولي هي قضية البذل والشُح. من ناحية فإن الشح والبخل مذموم ويمنع البذل والعطاء، ومن ناحية أخرى فإن الولي يسهّل على الناس البذل؛ أي إن الولاية سبب لإزالة البخل والشح ومدعاة لتيسير الإنفاق والزكاة والمواساة وكل أشكال العطاء، بما في ذلك بذل النفس. فهل إن مشكلة الشُح الأساسية هي الولاية، أم أن الولاية هي المزيلة للشح؟ الجواب: الاثنان معًا! فإنّ دَور الولي في خطاب الإنفاق والمواساة دور جوهري؛ دوره جوهري في تسهيل الأمر، وتنظيمه، وتحديد المصاديق، وفي الوقوف أمام أشكال السرقة، والظلم، والتَعَدّي، والتملص من العدالة، وفي بعث الدافع فيك لتبذل نفسك وتُضَحّي بكل وجودك.

أول أدوار الولي ضمن خطاب المواساة هو غرس الدافع في الأشخاص

إن دور الولي ضمن خطاب الإنفاق والمواساة هو خلق الدافع. فالكثيرون - على سبيل المثال - مَيّالون لبذل أموال طائلة في سبيل الحسين(ع)، ولقد شاهدنا أيام الدفاع المقدس كيف أن شبابنا بذلوا في سبيل الإمام الحسين(ع) الأرواح. لاحظوا أي عشق كان يَعمُر قلوب أولئك الشباب! فإننا نقول في الزيارات المأثورة مخاطبين المعصوم(ع): «بِأَبي أَنتَ وَأُمّي وَنَفسي وَأَهلي وَمالي وَوُلْدي» (إقبال الأعمال/ ج٢/ ص٦٠٥). هكذا تغدو الأمور حين يكون ولي الله هو المَعنِيّ. الولي يغرس في الأشخاص الحافز. ولنقرأ معًا في هذا الصدد آية من الذكر الحكيم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم» (التوبة/١٠٣)؛ القرآن الكريم يقصد «بالصدقة» أحيانًا الزكاة، فالصدقة تشمل الزكاة أيضًا. يقول: «تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا»؛ إنك تطهّر الناس حين تأخذ منهم الصدقات، وتُنضِجُهم، وتربّيهم. «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ» أيها النبي، صَلِّ على كل من تأخذ منه الصدقة. «إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم» فصلاة النبي(ص) عليهم هي مدعاة لسكينتهم وطمأنينة نفوسهم. ونحن أيضًا نخاطب صاحب الزمان(عج): «يا بن الحسن، ما العطاء الذي عليَّ بذلُه كي تُصَلّي أنت علَيّ؟»

بماذا يزول الإمساك والشح؟

بماذا يزول الإمساك والشُحّ وهما صفتان ذاتيتان في الإنسان؟ انظروا الأربعين؛ الرجل منهم يبذل وجوده كله على قارعة الطريق! ينقل أحد الزائرين: نزلنا في النجف الأشرف في منزل كان وضعه من الداخل مُزرٍ. وكان الطقس أيامها باردًا، وصاحب الدار لا يملك حتى حصيرًا مناسبًا، لكنه قدّم لنا عشاءً فاخرًا. سألْنا صاحبَ الدار: «ما عملُك؟ وضْعُ بيتِك لا يتناسب مع ما قدّمت لنا من عشاء!» فأقسم علينا أن: «تناولوا عشاءكم وسأخبركم فيما بعد!» وكان يعتذر من كون مكاننا مُزْرٍ بعض الشيء. قال لنا بعد العشاء: «أنا أبيع السجائر في صينية. وقد تعاهدتُ مع أسرتي على أن نجعل نصفَ دَخلِنا من كل يوم لأربعين الحسين(ع). فهذا المقدار ليس مِلكَنا أصلًا!»... وهذا واقع؛ فإنّ مقدار الزكاة والخمس وما إليهما من المال الذي تكسبُه ليس ملكَك أصلًا، إنه للمجتمع، إنه لإمام المسلمين، وأنت – في الحقيقة – عامل لهم. بل ليس هو مالَك أساسًا كي تعطيه! إن ما تعطيه ليس هو مالَك، بل مالٌ جُعِل في أموالك. هكذا هو نظام الإسلام. كل من كان يلتقي بأئمتنا(ع)، من تلك القِلّة الغريبة المخلصة من الشيعة آنذاك، كان عليه أن يدفع للمعصوم(ع) نقودًا.. أن يدفع ما عليه من خمس وزكاة. ما الذي يجعلني الآن أتحدث إليكم بكل راحة وبساطة عن الدين؟ لأني لا أقبض منكم الخمس، ولا أقول: «لا بد أن تدفعوا إلَيّ مالًا»، لكن المعصوم(ع) كان يفعل هذا. تخيّلوا الآن لو أن الناسَ ضعيفو الإيمان قيد شعرة فكيف تراهم سينظرون إلى هذا الإمام؟! أنا شخصيًّا ما عندي مشكلة لأنّي مجرد مُروِّج ومُبلِّغ، أما الأنبياء فكانت مهمتهم في غاية الصعوبة، كانوا يقولون للناس: «فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ» (آل عمران/٥٠). كنتُ أحاضر ذات مرّة فقلتُ للحضور: «هذه الآية تكرّرت في القرآن الكريم عشر مرات»، فقال لي عجوز مؤمن وَقور: «النبي لا يقول أبدًا: أطيعوني، بل يقول: أطيعوا الله! لعلك قرأتَ الآية خطأً!» قلتُ: «إنه نَصّ الآية القرآنية، ليس الذنبُ ذنبي». فقال: «لكن لو قال النبي: أطيعوني أنا، فمن الطبيعي أن يستاء المخاطَب». قلتُ: «بحسب القرآن الكريم فإن ما كان يُسيء الكُفّارَ هو هذا الكلام تحديدًا».

لم يكن النبي(ص) معلِّم أخلاق ليقول: "آتُوا الزكاة"، بل كان يأخذ هو الزكاة

مشكلة الأنبياء أنهم لم يكونوا مُعلِّمي أخلاق، يَعِظون وينصرفون. فالنبي الأعظم(ص) مثلًا لم يكن يقول: «آتوا الزكاة، لكنّي لا أعلم لِمَن تؤتوها وكيف؟» بل كان يأخذ هو الزكاة، وكان يتُمّ الاصطدام مع مَن لا يدفعها! أنت الآن تعشق الإمام الحسين(ع)، وتتهيّأ شيئًا فشيئًا لظهور المولى صاحب الزمان(عج)، ولهذا تراك تبذل بكل سهولة قائلًا: «سيدي، إني أبذل وأعطي حبًّا لك». على أن الإمام الحسين(ع) هو على درجة من الظُلامة ما يجعلك تستحيي أن تقول لا. أسأل الله تعالى أن تكون على مستوى من البذل بحيث إذا ظهر الإمام المقتدر - أي صاحب الزمان(ع) – تبذل أيضًا في سبيله وتعطيه بكل كرَم كما تعطي للإمام الحسين(ع) بالضبط. فعن الإمام الصادق(ع) قوله: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِمَامَ يَحْتَاجُ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّمَا النَّاسُ يَحْتَاجُونَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمُ الْإِمَامُ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها» (الكافي/ ج١/ ص٥٣٧). قل له: «سيدي، أنا محتاج...». لقد كشفَ الإمامُ الحسين(ع) ليلة العاشر من المحرَّم لأصحابه شيئًا خاصًّا ثم قال لهم: «اذهبوا، لا حاجة لأن تبذلوا أرواحكم...». فراحوا يتوسّلون إليه توسّلًا. إن ليلة عاشوراء ليلة الولاية.

الدور الثاني للإمام هو "تحشيد الجماهير" للإنفاق والمواساة/ إننا حاليًّا في المراتب الأولى من التَوَلّي

الدور الأول للإمام إذن هو «غرس الدافع عند الأشخاص». وناهيك عن غرس الدافع الفردي فإن العمل الثاني الذي ينهض به الإمام في ميدان المواساة هو «التحشيد الجماعي». ولقد لمستم هذا العام دور قائد الثورة الإمام الخامنئي (دام ظله) في هذا المجال. على أن هذه – حاليًّا – هي مجرد المراحل الابتدائية جدًّا من الإنفاق. فما زلنا، في عهد الإمام الخميني(ره) والإمام الخامنئي، في المراتب الابتدائية جدًّا من الإنفاق والمواساة؛ بمعنى أن المواساة كلها ليست هذه. في الوقت الحاضر شُكِّلَت هيأة زكاة، وهي أضعف حتى من هيأة الصلاة، وهي تخاطبُنا: «إنْ أعطيتم الزكاة فهذا جيّد، فهو حُكم إسلامي على أية حال، أرجوكم آتوا الزكاة، ...».

أما الخُمس فليس له أساسًا هيأة تدعو الناس إلى دفعه. إذن كل شيء، في الوقت الحاضر، يسير بالمجاملات! ثاني أدوار الإمام هو تحشيد الجماهير من أجل الإنفاق. في الوقت الحاضر ما زلنا نحن في مراحل ابتدائية للغاية. وَليّ الأمة يقول لنا: «تصرّفوا بهذه الصورة...» وحسب. لقد أصدر قائد الثورة الإمام الخامنئي (حفظه الله) أمرًا بخصوص الإنجاب، فلماذا يُمسك الكثيرون؟! أيُعَدّ هذا من التَوَلّي حقًّا؟! إنك ترى بعض الشباب الولائي يقول متذرّعًا: «سأتزوج لاحقًا، ليس الآن..!» نحن إلى الآن لم نتعلّم التولّي والتمسك بالولاية جيدًا. لا بد أن يكون الإمام قادرًا على تحشيد الناس للإنفاق. روحي لأمير المؤمنين علي(ع) الفداء إذ كان الناس لا يطيعونه! مهما نادى في الناس للجهاد لم يأت أحد؛ «فَقَامَ عَلِيٌّ(ع)، فَنَادَى فِي النَّاسِ «الصَّلَاةَ جَامِعَةً»، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ(ص) ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ فَهَذَا صَرِيخُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَإِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَقَدْ سَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ النَّابِغَةِ عَدُوُّ اللهِ وَعَدُوُّكُمْ... فَكَأَنَّكُمْ بِهِمْ قَدْ بَدَؤُوكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِالْغَزْوِ فَاعْجَلُوا إِلَيْهِمْ بِالْمُوَاسَاةِ وَالنَّصْرِ...» (الغارات/ ج١/ ص١٩١) حتى توجّه يمشي قاصدًا المُعسكَر بمفرده. فسمع بعضُهم بذلك فجاؤوه وترجّوه أن يتريّث ويرجع حتى يجمعوا الناس...». روحي لك الفداء يا أمير المؤمنين(ع) إذ لم تَعُد الناس تُحشَّد بأوامرك. لا بد للإمام أن يملك قدرة تحشيد الناس. ومن يعطيه هذه القدرة؟ إنهم أولئك القلة من الصالحين الذين ينفقون؛ من أموالهم حتى أنفسهم، ومن سُمعَتهم حتى وجودهم كله.

الدور الثالث للإمام في موضوع الإنفاق هو كبح جماح خواصّ الأمة

وما هي مَهَمّة الإمام الأخرى بخصوص الإنفاق؟ إن من شأن خطاب الإنفاق في الأمة أن يكبح جماح خَواصّها لئلّا يتحوّلوا إلى سُرّاق لبيت المال. فلا بد لإمام الأمة، في ما يتصل بالإنفاق والشؤون المالية، أن يتمتع بقدرة على حَشد الخواصّ أكبر بكثير مما نشهده الآن، والحمد لله. إنه على الرغم من التحوّل الحاصل الآن في السلطة القضائية في البلد، وهو سعيها - من الآن فصاعدًا - لأن تَعُدّ «عدم عمل المسؤول وتركه العمل» جُرمًا وملاحقته لهذا السبب - وهو أمر جيد بحد ذاته - إلا أن سلطة القانون والقوة القسرية ليست بمستوى تستطيع من خلاله توطيد أركان الولاية. صاحب العصر والزمان(عج) أيضًا لن يقيم دولته بسلطة القانون والقوة القسرية وحسب. هذا على الرغم من أنه ما زال أمامنا الكثير لنتطور من حيث القانون؛ فإن قوانين كثيرة لدينا تحتاج إلى إصلاح، وإن رقابة مكثَّفة يجب أن تُفرض على المسؤولين، هذا بحد ذاته جيد، لكنه غير كافٍ.

يجب أن يكون ولي الأمة قويًّا لكي يتمكن من حشد الناس للإنفاق والمواساة/ السبيل لبسط العدل في المجتمع هي قوة الولي

هناك ثلّة من الملتفّين على القانون يعمدون دائمًا إلى مثل هذه الممارسات. مضافًا إلى أن البعض الآخر يعكّر أجواء البلد السياسية للحيلولة دون تنفيذ القانون، فنضطر باستمرار إلى ملاحظة بعض المصالح والتراجع عن تنفيذ القانون. كان أمير المؤمنين علي(ع) قد رفض أبا موسى الأشعري علنًا! لكن الناس كانوا قد شهَروا عليه(ع) السيوف وفرضوا أبا موسى فرضًا! ألَم يشرّع أمير المؤمنين(ع) قانونًا؟ بلى، شرّعَ قانونًا، لكن الناس خرقوه. يجب أن تكون لدى ولي الأمة المسلمة قوّة ونفوذ اجتماعي لكي يتمكن من حشد الجماهير لإشاعة ثقافة الإنفاق والمواساة، بل أن يتمتع بقوة لا يجرؤ معها أحد على اقتراف الخطأ حتى بمجرد إشارة من الولي.

هكذا سيكون الوضع في عهد حُكم صاحب الزمان(عج)، أما أمير المؤمنين(ع) فكان ثمّة من حوله من يقومون مقام «مِفَكّات البراغي!»، وكان أحدهم الأشعث. إننا لو تتبّعنا «الجذور السياسية لبسط العدالة» لتعالت الصيحات! السبيل لبسط العدل في المجتمع هي قوة ولي الأمة؛ قوته من حيث النفوذ الاجتماعي، وقوته لكبح جماح خواصّ الأمة حتى لا يجرؤوا على ارتكاب خطأ أو على عدم جعل المواساة سلوكًا لهم. ففي الخبر أنّ مَن يخرج من مسؤولي دولة صاحب الزمان(ع) عن دائرة أكل الخبز اليابس وارتداء اللباس الخشن فإن مكانه في النار! «...أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سِيَاسَةُ اللَّيْلِ وَسَبَاحَةُ النَّهَارِ وَأَكْلُ الْجَشِبِ وَلُبْسُ الْخَشِنِ شِبْهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ(ع) وَإِلَّا فَالنَّار» (الغيبة للنعماني/ ص٢٨٧). في اجتماع مع الكابينة الوزارية لإحدى الحكومات نصح قائد الثورة الإمام الخامنئي رئيس الحكومة بـ»التخلي عن الشكليات»، فاحتج رئيس الحكومة خارج الاجتماع على السيد القائد أنه: «لماذا قلت هذا؟!» فماذا تتوقعون أن يحصل في ظروف كهذه؟!

يقوم بعض الخواص والساسة مقام "مِفَكّ البراغي!" لسلطة إمام الأمة

يقوم بعض نُخب المجتمع والخواص والساسة، مقام «مِفَك البراغي!» أي يقومون بدور المُضعِف لسلطة إمام الأمة. فانظروا كم «مِفَك براغٍ» لدينا الآن في زماننا؟ ولأذكر لكم مثالًا. أول شهيدِ الاغتيالات في الجمهورية الإسلامية كان «الشهيد المشير قَرَني» من الجيش؛ أي إن الجيش كان قد قدم أول شهداء الاغتيالات، وهذا فَخر أبدي للجيش وكل أفراده. لكن ما الذي جعل الشهيد المشير قَرَني على هذه الدرجة من الغُربة في أيامنا هذه بحيث إن أغلب شبابنا غير مُطّلع على هذا الموضوع؟ السبب هو إن الماكنة الإعلامية في هذا البلد، ولمدة أربعين عامًا، كانت في الغالب في قبضة المتغرّبين والليبراليين الكثيري الصخب والدعاوَى، وأمثال هؤلاء لا يُسَرّون أبدًا بأن ترفعوا من شأن الشهيد قَرَني. لقد أرغمَ التيارُ الليبرالي المتغرّب الشهيدَ قَرَني، الذي كان قائد أركان الجيش في حينها، على الاستقالة، وألزَمَه السيدُ بازركان منزلَه، خلافًا لتوجيهات الإمام الراحل(ره)، ثم تم اغتياله بعد استقالته! وكان، رحمَه الله، أول من اغتيل وسُقي كأس الشهادة على يد «المنافقين» (زمرة «مجاهدي خلق!»).

كان السيد بـازركان يقـول في زمـرة مجاهـدي خلق: «إنهـم أبنائي!» والإمـام الراحل(ره) أيضًـا قال: «هؤلاء الإرهابيـون هـم أبنـاء السـيد بـازركان». والآن نشـاهد اسـم الأب الروحي لقاتلي الشـهيد العزيـز قَرَني، أي المرحـوم بـازركان، يُكتَـب عـلى جـدران العاصمـة طهـران! أي إن مجلـس محافظـة طهران قرّر أن يسـمي أحـد شـوارع طهـران باسـم «بـازركان». فلتدَعـوا وصمـة العـار هـذه تعلـو جبـاه المتغرّبـين إلى الأبـد!

بازركان، أنموذج المُضْعِف لولاية الفقيه

لمـاذا أنـا أضرب مـن حركـة «نهضـت آزادي» (نهضـة الحريـة) وبـازركان مثـلًا؟ لأني أريـد أن أبـيّن مـن خـلال ذلـك النمـط الأنيـق والمرتَّـب جـدًّا للعامـل المُضْعِـف للولايـة والثـورة. ولأن بـازركان هـو النمـوذج البـارز للعامـل المُضعِـف لولايـة الفقيـه في زمـان الإمـام الراحـل(ره)، واليـوم أنتـم تشـاهدون بـأُمّ أعينكـم الذيـن يُقَـوّون هـذا العامـل المُضعـف للولايـة. الإمـام الخمينـي(ره) كان قـد كتـب إلى وزيـر الداخليـة في حينـه حـول «نهضـت آزادي» (أي حـزب السـيد بـازركان) مـا نصـه: «هنـاك حـول مـا يسـمى بـ»نهضـت آزادي» مواضيـع جمـة تتطلـب مناقشـتها سـاعات مطوّلـة. لكـن مـا ينبغـي قولـه من بـاب الإجـمال: إن ملـف هـذه الحركـة وأداءهـا إبـان الحكومـة المؤقتـة في أوائـل عهـد انتصـار الثـورة يُثبـت أن هـذه الحركـة هـي مـن الأنصـار الأشـدّاء لتبعيـة دولـة إيـران لأمريـكا، وهـي لم تَـألُ جهـدًا في هـذا المجـال... إن حركـة «نهضـت آزادي» ليسـت مؤهَّلـة لأي دور تنفيـذي، أو تشريعـي، أو قضـائي، وإن ضررهـا - عـلى اعتبـار تظاهرهـا بالإسـلام، وأنهـا سـتعمل عـبر هـذا السـلاح عـلى حَـرْف شـبابنا الأعـزة، ومـا يمكـن أن تتسـبب بـه مـن فسـاد كبـير مـن خـلال تدخّلاتهـا السـلبية في تفسـير القـرآن الكريـم والسُـنّة الشريفـة وتقديـم التأويـلات التـي تنـم عـن جهـل - إن ضررهـا أفـدح مـن ضرر الزُمَـر الأخـرى، بمـا في ذلـك زمـرة المنافقـين، الأبنـاء المحبوبـون للمهنـدس بـازركان» («صحيفـه امـام» (صحيفـة الإمـام/ ج٢٠/ ص٤٨١). لاحظـوا أن الإمـام الراحـل(ره) كان يـأبى أن يقـول: «نهضـت آزادي» (نهضـة الحريـة)، بـل يقـول: «مـا يسـمى بنهضـة الحريـة»، لأنهـا - في واقـع الأمـر - كانـت نهضـة العبوديـة، لا الحريـة!

لقد أودى مُضعِفو الولاية بالأمور إلى جعل الناس يقتلون الإمام الحسين(ع)/ نحن لا نريد أن نكون من مُضعفي الولاية

وليّ الأمة هو في قمة النجابة، ونجابته هذه هي أحد أسرار ظلامته. لقد أَودَى مُضْعِفو الولاية على مدى التاريخ بالأمور إلى جعل الناس يُقْدِمون هم على قتل الإمام الحسين(ع)! ونحن لا نريد أن نكون في عداد مُضعِفي الولاية. يقول الإمام الراحل(ره): «إن ضرر نهضة الحرية هو أشد من ضرر زمرة المنافقين الإرهابية»؛ أي أولئك الإرهابيون الذين قتلوا سبعة عشر ألفًا من أفراد الشعب. بعد اغتيال الشهيد المشير قَرَني (أعلى الله مقامه الشريف) أرادوا دفن جثمانه في مقبرة «بهشت زهرا» (جنة الزهراء (س))، فقال سماحة الإمام الراحل(ره): خذوه إلى مدينة قم وادفنوه عند مرقد السيدة فاطمة المعصومة(س) بجوار سماحة آية الله الحائري(ره)، مؤسس الحوزة العلمية بقم المقدسة. لقد كان عسكريًا عظيمًا. ينبغي لهؤلاء الشباب جميعًا أن يعرفوا المشير قَرَني. لماذا لا يُذكَر اسمه في المناهج الدراسية؟! كان الشهيد قَرَني الرجل العظيم الذي صانَ الثكنات العسكرية في أوائل أيام انتصار الثورة. وكان حبيس السجون لبضع سنين قبل انتصارها. وهناك أقوال بأن خطة اغتيال سماحة الإمام الخميني(ره) في النجف الأشرف - والتي تم رسمُها في أنظمة الجيش أيام الحكم الطاغوتي - كانت قد كُشِفَت وأُجهِضَت بمساعدته. وكان هو من حَشَد العسكريين وحثهم على الصمود بعد انتصار الثورة بوصفه إنسانًا وطنيًا. لماذا المشير قَرَني غير معروف إلا لنسبة ضئيلة من شبابنا؟ أيها الأصدقاء، يا من تثمّنون جهود الحاج قاسم سليماني كل هذا التثمين، لا تنسوا المشير قَرَني، فهو العزيز الغالي على قلوبنا.

فضح خيانة حكومة بازركان في كتاب استقالة الشهيد المشير قَرَني

كان الشهيد قَرَني قد كتب كتاب استقالة، إلا أن الإمام الراحل(ره) طلب إليه البقاء في منصبه. فدعاه السيد بازركان بعد بضعة أيام وقال له: «لقد تمت الموافقة على استقالتك». ومن بعد أن أصبح جليس الدار، قتلوه! جاء في كتاب استقالة الشهيد قرني: «على وتيرة يومية يُصدر نائب رئيس وزراء الثورة، الذي يرى نفسه المشرّع للقوانين والمالك للرقاب، ودونما التفات منه إلى مكانة الجيش وتجهيزاته، بل ومن دون مشاورتي أيضًا مع الأسف - يُصدر توجيهات تؤدي كل حين إلى ضربات مُوجِعة لمعنويات الضباط ووقوع كميات من السلاح والعتاد والأموال في أيدي الفاسدين والمرتبطين بالأجانب. إن وزير الدفاع يعمد - من دون التشاور معي وفي ما هو خارج عن نطاق صلاحياته - إلى التصريح بشكل غير مسؤول أمام الإذاعة والتلفزيون والصحافة من أن: الجنود في شهر فروردين [رأس السنة الشمسية] في إجازة! فتَترك تلك القلة القليلة من الجند، التي عمل الجيش بشق الأنفس على الاحتفاظ بها في الثكنات العسكرية – تَترك مواقعها في حراسة الثكنات عائدة إلى منازلها، وتتسلل تحت جنح الظلام عناصرُ من حزب «تُودَة»، المرتبطة بالسياسات الأجنبية، بشاحناتها إلى الثكنات فتشحن ما بقي فيها من الأسلحة والعتاد إلى خارج المدن. وهذا هو ما دعاني إلى الاستقالة». أي كانت الحكومة المؤقتة تعلن العطلة في الثكنات، ليتركها الجنود، فتأتي عناصر مرتبطة بحزب «تودة» لتشحن ما فيها من أسلحة وعتاد بالشاحنات وتأخذها إلى أماكن مجهولة! ويتابع الشهيد قرني في كتاب استقالته: «من دون استشارة قيادة الجيش وأعلى مرجع لتقييم الأوضاع في محافظة كردستان أرسلَت الحكومة وفدًا من المندوبين إلى المحافظة، حيث لدى وصولهم إليها وبعد أول إشاعات أطلقوها، دفعوا الأهالي إلى مداهمة ثكنة مهاباد العسكرية ونهبها، وإمطار قائد الثكنة بالرصاص أمام أنظار الوفد المذكور!» كان هذا الوفد المفاوض مرسَلًا من السيد بازركان للتفاوض مع الإرهابيين. فاشترط الأخيرون أن: «ليتم إخلاء الثكنة كي نتفاوض معكم». فطلب الوفد إلى آمر الثكنة إخلاءها. لكن الإرهابيين أَقدَموا بكل بساطة، بعد إخلاء الثكنة، على اختطاف آمِرها! ولدى وصول وفد الحكومة المؤقتة المفاوض قتلوا آمر الثكنة رميًا بالرصاص أمام الوفد! يقول الشهيد قرني: «هذه هي مواجعي...!» وإني لأطالب رئيس مجلس المحافظة أن يطالع تقارير والده وكتاباته حول خيانات بازركان.

الدور الرابع للإمام في خطاب الإنفاق هو تحديد مجالات الإنفاق وكونه صاحب السلطة على الأموال

وما هو الدور الآخر للإمام في موضوع الإنفاق؟ دوره الآخر هو أنه هو الذي يحدد مجال إنفاق الأموال وصرفها. بعد معركة حُنَين وحين أمر رسول الله(ص) بإعطاء أهل مكة الحظ الأوفر من الغنائم لأنهم جديدُو العهد بالإسلام، قال له حرقوص بن الزهير: «اِعدِلْ يا رسول الله»، فقد كان معارضًا لطريقة تقسيم الغنائم، وهذا أحد مواطن الامتحان. الامتحان الآخر هو أن الولي هو صاحب السلطة على أموال الناس، وأنه ينبغي أن يأخذ بعضَها لنفسه. لقد جاء الأمر إلى النبي الأعظم(ص) من الله عز وجل أن يهَبَ الأموال التي وقعت في يد المسلمين من دون قتال لفاطمة الزهراء(س)، فكان أن وهبها فَدَكًا. وأول ما حدث بعد رحيل رسول الله(ص) هو أنهم أخرجوا عُمّال السيدة الزهراء(س) من فدك واستولوا عليها. وعلى خلفية ذلك ضُرِبَت الزهراء(س) وحدث كل ما قد سمعتم به! وحين طالبت الزهراء(س) بفدك كان ردهم في بادئ الأمر أن: «النبي لا يُوَرِّث». وحين أثبتت(س) أن كلامهم لا أساس له من الصحة قالوا: «لقد جعلنا فدك من بيت المال لتُوزَّع على الناس، فما شأنُكِ ببيت المال؟! إنْ كنتِ تريدين بستانًا أعطيتكِ أنا واحدًا!» فتوجّهت الزهراء(س) إلى الناس مبيّنة لهم أنه يغصبُها حقَّها. لكن حق فاطمة الزهراء(س) كان قد قُسِّم وكان ينزل في بطون أولئك الناس جميعًا، فطأطؤوا رؤوسَهم. خاطبَتهم، سلام الله عليها، (بما مضمونه): أيها الناس، إني ابنة نبيكم، ولقد عاهدتموه أن تصونوا ابنتَه من بعده...! بهذه البساطة ترك الناسُ فاطمة الزهراء(س) وأمير المؤمنين(ع) غريبَين، بما وجدوا من ذريعة جيدة! وبعد عودتها إلى الدار قالت للإمام علي(ع): «لَيتَني مِتُّ» ولم أشاهد هذه المشاهد! أوَتكون فاطمة الزهراء(س) قد استُشهِدَت لأمر تافه؟ أهو موضوع بسيط يا ترى؟ أتدرون من هي الصِدّيقة الكبرى(س)؟ لقد قالت(س) بخصوص هذا الأمر: «لَيتَني مِتُّ»...! ففدَك إذن موضوع مهم. ألا يرتبط موضوع فدك بالشُحّ والإنفاق؟ ألم يكن الناس يدركون لماذا ينبغي لهذه الأموال أن تكون مِلكًا لابنة رسول الله(ص)؟!

مباشرةً بعد رحيل رسول الله(ص) اختُبِر الناس ببُخلهم مع فاطمة(س)

ليت الأئمة والأنبياء لم يتدخلوا في الشؤون المالية! فالرَدّ صعب! إننا إلى الآن لا نستطيع ذِكْر مصيبة فدك براحة بال! إلهي، أي امتحان هذا الذي أخضَعتَ الناسَ له؟! أخالفوا علي بن أبي طالب(ع) بعد وفاة النبي(ص) مباشرةً؟ الأسباب لمخالفتهم لعلي بن أبي طالب(ع) متشعّبة! ظَلَّ الإمام علي(ع) جليس الدار.. انتهت قضية عليّ(ع).. فانتفضت فاطمة الزهراء(س) منادية: أعطوني فدك! فماذا كانت مشكلتهم مع فاطمة(س)؟ ما الذي صنعَتْه(س)؟ أكانت قضيتها مالية؟ القضية أعقد بكثير من هذا. مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم(ص) اخُتبِرَ الناس ببخلهم مع الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء(س)! أتفقهون ما معنى هذا؟ يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى» (الأنفال/٤١). أنصحكم أن لا تترجموا هذه الآية مَرَّةً أمام أحد! فلقد ألّفَ بعضُ «المثقفين!!» كتبًا في هذا المجال!!...

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق؟/ لا بد للإمام من قدرة مالية

ما هو محل ولي الله من مسألة الإنفاق (بذل النفس، إنفاق المال)؟ دعوني أتلوا عليكم واحدة من بضع آيات قرآنية في هذا المجال: «مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثيرَةً» (البقرة/٢٤٥)؛ يُقرِضُه (أي ينفق) من الأموال التي أعطاه هو (الله) له. هكذا يقول الإمام الصادق(ع)، في ما روي عنه، في تفسيره لهذه الآية: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِخْرَاجِ الدَّرَاهِمِ إِلَى الإِمَامِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَجْعَلُ لَهُ الدِّرْهَمَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ» ثم قال «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً». قَالَ(ع): «هُوَ وَاللهِ فِي صِلَةِ الْإِمَامِ خَاصَّة» (الكافي/ ج١/ ص٥٣٧)؛ أي إنه أقسم على أن هذه الآية نزلت خاصّةً في دفع الأموال للإمام. أين يقف الإمام من موضوع الإنفاق؟ يروى عن الإمام الصادق(ع) قوله: «دِرْهَمٌ يُوصَلُ بِهِ الْإِمَامُ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ يُنْفَقُ فِي غَيْرِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٧٣). فانظر حينئذ كم ستكون القدرة المالية للإمام؟

يقـول تعـالى في موضـع آخـر: «مَـا أَفَـاءَ اللـهُ عَـلى رَسُـولِهِ مِـنْ أَهْـلِ الْقُـرى فَلِلَّـهِ وَلِلرَّسُـولِ وَلِـذِي الْقُـرْبى وَالْيَتامـى وَالْمَسـاكينِ وَابْـنِ السَّـبيلِ كَيْ لا يَكُـونَ دُولَـةً بَـيْنَ الْأَغْنِيـاءِ مِنْكُـم» (الحـشر/٧)؛ أي: إن مـا يُعيـدُه اللـه تعـالى مـن أهـل القـرى إلى رسـوله(ص) هـو ملـك للـه ولرسـوله ولأقربـاء رسـوله واليتامـى والمسـاكين والمسـافر المُنقطِـع (الـذي يريـد الرجـوع إلى بلـده ولا يجـد مـا يتبلّـغ بـه) كي لا يتناقَـل أغنياؤُكـم هـذه الأمـوال الضخمـة فيـما بينهـم. فـلا بـد أن تكـون للإمـام قـدرة ماليـة.

ماذا نصنع لننجح مع الولي الفقيه في امتحان الولاية فنتدارك كل ما كان في التاريخ من نقص في ما يتصل بالإمامة؟

أتحبـون أن يظهـر صاحـب الزمان(عـج) ويحكـم العـدلُ الأرضَ؟ تعالـوا إذن نجتـاز بنجـاح امتحـان الولايـة – الـذي نعيـش الآن مرحلـة ولايـة الفقيـه منـه – ونتـدارك كل مـا كان في التاريـخ مـن نقـص وخلـل في مـا يخـص الإمامـة: أولًا: كـم قـد نفَـذَتْ ولايـة الفقيـه في أعماقـك، وتغلغلـت في حياتـك الشـخصية وفي نمـط حياتـك اليومـي؟ دع العالَـم كلـه يقـول مـا يشـاء، واجعـل نمـط حياتـك التـالي: قُـل مثـلًا: أنـا أَتـزوَّج لأن السـيد القائـد (الإمـام الخامنئـي) أوصى بذلـك، أنـا أُنجـب أطفـالًا أكـثر لأن السـيد القائـد أوصى بذلـك، أنـا أمتنـع عـن شراء سـلعة كـذا الأجنبيـة لأن السـيد القائـد أوصى بذلـك... ثانيًـا أن نعمـل عـلى ترسـيخ نفـوذ الـولي الفقيـه في نفـوس أفـراد المجتمـع. كيـف؟ بـأن نوضـح وظيفـة وأداء الـولي الفقيـه في الأمـة. ذات يـوم سـأل طالـب جامعـي الإمـام الخامنئـي: مـا البـأس في أن يوجَّـه إليـك الانتقـاد؟ فأجابـه سـماحة السـيد القائـد، بعـد أن أوضـح لـه أنـه لا بـأس في الانتقـاد، وأن هنـاك الكثـير ممـن يتكلـم وينتقـد: «إذا كان الانتقـاد بمعنـى الانتقـاص... أيُّ حُسْـن ثمـة في انتقـاص القائـد؟ أمـن المصلحـة أن يقـف شـخص أمـام القائـد ويتفـوه ضـده ببـذيء الـكلام، وهـو الـذي مـن المفـترض - بحسـب نظـام الجمهوريـة الإسـلامية - أن تكـون إشـارة واحـدة مـن إصبعـه كافيـة، في أحلـك الظـروف، لدفـع الشـعب إلى التضحيـة بالأنفـس؟!» (في جلسـة أسـئلة وردود مـع مسـؤولي وأمنـاء المطبوعـات الطلابيـة في ١٩٩٩/٢/٢٣). رد في منتهـى البسـاطة والعقلانيـة والوضـوح.

يـا أمـير المؤمنـين، لقـد كـسروا ظهـرك وجرحـوا قلبـك في قضيـة الغـارات في الشـام نفسـها فـصرتَ تنحنـي في البـئر مناديًـا! يـا أمـير المؤمنـين، لقـد أغـار الدواعـش في زماننـا هـذا، وفي الشـام نفسـها، فأُحبطـت غاراتهـم بإشـارة مـن الـولي الفقيـه عـلى يـد أمثـال الجـنرال سـليماني، والشـهداء حُجَجـي، وهمـداني، وخوشـنويس! أرأيـتَ سـيدي مـا سـطروا مـن بطـولات؟! هـذا ولم يأمـر السـيد القائـد حفظـه ولا مـرة بـأن: «توجّهـوا للقتـال!» ففـي زمـان الحـرب كان الإمـام الراحـل(ره) قـد دعـى بضـع مـرات إلى التوجـه إلى الجبهـات، أمـا في زمـن الـذود عـن الحـرَم والمقدسـات فلـم يَـدعُ السـيد القائـد لذلـك ولا مـرة! وهـذه تباشـير قـرب الظهـور. ثالثًـا: يجـب أن تقفـوا بـكل قـوة في وجـه نُخـب المجتمـع والخـواص والساسـة الذيـن يقومـون مقـام «مِفَـك البراغـي» تجـاه قـدرة الـولي وقوتـه لإضعافهـا، ولا تدعـوا أحـدًا منهـم يجـرؤ عـلى الدنُـو قيـد شـعرة مـن مقـام الـولي وحريمـه وحرمتـه.

إن جانبًا من عظمة عاشوراء هو رهنُ روعة التولّي

لقـد بلـغ الأمـر ليلـة العـاشر مـن المحـرم أن قالـت العقيلـة زينـب(س) لأبي عبـد اللـه الحسـين(ع): هـل أنـت مطْمَـئِن مـن أصحابـك؟ «هَـل اسـتَعلَمتَ مِـن أَصحابِـكَ نِيّاتِهِـم؟» ما معنى هـذا السـؤال؟ أي: أأنتَ واثـق مـن أنهـم غـدًا لـن يخذلوك ويـذروك وحيدًا؛ «فَـإِنّي أَخـشَى أَن يُسْـلِمُوك عِنـدَ الوَثبَـة!» فزينب(س) تذكـر خيانـة أصحـاب أبيهـا أمـير المؤمنـين وأخيهـا الحسـن المجتبـى(ع) لهـما. يـا حبيبـي يـا حسـين! أخـشى أن يغـدر بـك أصحابُـك غـدا فتذهـب ملحمتُـك العظيمـة أدراج الريـاح! فإنهـم الخـواص الدنيئين الوضيعـين الذيـن كانـوا مع الإمام الحسـن(ع) وأرادوا أن يُسْـلِموه(ع) هكذا إلى عـدوه! أعادت زينب(س) السـؤال: أأنـت واثـق مـن أصحابـك؟ فقـال لهـا الحسـين(ع): أجـل يـا زينـب، اطمَئِنّـي، إنني واثـق منهم؛ «واللـه لقـد بَلوتُهُـم فَـمَا وَجَـدتُ فيهم إلّا الأَشـوَسَ الأَقعَـسَ يَستَأنِسـونَ بِالمَنِيَّـةِ دُوني استِئناسَ الطِّفلِ إلَى مَحالِـبِ أُمِّـه» (مقتـل الحسـين للمُقَـرّم/ ص٢٢٦). إن جانبًـا مـن عظمـة عاشـوراء هـو رهـن روعـة التولّي والتمسـك بالولايـة هـذا، التـولّي عنـد الأصحـاب الذيـن كانـوا يتبـارَون للاستشـهاد في سـبيل مولاهـم!....

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاك المجتمع (المحاضرة 11)

الزمان: 10/محرم الحرام/1442 - 30/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

لا تقوم الحضارة المتأسِّسة على الإنفاق إن لم يكن على رأسها "ولي"/ لُبّ المُناداة بالعدالة هو أن نسعى لتحقيق مطالبات إمام الأمة

ليس هناك أي مفهوم أخلاقي في الدين مجرد عن البعد السياسي والاقتصادي والاجتماعي

على خلفية ما جرى من حوارات فقد باتت ضرورة اهتمامنا «بنظام الفكر الديني» واستيعاب مبادئه أكثر وضوحًا، وإن كانت هذه الضرورة واضحة قبل اليوم أيضًا. ومن هذه المبادئ هي أنه ليس هناك مفهوم أخلاقي لا يملك مُلحَقًا سياسيًا واقتصاديًا، بل تفسيرًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا. وليس ثمة مفهوم حقوقي في الدين لا يستتبِع معه مُلحَقًا أخلاقيًا ومعنويًا وعرفانيًا، فلا يجوز النظر إلى المفاهيم الدينية نظرة علمانية. فليست القضية أن هناك مجموعة من المفاهيم هي أخلاقية محضة، وهناك مجموعة أخرى منها هي سياسية أو اجتماعية محضة. الأمر ليس هكذا على الإطلاق. فإن دققنا النظر لوجدنا أن تطبيق المفاهيم في القرآن الكريم متعدد الأبعاد. على سبيل المثال: كل واحد من مفاهيم الإنفاق والصدقة والزكاة يكون تارةً واجب، وتارةً أخرى مستحَب. والمواساة هي حينًا واجبة وطورًا مستحبّة. فلماذا ترانا إذا سمعنا بالمواساة نحُدُّها في إطارها الأخلاقي الأضيق؟ فإنك، في بعض المواقف والأحداث، إن لم تواسِ إمام الأمة تكون قد خُنتَه واستوجبتَ اللعن من الله عز وجل! فالمواساة ليست دائمًا مسألة أخلاقية، وليست هي موضوعًا اقتصاديًا محضًا، بل إنها حاضرةٌ في ميادين أخرى أيضًا؛ كالاستعداد للتضحية وبذل النفس. وهي تُستخدم أيضًا في «رَهْن السُمعة»، وفي الجهاد والشهادة؛ فإن أمير المؤمنين(ع) قد واسَى رسولَ الله(ص) في وَقعَة أُحُد بينما فَرَّ الآخرون. وكذا هو الحال مع الإنفاق والزكاة والصدقة. فإن بعض المفرادات قد اشتهرت بصورةٍ بحيث لا يتبادر إلى الذهن لدى سماعها إلا مفهوم أخلاقي واحد. ولسنا نعثُر في الدين أساسًا على مفهوم أخلاقي محض لا يحتمل بعدًا اجتماعيًا سياسيًا. وهذه القضية هي بسبب بعض سوء الفهم الحاصل.

في عالَم اليوم حضارتان: حضارة قائمة على الإمساك وأخرى مبنية على الإنفاق

إن أردنا الخروج من بحثنا بخلاصة نقول: لدينا في العالم اليوم حضارتان: حضارة قائمة على الإمساك، ولنُسَمِّها الفردية، أو الليبرالية، أو الحضارة الغربية، وهي متأسسة على الرأسمالية والسوق الحرة؛ وهذه بالطبع كِذبة، فليس ثمة سوق حرة بهذا المعنى. ثمار هذه «الحضارة القائمة على الإمساك» لا تجنيها إلا دكتاتورية الرأسماليين الانتهازيين - كما يسمّيهم الإمام الراحل(ره) - ودكتاتورية الكارتلات والترَسْتات أو، على حد قول المواطنين الغربيين أنفسهم: حكم الواحد بالمئة للتسعة والتسعين بالمئة (وهو الشعار الذي رفعته حركة وول ستريت). في الظاهر يسمّونه «النظام الرأسمالي» و«نظام السوق الحرة» لكنه إذا اغتنَتْ، في هذا النظام، ثلة قليلة داسَت على الباقين! هذا هو ما يحصل في الغرب، فليس ثمة مجال للتنافس بالمعنى الحرفي للكلمة، نعم قد تكون السوق حُرَّة في حدود التضليل والتعمية. فقبل حوالي خمسة عشر عامًا من الآن سألني تاجر إيراني يعيش في كندا: «أريد أن أنقل رأسمالي إلى إيران، فكيف هي الأوضاع عندكم؟» قلتُ له: «ولماذا لا تنمّيها هنا في كندا؟» قال: «هنا لا يمكن إنماء رأس المال أعلى من حد معيّن، لأن السوق في قبضة اليهود وسيعملون على خنقك! إنهم يسمحون لك بالنماء إلى حد معيَّن فقط!»

السبيل إلى العدالة هي تصميم هيكليات على أساس من الإنفاق

في مقابل حضارة الإمساك تقوم حضارة الإنفاق. وليس الإنفاق بمعنى التصدق فحسب، إنّ من السيّئ جدًا أن نتعاطى مع مفاهيم ديننا بهذه الطريقة. فالإنفاق والزكاة، بالمعنى الأعم للكلمة، هما الاستعداد للبذل والعطاء. هذا هو ما يطالبنا به الدين، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه النظام الإنساني. وإن كنا نصبو إلى العدالة كغاية فما من سبيل إليها سوى أن نصمم هيكليات على أساسٍ من الإنفاق. لقد تلوت على مسامعكم آراء سماحة آية الله الشاه آبادي(ره)، وهو النابغة الفذ في الفقه والعرفان معًا، حول وضع الهيكليات الاجتماعية. قال لي أحد الباحثين: «إننا لم نستطع أن نجني من كتاب «اقتصادنا» للشهيد الصدر(ره) في وضعنا للهيكليات الاجتماعية ما جنيناه من آراء آية الله الشاه آبادي(ره)، فإنه أساسًا قد اختار لنماذجه الاقتصادية الاجتماعية، التي يريد السير بها نحو الحضارة الإسلامية، في مقابل الحضارة الغربية - اختار لها عنوان «الأخُوّة والمواساة» ووضع أنموذجه على هذا الأساس».

لماذا لم تتحقق العدالة في بلدنا إلى الآن؟ لأن سبل تحقُّقها لم تُبيَّن لحد الآن

غايتنا من هذه المحاضرات هي أن نرى إن كان الوقت الراهن هو زمان هذا الكلام أم لا؟ وإنه لَمن الواضح، لألف سبب وسبب، أن الوقت الراهن هو وقت هذا الكلام. فلقد ولّى زمن الحديث عن مفهوم العدل، لأن شعبنا راغب في العدالة، ولقد دار محرك المناداة بالعدالة في الحد الذي تسمح به قوانيننا، والسلطة القضائية أيضًا تسير في هذا الاتجاه. فلماذا لم تتحقق العدالة إذن؟ لأن سبل تحققها لم تُبيَّن في بلدنا لحد الآن. وحين نتكلم على المواساة انطلاقًا من آراء سماحة آية الله الشاه آبادي(ره) فإننا في صدد طرح سُبُل لتحقيق العدالة. يتصور البعض أن العدل هو في حدود هذه القوانين القائمة، والتي إذا دِيسَت وانتُهِكَت سمّاها «بحسب العادة» سرقة. إلا أن العدل لن يتحقق حتى إذا مُنِعَت هذه السرقات، بل لا بد – في سبيل ذلك - من تأسيس حضارة قائمة على المواساة، ووضع نماذج اقتصادية واجتماعية مبنية على المواساة. فإن كنا بانتظار ظهور قائم آل محمد(عج) حقًّا تحتَّمَ علينا التوجّه نحو هذه المفاهيم الجوهرية، وهي مفاهيم لم نخلقها نحن، بل موجودة في القرآن الكريم والسُنّة الشريفة.

لُبّ المناداة بالعدالة هو أن نسعى لتحقيق مطالبات إمام الأمة

إن لُبّ المناداة بالعدالة هو أن نسعى لتحقيق مطالبات إمام الأمة، التي تنطوي على مطالبات الجماهير أيضًا؛ أي أن نجعل لكلام الولي القائد هيبة وقوة ونفوذًا فلا يجرؤ أحدٌ على تخطي الاستراتيجيات التي يضعُها سماحته (في مجال الاقتصاد المقاوم، أو سيرة المسؤولين، على سبيل المثال). ولقد قصّرنا حقًّا في هذا الجانب، إذ لم نحاسب (المسؤولين) على صعيد العدالة السياسية، ولذا فقد تجرَّؤوا وتخطّوا التوجيهات! ذات مرة ظهر سماحة السيد القائد في التلفاز وهو يتفقد معرضًا للمُنتجات الإيرانية وكان وزير العمل والرفاهية الاجتماعية برفقته. وقد شكى أحد الصناعيين أمام سماحة القائد من أن الواردات المُطلَقَة العِنان للسلع الأجنبية قد أضرَّت بصناعتنا. فأوضح وزير العمل أننا قد اتخذنا الإجراءات اللازمة في هذا الصدد ونحن نتابع الموضوع لحل هذه المشاكل، ...إلخ. فقال سماحة السيد القائد للوزير: «لو كنتُ مكانك لأقَمتُ الدنيا في مجلس الوزراء على قضية الواردات». وكلام السيد القائد هذا يدل على أن الوزير المذكور لم يكن قد اتخذ الإجراءات اللازمة. أليست هذه أصول تبديد العدالة؟!

لـو اسـتطاع مجلـس الشـورى الإسـلامي تغيـير «النظـام المـالي والمـصرفي» وفقًـا للخطـة الجديـدة فسـوف يُعبَّـد طريـق أمـام تحقيـق العدالـة، وإلا فمـع النظـام المـصرفي القائـم ونظـام الموازنـة الحـالي سـوف نسـتمر في السـير في طريـق اقتصـاد الريـع، وسـيظل لـواء المنـاداة بالعدالـة مرفوعًـا، والنزاعـات قائمـة.

موضوع المواساة هو أحد سبُل العدالة

أصـل العدالـة راسـخ في مجتمعنـا في الوقـت الحـاضر، وإنّ سـعيي الآن يتجـه نحـو «سـبُل تحققهـا»، والخـوض في بحـوث تربويـة لهـذا الغـرض. إلا أن البعـض يحتـج عـليَّ مـن أنـه: «لمـاذا تخـوض في بحـوث تربويـة؟ لِـمَ لا تتنـاول قضيـة المنـاداة بالعدالـة مـن بُعـد اجتماعـي؟» أقـول: مجتمعنـا الآن مسـتعد لتحقيـق سـبل العدالـة، وإن أحـد هـذه السـبل هـو موضـوع المواسـاة. في الوقـت الحـاضر علينـا أن نبحـث في مفهـوم المواسـاة، ومـن الناحيـة الزمانيـة فالوقـت الآن هـو وقـت تنـاول هـذا الموضـوع. ولا نقصـد المواسـاة بمعناهـا الأخلاقـي، بـل بمعناهـا السـياسي؛ أي كـما قـد أشرنـا مـن أن الإمـام عـلي(ع) كان قـد أدى حـق المواسـاة تجـاه النبـي الأعظـم(ص). فانظـروا الآن أيّ واحـد مـن مسـؤولينا أدّى حـق المواسـاة تجـاه قائـد الثـورة الإمـام الخامنئـي؟ فالمواسـاة ليسـت مجـرد مفهـوم أخلاقـي محـض، بـل هـي مفهـوم سـياسي بامتيـاز. إن عـلى المسؤولين أن يواسـوا سـماحة السـيد القائـد؛ عليهـم أن ينظـروا في مطالباتـه، ومـا يتوقـع منهـم، فيعملـوا عـلى تنفيذهـا. لا يجـوز لهـم تخطـي الاسـتراتيجيات التـي وضعهـا (في مجـال الاقتصـاد المقـاوم، ومـا إليـه عـلى سـبيل المثـال)!

قد يطلب الله من الإنسان مالاً فيُخرِج بذلك أضغانه

مـا قلنـاه لحـد الآن كان خلاصـة مـا طرحنـاه سـابقًا. ونواصـل الآن بحثنـا بالمـرور عـلى آيـات مـن الذكـر الحكيـم. ولعـل هـذه الآيـات تبـدو أكـثر شـفافية لمـن حـضر النقـاش في موضـوع الإمسـاك والاحتفـاظ بالممتلـكات وموضـوع البـذل والإنفـاق. يقـول تعـالى في سـورة محمـد(ص)، في الآيـات ٣٦-٣٨: «إِنَّمَـا الْحَيـاةُ الدُّنْيـا لَعِـبٌ وَلَهْـوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُـوا وَتَتَّقُـوا يُؤْتِكُـمْ أُجُورَكُـمْ وَلا يَسْـئَلْكُمْ أَمْوالَكُـم»؛ أي: لا تخـف! إن اللـه لا ينـوي أخـذ مالِـك منـك، بـل سـيعطيك أجـرك إن آمنـتَ واتقَيْـت. «إِنْ يَسْـئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُـمْ تَبْخَلُـوا وَيُخْـرِجْ أَضْغانَكُـم»؛ ولـو أنـه تعـالى طالبَـك يومًـا مـا ببعـض مالِـك وألحَـفَ وأصَرّ عليـك بالسـؤال فإنـك سـتبخل عليـه، وبذلـك سيُخرِج اللـه مـا في صـدرك مـن الضغائـن.

مـا بالُـك يـا هـذا؟ أفهـل طالبَـك اللـهُ بـشيء يُذكَـر يـا تـرى؟ قالـوا: ابـذل المـال في سـبيل اللـه. عـلى أن هـذا المـال ليـس بمقـدار الصدقـة البسـيطة التـي تُلقيهـا صباحًـا في صنـدوق هيئـة الإمـام الخمينـي(ره) للإغاثـة. فالفاجعـة أعظـم! «إلهـي، إنـك تقـول لي بـكل صراحـة: اَعْـطِ بعـض دَخلِـك!» أجـل، إنـك أساسًـا - وعـلى حـد قـول العلامـة الطباطبـائي(ره) - تعمـل للنـاس، وليـس مالُـك ودخلُـك ملـكًا لـك، بـل هـو مِلـك اللـه تعـالى. «إلهـي، الـكلام الـذي تقولُـه هنـا شـديد جـدًا!» أجـل، ولهـذا قـال: «يُخْـرِجْ أَضْغانَكُـم»؛ فـإن حقـدًا سـيتولد لهـذا السـبب في قلبـك، وسـيَخرج إلى العلـن! ثـم يقـول في الآيـة التاليـة: «هَـا أَنْتُـمْ هـؤُلاءِ تُدْعَـوْنَ لِتُنْفِقُـوا في سَـبيلِ اللـهِ فَمِنْكُـمْ مَـنْ يَبْخَـلُ وَمَـنْ يَبْخَـلْ فَإِنَّمَـا يَبْخَـلُ عَـنْ نَفْسِـهِ وَاللـهُ الْغَنِـيُّ وَأَنْتُـمُ الْفُقَـراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّـوْا يَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْرَكُـمْ ثُـمَّ لا يَكُونُـوا أَمْثالَكُـمْ» (محمـد(ص)/٣٨)؛ فبمجـرد أن يطالبكـم اللـه تعـالى بـأن تنفقـوا شـيئًا في سـبيله يَبخَـلُ بعضُكـم. لاحـظ هنـا تعامُـل اللـهِ الـذي ينُـمُّ عـن غضـب: «وَمَـنْ يَبْخَـلْ فَإِنَّمَـا يَبْخَـلُ عَـنْ نَفْسِـهِ»؛ أي: مَـن يَبخَـل فإنـه سـيمنع الربـح عـن نفسـه! كـم هـو جاهـل! «وَاللـهُ الْغَنِـيُّ وَأَنْتُـمُ الْفُقَـراءُ»؛ فاللـه ليـس بحاجـة إلى مالِـك. عـن الإمـام الصـادق(ع) أنـه قـال: «مَـنْ زَعَـمَ أَنَّ الْإِمَـامَ يَحْتَـاجُ إِلَى مَـا فِي أَيْـدِي النَّـاسِ فَهُـوَ كَافِـرٌ» (الـكافي/ ج١/ ص٥٣٧). اللـه تعـالى غنـي، أنتـم هـم الفقـراء. المقطـع الأخـير مـن الآيـة لافـت جـدًا لنـا نحـن الإيرانيـين؛ يقـول تعـالى: «وَإِنْ تَتَوَلَّـوْا يَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْرَكُـمْ ثُـمَّ لا يَكُونُـوا أَمْثالَكُـمْ»؛ أي: إن لم تتصرفـوا في مـا آمرُكـم بـه مـن الإنفـاق بالشـكل الصحيـح فسـآتي بقـوم آخريـن هـم ليسـوا مثلكـم في الإنفـاق. وهنـاك في الروايـات، حـول هـؤلاء القـوم الذيـن سـيأتي بهـم اللـه محـلَّ أولئـك، إشـارات عـلى أنهـم إيرانِيّـو آخـر الزمـان. مـن اللافـت جـدًا أن اللـه تعـالى حـين يريـد مناداتنـا (نحـن الإيرانيـين) يناديـنـا بصفـة الإنفـاق فينـا.

الإمام الباقر(ع): إن بَخِلتُم على بعضكم البعض بمالِكم فأنتم أبخل بأنفسكم!

عن الإمام الصادق(ع) قوله: «وَيَحِقُّ عَلَى المُسلِمينَ الاجتِهادُ في التَّواصُلِ، وَالتَّعاوُنُ عَلَى التَّعاطُفِ، وَالمُوَاسَاةُ لِأَهلِ الحاجَةِ، وَتَعاطُفُ بَعضِهِمْ عَلى بَعضٍ حَتَّى تَكونوا كَما أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُحَماءَ بَينَكُمْ مُتَرَاحِمينَ مُغتَمّينَ لِما غابَ عَنكُمْ مِن أَمرِهِم عَلى ما مَضَى عَلَيهِ مَعشَرُ الأَنصارِ عَلى عَهدِ رَسولِ اللهِ(ص)» (الكافي/ ج٢/ ص١٧٤)؛ أي: على المسلمين أن يجتهدوا في أن يتواصلوا فيما بينهم، ويتعاونوا على التعاطف مع بعضهم البعض، ويواسوا المحتاجين منهم، ويساعد أحدُهم الآخَر، وأن يكونوا «رحماء بينهم» كما أمر الله إلى درجة أن يغتَمّوا إن لم يتمكنوا من ذلك. ويجب أن يكونوا كما كان أصحاب النبي(ص) حيث إن أهلَ المدينة قد آوَوا في مساكنهم أولئك الذينَ هاجروا إلى المدينة من مكة ولم يكن لهم سَكَن؛ فقسَّمَ الواحدُ منهم بيته، حجرةً لنفسه وحجرة لأخيه المسلم. لا تفسّروا «المساعدة» بالتصدق وحسب، بل التَفّوا حول بعضكم البعض واشْرَعوا بعَمل تجاري جماعي مع رفاقكم. ولتعملوا معًا؛ صديقُك ذو الإمكانية المالية الأقل، وأنت ذو الإمكانية المالية الأكثر. لاحظوا إلى أي مستوى يصل توقّعُ الإمام الصادق(ع) منا؟ إنه(ع) يطالبنا بالمواساة كما كان المسلمون الأوائل في المدينة. وهذه رواية أخرى تستحق منا البكاء! وليُنصِت إليها كل من يقول: «أنا حسيني». كل مَن قَلبَتْ هذه الروايةُ أحوالَه فليتجه إلى الحسين(ع) وليطرق بابه. يقول بُرَيْد العِجْلِيّ: «قيلَ لِأَبي جَعفَرٍ الباقِرِ(ع): إنَّ أَصحابَنا بِالكُوفَةِ جَماعَةٌ كَثيرَةٌ فَلَو أَمَرتَهُم لَأَطاعوكَ وَاتَّبَعوك»؛ يقصد: لماذا لا تثور؟ فقال الإمام(ع): وهل يمُدّ الواحد منهم يده إلى كيس أخيه فيأخذ منه ما يريد بكل طمأنينة؟ «فَقالَ(ع): يَجيءُ أَحَدُهُم إِلى كيسِ أَخيهِ فَيَأخُذُ مِنهُ حاجَتَه؟ فَقالَ: لا»، إنهم ليسوا بهذه الحميمية مع بعضهم البعض. فلتتأملوا قليلًا، إنه ذاك الكلام الخطير نفسه! «إلهي، إني عاجز، أنا لا أستطيع...». حين قال السائل: كلا، لا يمد أحدهم يده إلى كيس صاحبه بسهولة، قال(ع): «فَهُم بِدِمائِهِم أَبخَل» (الاختصاص/ ص٢٤)؛ فحين يدور الأمر مدار الدماء يزداد بخل هؤلاء.. لا ينفعني أمثال هؤلاء لأثور بهم! فالذي لا ينفق المال، لا يبذل النفس أيضًا.

أحـد مصاديـق إدخـال اليـد في كيـس الآخريـن هـو: تعالـوا نتشـارك ونعمَـل سـوية. عـدة سـنوات وأنـا أقـول: يـا روّاد المسـاجد والمواكـب الحسـينية، اجمعـوا أموالكـم إلى أمـوال أصحابكـم وأسّسـوا تعاونيات. إلى متـى تقـول: «أتَّجِـر لوحـدي وأجنـي ربـح تجـارتي بمفـردي؟!» نريـد أن نجمـع رؤوس الأمـوال الصغيرة إلى بعـض ونعمـل سـوية. فـإن الجهـاد بالأمـوال في العديـد مـن آيـات القـرآن الكريـم مُقـدَّم عـلى الجهاد بالنفـس. المنطـق القـرآني هكـذا يكـون في العـادة: «وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنْفُسِـهِم» (الأنفـال/٧٢، و...). ومـا قـول الإمـام الباقـر(ع) إلا تفسـير لهـذه الآيـات الكريمـة. علِّمـوا الأولاد منـذ الابتدائيـة عـلى العمـل التعـاوني؛ أقصـد التعـاون المبنـي عـلى أنمـوذج الأُخـوّة الـذي طرحـه آيـة اللـه الشـاه آبـادي(ره).

لا تقوم الحضارة المتأسِّسة على الإنفاق إن لم يكن على رأسها "ولي"

عـن الإمـام الباقـر(ع) أيضًـا في روايـة أخـرى أنـه قـال: «بُنِـيَ الإِسـلامُ عَـلى خَمسَـةِ أَشـياءَ: عَـلَى الصَّـلاةِ وَالـزَّكاةِ وَالحَـجِّ وَالصَّـوْمِ وَالوَلايَـةِ. قـالَ زُرارَةُ: فَقُلْـتُ: وَأَيُّ شَيْءٍ مِـن ذَلِـكَ أَفضَـلُ؟ فَقـالَ(ع): الوَلايَـةُ أَفضَـلُ لِأَنَّهـا مِفتاحُهُـنَّ وَالـوالي هُـوَ الدَّليـلُ عَلَيهِـنّ» (الـكافي/ ج٢/ ص١٨). والـزكاة هـي البـذل تحديـدًا، وتنـدرج فيهـا أنواعـه كلهـا. فـإنّ لـكل مـا تملكـه زكاةً؛ فـزكاة العلـم، مثـلًا، هـي أن تُعَلِّمـه للآخريـن. وهنـاك أحاديـث جمـة حـول الـزكاة تُنظّـم لـك نمـط حياتـك بدقـة، وتؤسِّـس لنظـام وهيكليـة مُنتِجـة للعدالـة. يقـول الإمـام الباقـر(ع) لـزرارة: إن الإسـلام مبنـي عـلى هـذه الأمـور الخمسـة. فسـأله زرارة عن أهمهـا وأفضلهـا. وأنـا أُسَرّ كثـيرًا بمـن يسـأل: «أيهـا أهـم؟» لأنـه إنسـان فَطِن! حـين سـأله زرارة أيها أهم؟ قـال(ع): «الوَلايَـةُ أَفضَـل لِأَنَّهـا مِفتاحُهُـنَّ»؛ والمفتـاح يعنـي أن الأمـور تبـدأ من هنـا، «وَالوالي هُـوَ الدَّليلُ عَلَيهِـنّ»؛ أي: إنـه الـوَلِيّ الـذي يَـدُلّ عـلى الـزكاة. فـكل هـذه الحضـارة المبنيـة على الإنفـاق، التـي تحدَّثْنا عنهـا، لا تقـوم إذا لم يكـن عـلى رأسـها ولي، ولـن يكون لها جدوى. إنك لم تسـتطع إلى الآن إقناع المسـؤولين بـضرورة أن ينهجـوا منهـج المواسـاة مـع السـيد القائـد! فـما الـذي تبغيـه إذن؟! إنّ هـذا لأكبر ظُلـم يقع!

السيد القائد: لو فُصلت العدالة عن العقلانية والروحانية فلن تكون ثمة عدالة

ولأقرأ عليكم عبارات من كلام سماحة السيد القائد الإمام الخامنئي (دام ظله) تتناول الكلام نفسه الذي قلناه. يقول سماحته: «ما هي العدالة أساسًا؟ إنها مفهوم بسيط بحسب الظاهر، يتحدث به الجميع ويكرره، أما في المصداق وعلى أرض الواقع فإن بلوغها في غاية الصعوبة، وهو ما قاله أمير المؤمنين(ع) عن الحق تمامًا: «فَالحَقُّ أَوسَعُ الأَشياءِ في التَّواصُفِ وَأَضيَقُها في التَّناصُف» (نهج البلاغة/ الخطبة٢١٦). وهكذا الأمر تمامًا بالنسبة إلى العدل؛ فالعدل هو حق أيضًا، ولا فصل بينهما أبدًا. فالحق - بمعنى من المعاني - هو العدل، والعدل هو الحق. فهو سهل في الوصف، لكن بلوغ العدل عمليًا صعب. بل إن معرفة مَواطن العدالة ومصاديقها هي في غاية الصعوبة أحيانًا؛ وهو أنه: أين تُطبَّق العدالة؟ وأين تُنتهَك؟» (في حديث لسماحته لدى لقاء رئيس الجمهورية ومجلس الوزراء في ٢٠٠٥/٨/٣٠).

ذكرتُ هذه العبارات لأن البعض قال حول كلامي: «لقد قلتَ إن غرضَ العدل في العادة هو الوقوف أمام أشكال السرقة!» بينما من الواضح أن مصاديق العدل لا تُحَد في هذا المضمار.

يقول قائد الثورة متابعةً لكلامه أعلاه: «لا أريد الآن أن أُعرّف العدالة. فقد قُدِّمَت تعاريف عامة وأساسية للعدالة، من قبيل التقسيم العادل للإمكانيات، وما إلى ذلك من الكلام، وهو صائب أيضًا، وبحاجة إلى التدقيق والتمعُّن كذلك. بمعنى أن عليكم في كل جانب من عملكم أن تنظروا: ما هو العدل؟ وبأي شيء يتحقق؟ وأريد هنا أن أنوّه بقضية، وهي أننا إن شئنا تحقُّقَ العدالة في المجتمع بالمعنى الحرفي للكلمة فلنعلم أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمفهومَين آخرَين، هما مفهوم العقلانية، ومفهوم الروحانية. فلو فُصلت العدالة عن العقلانية والروحانية فلن تعود تلك العدالة التي تصبون إليها، بل لن تعود عدالةً أصلًا». كأن يعمد بعضُ من يرى نفسه من أنصار العدالة إلى اتهام الآخرين، والتفوه بالبذاءة، ومُجانَبَة التقوى، فهذه عدالة بمعزل عن الروحانية والتعقل!

ويضيف سماحته: «فالعقلانية هي لأنه إذا لم يُتَّخَذ العقلُ أداةً لتعيين مصاديق العدل فسيَضِلّ الإنسان ويُخطئ؛ يظن أنّ فعلًا ما من العدالة وهو ليس كذلك، ولربما غفل عن أمور هي من العدل. فالعقلانية والمحاسبة إذن هي من الشروط الضرورية لبلوغ العدالة» (المصدر نفسه).

سماحة القائد: من لوازم سيادة الشعب الدينية مشاركة أفراده في جميع الميادين/ لو اقتحم التعبويّون ميدان الاقتصاد لأصبح الاقتصاد شعبيًا

ويقول سماحته في موضع آخر مخاطبًا القائمين على مراكز الابحاث وأساتذة الجامعات: «لقد طرحتُ موضوع الاقتصاد المقاوِم وقد أيّدني الجميع وأقَرّ قولي. فأين المشكلة إذن؟ ثمة عقدة علمية في الموضوع، فمَن المسؤول عن فَكّها؟ أو في قضية تهيئة فرص العمل، أين المشكلة؟ لماذا لا تعالَج؟ هناك مُعضلة علمية، لا بد أنه ثمة مشكلة في الموضوع، ثمة عقدة، وهي عقدة علمية، فأين ينبغي فك هذه العقدة؟ ينبغي فكها في الجامعة. أو قضية الآفات الاجتماعية، ومسألة العدالة الاجتماعية؛ فهل تحققت العدالة الاجتماعية يا ترى وها نحن جميعًا نخوض كل هذا الخوض فيها ونتكلّم عليها، وهي من الواضحات والمسَلَّمات؟ فهذا مُعامِل «جيني» يرتفع يومًا بعد آخر». لقد مرَّتْ على قول سماحته هذا ثلاث سنين ومُعامِل «جيني» في الوقت الحاضر مرتفِع أكثر بكثير مما كان عليه قبل ثلاث سنوات خلَت. «صار أسوأ؟ لماذا؟ ما العلة في الموضوع؟ لماذا لا يتحقق في بلدنا هذا الفكر الصائب، وهذه المطالَبة السليمة، وهذا الهدف الصحيح (أي العدالة)؟»

لقد ذكر سماحة السيد القائد قبل أربعة أعوام أن: «من لوازم سيادة الشعب الدينية مشاركة أفراده في جميع الميادين. فمشاركة الشعب لا تقتصر على الحضور عند صناديق الاقتراع، بل على الجماهير أن تشارك في جميع الميادين؛ على سبيل المثال لا بد للجماهير أن تشارك في الاقتصاد مشاركةً فاعلة، وعندها ستتحقق سيادة الشعب الدينية في قطاع الاقتصاد». ثم أضاف سماحته: «قوات التعبئة (البسيج) هي تحقُّق سيادة الشعب الدينية على أرض الواقع. فقوات التعبئة هي مظهر لسيادة الشعب الدينية في جميع الصُعُد، فلو اقتحم التعبويون ميدان الاقتصاد لأصبح الاقتصاد اقتصادًا شعبيًا» (بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٣).

كان العلامة الطباطبائي(ره) يَعُد الحضارة الغربية "حضارة التوحُّش"

ولنتحوّل الآن إلى القسم الثاني من البحث: وهو أنه ثمّة في مقابل الحضارة الإسلامية القائمة على الإنفاق حضارة أخرى مبنية على الإمساك. ولأُعَرِّفكم أوّلًا بالحضارة المبنية على الإمساك. يقول العلامة الطباطبائي(ره): «إن القضاء بالصلاح والطلاح على أفراد المجتمعات المتمدّنة الراقية على خلاف أفراد الأمم الأخرى لا ينبغي أن يُبنَى على ما يظهر من معاشرتهم ومخالطتهم فيما بينهم وعيشتهم الداخلية بل بالبناء على شخصيتهم الاجتماعية البارزة في مُماستها ومصاكتها [احتكاكها مع] سائر الأمم الضعيفة ومخالطتها الحيوية سائر الشخصيات الاجتماعية في العالم» (الميزان في تفسير القرآن/ ج٤/ ص١٠٦)؛ ما معناه أنه لا يجوز عند الحُكْم على المجتمعات المتحضِّرة أن نتّخذ أفرادَها معيارًا لصلاحها أو فسادها، كما لا ينبغي قياسهم بأفراد مجتمع آخر. فلو رأينا مواطني بلدٍ غربي معيّن يمارسون مع بعضهم البعض سلوكًا معَيَّنًا؛ كأن يتصرّفوا فيما بينهم بأدب، ولا يكذبوا على بعضهم البعض، وأن أهالي بلد شرقي مسلم ليسوا هكذا فلا يسعنا القول: إذن المجتمعات الغربية عمومًا أفضل من الشرقية، بل علينا أن نجعل المعيار شخصيتَهم الاجتماعية وسلوكَهم مع باقي المجتمعات. لا بد أن نرى: كيف هو سلوك المجتمع الغربي الفلاني، الذي يرى نفسه متحضّرًا، مع مجتمع كذا الضعيف؟ وخلاصة القول: علينا أن نقيس شخصية هذا المجتمع الاجتماعية بباقي الشخصيات الاجتماعية في العالم. إذ يذهب العلامة الطباطبائي(ره) إلى أن لدينا عنصرًا اسمه الفرد، وعنصرًا آخر اسمه المجتمع، وهو يرى للأخير أصالة، وأن له شخصية خاصة به. كما أن المجتمع، وفق المنطق القرآني، يموت، ويُنعَت، وله تعاليم وأحكام. ويتابع سماحته(ره) القول: «فهذه هي التي يجب أن تُراعَى وتعتبَر في القضاء بصلاح المجتمع وطلاحه، وسعادته وشقائه، وعلى هذا المجرى يجب أن يجري باحثونا، ثم إن شاؤوا فليستعجبوا وإن شاؤوا فليتعجّبوا» (المصدر نفسه)؛ أي إنّ باحثينا، من الفضلاء المتغربين، قد غفلوا – مع الأسف - عن هذا المعنى فالتبس عليهم الأمر، في حين أنهم لو نظروا إلى المجتمع الغربي نظرتهم إلى شخصية (أو بتعبير بحثنا:

نظرتهـم إلى حضـارة) وقاسـوا سـلوك هـذه الشـخصية مـع سـائر شـخصيات العـالم فسـيُعلَم حينهـا إن كانـوا سيسـتغربون مـن حضـارة الغـرب أم مـن توحُّشـهم! وكأنّ العلامـة الطباطبـائي(ره) هنـا يُقـرّ علنـاً بوحشـية الحضـارة الغربيـة. ونحـن أيضًـا في عاشـوراء نبـكي عـلى الوحشـية التـي مُورِسَـت مـع خيـام أبي عبـد اللـه الحسـين(ع)، فعلينـا أن نعـرف يزيـد زماننـا أيضًـا.

كيف ترضى الطبيعة الإنسانية أن تُجهّز طائفةٌ على الآخرين باسم التحضُّر؟!

ثـم يُضيـف العلامـة الطباطبـائي(ره) قائـلًا: «ولعَمْـري لـو طالَـع المُطالِـع المتأمِّـل تاريـخَ حياتهـم [الغربيـين] الاجتماعيـة مـن لـدن النهضـة الحديثـة الأوربيـة [الظاهـر أن سـماحة العلامـة يقصـد هنـا عـصر النهضـة] وتعمّـقَ فيـما عامَلـوا بـه غيرَهـم مـن الأُمَـم والأجيـال المسـكينة الضعيفـة لم يلبـث دونَ أن يـرى أن هـذه المجتمعـات؛ التـي يُظهِـرون أنّهـم امتلَـؤوا رأفـةً ونُصحًـا للبـشر، يَفـدون بالدمـاء والأمـوال في سـبيل الخدمـة لهـذا النـوع وإعطـاء الحريـة والأخـذ بيـد المظلـوم المهضـوم حقًّـا وإلغـاء سُـنّة الاسـترقاق والأسر - يـرى أنهـم لا هَـمَّ لهـم إلا اسـتعباد الأمـم الضعيفـة مسـاكين الأرض مـا وجَـدوا إليـه سـبيلًا بمـا وجـدوا إليـه مـن سـبيل؛ فيومًـا بالقَهـر، و يومًـا بالاسـتعمار، ويومًـا بالاسـتملاك، ويومًـا بالقيمومـة، ويومًـا باسـم حفـظ المنافـع المشـتركة....» [أي يـرى سـماحته وحشـيتهم]. «والمجتمعـات التـي هـذا شـأنها لا ترتـضي الفطـرةُ الإنسـانية السـليمة أن تَصِفَهـا بالصـلاح أو تُذعـن لهـا بالسـعادة وإن أغمضَـت النظـرَ عـما يشـخّصه قضـاء الديـن وحُكـم الوحـي والنبـوة مـن معنـى السـعادة. وكيـف تـرضى الطبيعـة الإنسـانية أن تُجَهِّـز أفرادَهـا بمـا تُجَهِّزَهـا عـلى السـواء ثـم تناقـض نفسَـها فتعطـي بعضًـا منهـم عهـدًا أن يتملّكـوا الآخريـن تملّـكًا يُبيـح لهـم دماءَهـم وأعراضهـم وأموالهـم، ويسـوّي لهـم الطريـق إلى اللعـب بمجامـع حياتهـم ووجودهـم والتـصرّف في إدراكهـم وإرادتهـم بمـا لم يَلقَـه ولا قاسـاه إنسـان القـرون الأولى؟!» (المصـدر نفسـه/ ص١٠٦-١٠٧). ثـم يقـول العلامـة الطباطبـائي(ره)، وهـو الفيلسـوف الـذي لا يُلقـي كلامـه مـن دون توثيـق واسـتدلال: «والمُعَـوَّل في جميـع مـا نذكـره تواريـخ حيـاة هـؤلاء الأمـم ومـا يقاسـيه الجيـل الحـاضر مـن أيديهـم. فـإن سُـمّي مـا عندهـم سـعادةً وصلاحًـا فلتكـن بمعنـى التحكّـم وإطـلاق المشـيّة» (المصـدر نفسـه/ ص١٠٧)؛ فأسـوَأ هـذه الجرائـم هـي أن يُسَـمّوا جرائمهـم، بمـا أوتـوا مـن منطـق التجـبُّر، إصلاحًـا!

آية الله بهجت(ره): إننا نمد أيدينا إلى حفنة من الوحوش المفترسة!

ننتقل الآن إلى كلام سماحة آية الله بهجت(ره) حيث يقول: «والآن، بماذا يتم إصلاحنا حاليًّا؟ إنه بالأوبة عما نعلم أننا نفعله في الداخل أو الخارج. فإننا نقيم مع الأجانب علاقات تصُبّ في مصلحتهم، ولا تصب في مصلحتنا» (كتاب: به سوى محبوب (نحو المحبوب)/ ص١٠٦-١٠٧). إذن خلاصة قول سماحة آية الله بهجت(ره) هو أن علاقتَنا بالأجانب تصب في مصلحتهم هم. ثم يتابع سماحته: «إننا نمد يد الاستعطاء إلى حفنة من الوحوش المفترسة والبهائم، ونرغب في أن يُقرضونا!» ويقول سماحته في موضع آخر: «العجيب أن الكفار يقترحون علينا، من أجل هدايتنا وإرشادنا، الصلحَ والتطبيع، بالضبط كمعلّم الأخلاق إذا واجهَ جاهلًا ضحلَ الأخلاق ويريد إرشاده». ويقول سماحته(ره): «من غير المُستبعَد أن تؤمن السباع، أما هؤلاء فإنهم أسوأ حتى من السباع والوحوش» (المصدر نفسه). لو كان القوم يعرفون هذه الأمور من ذي قبل لما وصلت بنا الحال إلى ما نحن عليه.

الإمام الراحل(ره): ماذا عسانا نصنع بهذه الحضارة الغربية الأسوأ من التوحُّش؟!

ونتناول الآن كلمات الإمام الخميني الراحل(ره)؛ يقول سماحته: «المهم برأيي هو أن الأب وابنَه الطالحَين (الشاهَين البهلويَّين) قد جعلانا نؤمن بالغرب إلى درجة أن أصبحنا غير ميّالين للقبول بسوى ما يُلَقِّنُنا به. هكذا صار أغلب شبابنا تقريبًا؛ تحوّلوا من إيرانيين إلى غربيين. إنه لَخطَر أن لا يعود بلدٌ ما يقبَل نفسَه... علينا أن نحلّل برَوِيّة لنرى إن كانت أشكال التطور هذه (الموجودة في الغرب) تسير باتجاه التحضّر أم نحو التوحّش؟ ما أريد قوله هو إن الولايات المتحدة وسائر هذه الدول الغربية والشرقية تسير، عبر أشكال الرُقِيّ التي خلقَتها، نحو تنشئة شعوبها على التوحّش. إنّ كل ما يصنعون هو من أجل التوحّش» (صحيفه امام (صحيفة الإمام)/ ج٨/ ص١٠٠). لاحظوا كم تتشابه أقوال هؤلاء العظماء الثلاثة! ويقول سماحته(ره) في موضع آخر: «الأمور التي تشاهدونها في الدول الأخرى وتظنون أنها تحضُّر هي - إن تأمّلتُم جيدًا - ليست تحضّرًا، بل هي أقرب ما تكون إلى التوحّش» (المصدر نفسه/ ص٣٠٩). ويقول(ره) أيضًا في موطن آخر: «ماذا عسانا نصنع بهذا التحضر الذي هو أسوأ من التوحش، التحضر الذي سلوكُ حيوانات البراري أرقى منه؟ أنريد بلوغ مثل هذه الحضارة؟!» (صحيفه امام (المصدر نفسه/ ج١٢/ ص٣٧٨).

الإمام الراحل(ره): ما لم يرحل المتغربون عن البلد أو ينصلحوا لن تنالوا استقلالكم؛ لن يذروكم!

ويقول سماحته(ره): «إننا قد نجونا من رضا خان ومحمد رضا شاه، لكننا لن ننجوا بهذه السرعة من أَرِبّاء الغرب والشرق» (المصدر نفسه/ ج١٥/ ص٤٤٦). لاحظوا هذا الإمام نفسُه ذو النظرة الإيجابية، هذا الإمام ذاتُه الذي يقول: «سنقتحم ذُرى العالَم» ويقول: «نحن أقوياء»، ...إلخ، قال في موضع واحد فقط: «لن ننجوا منهم بهذه السهولة»، وهم المتغرّبون! والمتغرّب هو المولَع بحضارة التوحش هذه! إنني أنقل لكم هذا الكلام بعد أن قرأتُ صحيفة الإمام كلها. ويقول سماحته(ره) في مكان آخر: «لا ينبغي أن نتوقع من المريض - الذي راح الخَوَنة، على مدى خمسين ونيِّف من السنين، يُغَذّون مرضَه ويتمادون في إمراضه - أن يُشفى من هذا المرض فورَ رحيل هؤلاء الخوَنة. لا نتوقَّعَنّ التعافي من هذا المرض الغربي، الذي انتقل إلى مجتمعنا من الغرب، من الدول الأجنبية التي كانت تريد سلبَنا كل شيء – التعافي منه مدة ثمانية أشهر، أو ثماني سنين، أو حتى عشرين سنة» (المصدر نفسه/ ج١٠/ ص٣٨٨). واللافت أن المتغربين قد عادوا إلى الساحة بشعاراتهم علنًا بعد حوالي عشرين عامًا من كلام الإمام الراحل(ره) هذا. ثم يتابع(ره): «...إن طموحكم في أن يُشفى هؤلاء المرضى بين ليلة وضحاها، أو أن تُنَحّوهم جانبًا وتأتوا بصالحين محلَّهم هو طموح غير معقول. إني أعلم أن الأجانب قد عملوا، في المجالات كافة، وفي مراكز التربية والتعليم خاصةً، على الإبقاء على الناس في مستوى معيَّن، أو حَرفِهم عن الجادة التي ينبغي المُضِيّ فيها». ثم يردف(ره) قائلًا: «وما لم يرحل هؤلاء المتغربون، الموجودون في كل مكان، عن البلد أو ينصلحوا فلن تنالوا استقلالكم، إنهم لن يذروكم تفعلوا ذلك!» (صحيفه امام (المصدر نفسه/ ص٣٩١). ويقول الإمام الراحل(ره) في موضع آخر: «فلتُكسَر الأقلام التي تكتب لهم، ولتُقطَع الألسُن التي تتكلم خدمةً لمصلحتهم وتسعى لإفساد أفراد الشعب» (المصدر نفسه). ولتذهبوا وتقرؤوا أول هذه الجُمَل وآخرها. ويقول(ره) في مكان آخر: «أيها السادة، إن بلدنا اليوم هو ضحية التغرّب، وهو أسوأ من أن يكون ضحية زلزال... فليُنَحّوا المتغرّبين جانبًا؛ وليس عددهم بالكثير جدًا، لكنّ تدخُّلهُم فائق عن الحَدّ؛ ليسوا كثيرين بالعدد، لكن مزاعمهم كبيرة» (المصدر نفسه/ ج٨/ ص١٧٧).

ويقول سماحة الإمام(ره) أيضًا: «كل أشكال التغرُّب ظُلمَة. إن الذين اهتمامهم الغرب والأجانب، وقبلتهم الغرب، والذين يُوجِّهون وجوهَهم للغرب هم غارقون في الظلمات، وإن أولياءهم الطاغوت» (المصدر نفسه/ ج٩/ ص٤٦٠). اقرأوا الليلةَ قبلَ النوم آية الكرسي عملًا بسنة رسول الله(ص). يقول تعالى في آخر آية الكرسي ما معناه: إن مَن كان أولياؤهم الطاغوت مُخَلَّدون في العذاب: «وَالَّذينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُون» (البقرة/٢٥٧).

ماذا يجب أن نصنع مع المتغربين في بلدنا؟

فماذا نصنع إذن مع هؤلاء المتغربين العابدين للغرب؟ فليَنأَ مجلس الشورى الإسلامي بنفسه عنهم. أرجوكم أن تؤلّفوا لجنة لتقصّي كل القوانين المتغرّبة والعمل على إصلاحها. قبل سنين قال أحدهم في لقاء معه: «لقد اقتبستُ من فرنسا وانجلترا بعض القوانين الخاصة بالأسرة، مع بعض التعديلات، وعملتُ على إقرارها في مجلس الشورى. كان البرلمان رافضًا ذلك في البداية فعملتُ على إقرارها بشقّ الأنفُس. مجلس صيانة الدستور أيضًا كاد أن يرفضها فبالغتُ في الإصرار عليهم حتى اقتنعوا...». نأمل أن يتمكن مجلس الشورى الحالي من إصلاحها، فأمثال هذه القوانين هي أساس الظلم. إنهم قد حوَّلوا الأسرة إلى بيئة منزوعة المواساة، وهذا هو سبب انخفاض معدلات الإنجاب. منطق الواحد منهم هو: «لماذا أَشيخُ أنا وأفدي غيري بنفسي؟!» إنه يبخل في الإنجاب. أترون ما صنعت فينا ثقافة الإمساك والحضارة القائمة على الإمساك؟!

زكريا(ع): إلهي، هبني صبيًا صالحًا يستشهد في سبيلك...

أعزائي الشباب، إنكم إن أقدمتم على الزواج وأنجبتم الأولاد مرضاةً لصاحب الزمان(عج) فسيحصل في المجتمع تطوّر من نوع آخر. طالِعوا قصة أم مريم العذراء(س) في سورة آل عمران، إنها معجزة من معاجز الله سبحانه. أُمٌّ تخاطب ربها: إلهي، لقد نذرتُ لك الجنين الذي في بطني... وكان الجنين بنتًا. قالت: إنها بنت، وكان لا بد أن يكون صبيًا لأنذره لك، أنا الآن طوعُ أمرك. فقال لها الله: قبلتُ منك؛ «إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي... فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى... فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ...» (آل عمران/٣٥-٣٧). فكانت هذه البنت مريم العذراء(س) وكان ابنها عيسى بن مريم(ع).

يقـول نبـي اللـه زكريـا(ع): كلـما دخلـتُ عـلى مريـم المحـراب أجـد عندهـا فاكهـة، فسـألتُها: مـن أيـن لـك هـذا؟ فأجابـت: اللـه يبعثهـا لي مـن الجنـة؛ «كُلَّـما دَخَـلَ عَلَيْهـا زَكَرِيَّـا الْمِحْـرابَ وَجَـدَ عِنْدَهـا رِزْقًـا قـالَ يـا مَرْيَـمُ أَنَّى لَـكِ هـذا قالَـتْ هُـوَ مِـنْ عِنْـدِ اللـه» (آل عمـران/٣٧). وحينـذاك.. «هُنالِـكَ دَعـا زَكَرِيَّـا رَبَّـهُ قـالَ رَبِّ هَـبْ لِي مِـنْ لَدُنْـكَ ذُرِّيَّـةً طَيِّبَـة» (آل عمـران/٣٨). يـا إلهـي، مـا أروعـه مـن ولَـد هـذا الـذي تمنحُـه بعـد دعـاء! يقـول رب العـزة: لقـد وهبـتُ لزكريـا أيضًـا ولـدًا. حـين اسـتجاب اللـه تعـالى لزكريـا دعـاءه قـال زكريـا(ع): لكنـي يـا إلهـي قـد كـبرتُ في السـن، وهـذه امـرأتي عاقـر لا تُنجـب! فقـال اللـه تعـالى: لقـد سـألتَني، وهـا أنـا أهبُـك ولَـدًا! «فَنادَتْـهُ الْمَلائِكَـةُ وَهُـوَ قائِـمٌ يُصَـلِّي فِي الْمِحْـرابِ أَنَّ اللـهَ يُبَـشِّرُكَ بِيَحْيـى... قـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُـلامٌ وَقَـدْ بَلَغَنِـيَ الْكِـبَرُ وَامْـرَأَتِي عاقِـرٌ قـالَ كَذلِـكَ اللـهُ يَفْعَـلُ مـا يَشـاء» (آل عمـران/٣٩-٤٠). القصـة إلى هنـا مذكـورة في القـرآن الكريـم، أمـا تتمتهـا ففـي الروايـات. قـال زكريـا(ع) لربـه: إلهـي، مـا دمـتَ سـتهبني ولـدًا فهبنـي ولـدًا صالحًـا يستشـهد في سـبيلك.. يفصلـون رأسَـه عـن جسـده ويضعونـه أمامـي، فيلتَـعْ قلبـي بمصـاب هـذا الولـد القطيـع الـرأس، فـأواسي بـه نبـي آخـر الزمـان إذ يُفصَـل رأسُ ولَـده الحسـين(ع) عـن جسـده! «زَكَرِيَّـا سَـأَلَ رَبَّـهُ أَنْ يُعَلِّمَـهُ أَسْـماءَ الْخَمْسَـةِ فَأَهْبَـطَ عَلَيْـهِ جَبْرَئِيـلَ فَعَلَّمَـهُ إِيَّاهَـا... ثُـمَّ كَانَ يَقُـولُ: اللَّهُـمَّ ارْزُقْنِـي وَلَـدًا تَقَـرُّ بِـهِ عَيْنِـي عَـلَى الْكِـبَرِ، وَاجْعَلْـهُ وَارِثًـا وَصِيًّـا، وَاجْعَـلْ مَحَلَّـهُ مِنِّـي مَحَـلَّ الْحُسَـيْنِ، فَـإِذَا رَزَقْتَنِيـهِ فَافْتِنِّـي بِحُبِّـهِ، ثُـمَّ فَجِّعْنِـي بِـهِ كَـمَا تُفَجِّـعُ مُحَمَّـدًا حَبِيبَـكَ بِوَلَـدِهِ. فَرَزَقَـهُ اللـهُ يَحْيَـى وَفَجَّعَـهُ بِـه...» (كـمال الديـن وتمـام النعمـة/ ج٢/ ص٤٦١). فوهبـه اللـه تعـالى يحيـى.. وما أحَبَّـه من يحيى! فوصلـت المواصيـل إلى أن يفصل الأعـداء رأس يحيى عن جسـده، ويضعـوه في طشـت، فـكان زكريـا ينظـر إليـه ويقـول: يـا حسـيني.... فلتدعـوني الآن أقـرأ العـزاء لزكريا(ع).. أقول: يا زكريا، أجل لقد فصلوا رأس ولدك يحيى عن جسده، لكنهم لم يقتادوا وُلْدَه أُسارى في البوادي، ولم يضربوا أطفاله بالسـياط، ولم يسـلبوا خيامه... فأين ولدك يحيى من حُسـينِ رسول الله(ص)...!